إلى أخي الأستاذ محمد
صبيح أول من سألني
وأبدع عن النيل أهدي
هذه السطور التي لا ترقى
لمستوى كتاباته الرائعة
٢١/٥/١٩٥٨

من وحي الجنوب

أحمد حسين
المحامى

من وحى الجنوب



دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر

إلى زوجتي حسنية
إلى روح أخي الشهيد
مصطفى الوكيـــل

١

كوستى — الأحد أول أبريل سنة ١٩٥٦

إن روحى متعلقة بأن يكون السير مع النهر صعوداً لا هبوطاً . . . أنا أريد أن أتدرج من الصحراء المحرقة إلى منطقة السافانا المورقة ، حتى أصل إلى الغابات المتكاثفة الصاخبة ، العارمة بالحياة من نبات وطيور ووحوش وأمطار لا تنقطع . . . أنا أريد أن أجعل من خط الاستواء ذروة رحلتى . . .

الساعة ٨ صباحاً

إنه حلم يوشك أن يتحقق ، إن لم يكن قد بدأ التحقق بالفعل . فهأنذا أخط هذه السطور على ظهر الباخرة النيلية « الرجاف » الراسية على ميناء كوستى[١] ، وبعد ساعتين من الآن ، إذا لم يجد جديد ، أو يقع عطل فى الآلات فسوف تتحرك الباخرة لتبدأ رحلتها الطويلة ، الطويلة جداً حتى مدينة جوبا عاصمة جنوب السودان ، فاللهم حمداً وشكراً .

لقد كانت أمنية من أمانىّ دائماً ، أنا الذى أحببت مصر والسودان الحب كله ، ودعوت إلى دولة واحدة تنتظم وادى النيل من منبعه حتى مصبه ، أن أقوم بهذه الرحلة صاعداً فى النهر نحو أعاليه ، نحو منابعه الأولى ، حيث انبثقت الحياة كلها . . . لا مجرد ماء النيل .

النيل المعبود

كان أجدادنا يعبدون النيل ، أو بالأحرى يقدسونه باعتباره مصدر الحياة

---

(١) تقع كوستى على النيل الأبيض على بعد ٢٥٧ كيلومتراً جنوب الخرطوم بالخط المستقيم وعلى بعد ٣٢٠ كيلو بالنهر . وهى نقطة الابتداء لرحلة السفن النيلية نحو الجنوب ، ويصل إليها المسافر بالقطار من الخرطوم عبر الجزيرة .

والبركات ، وتلك حقيقة علمية مقررة فلولا النيل ما كانت مصر ولا كان الشعب المصرى ، ولذلك فكلما كبرت فى السن زاد تعلقى بالنيل وحبى له ، حتى لقد تحول الحب إلى عشق وهيام ، وككل عاشق يحرص على أن يعرف كل شيء عن معشوقه ومحبوبه ، كان شأنى مع النيل دائماً ، فكنت شديد الحرص أن أعرف كل شيء عنه ، ولكن الاستعمار الإنجليزى وقف دائماً حجر عثرة فى سبيل تحقيق آمالى .

كان السودان كله منطقةً حراماً بالنسبة لى ، ولم أستطع أن أنفذ إلى السودان إلا لمدة أسبوع ، أمضيته فى زيارة الخرطوم وواد مدنى ، فى عام ١٩٣٨ ، وقد ندم الإنجليز على سماحهم لى بهذه الزيارة ندماً شديداً ، وحالوا بينى وبين دخول السودان مرتين بعد ذلك على الرغم من أننى كنت أحمل فى إحدى هاتين المرتين تصريحاً منهم بالدخول ؛ ولكننى عندما وصلت إلى حلفا ، قيل لى إن التصريح قد ألغى وإننى يجب أن أعود أدراجى إلى مصر . وحتى لو أننى نجحت فى هاتين المرتين فى الدخول إلى السودان ، لما استطعت أن أنفذ إلى الجنوب ، فقد كانت منطقة مقفلة ومحرمة لا على المصريين فحسب بل على السودانيين أنفسهم . وهكذا ظلت هذه الأمنية خيالا بعيد التحقيق ، وظلت عاطفتى المشبوبة نحو الالتقاء بمحبوبى فى مواطنه الأولى ومراتع طفولته وفتوته ، متأججة بغير إطفاء .

السودان المتحرر

ثم كانت إرادة الله ، واستقل السودان وتطهر من الإنجليز إلى غير رجعة ، وأصبح على رأس حكومته صديقى الكبير وزميل الجهاد الأستاذ إسماعيل الأزهرى ، وهرعت إلى السودان مهنئاً بالحرية والاستقلال ، فأنزلنى إسماعيل الأزهرى ضيفاً عليه ، واستقر بى المقام فى السودان بعد أن أصبح كريماً عزيزاً وقد آلت مصائره إلى يد أبنائه بغير شريك أو وصى ، فتحركت فى نفسى العواطف

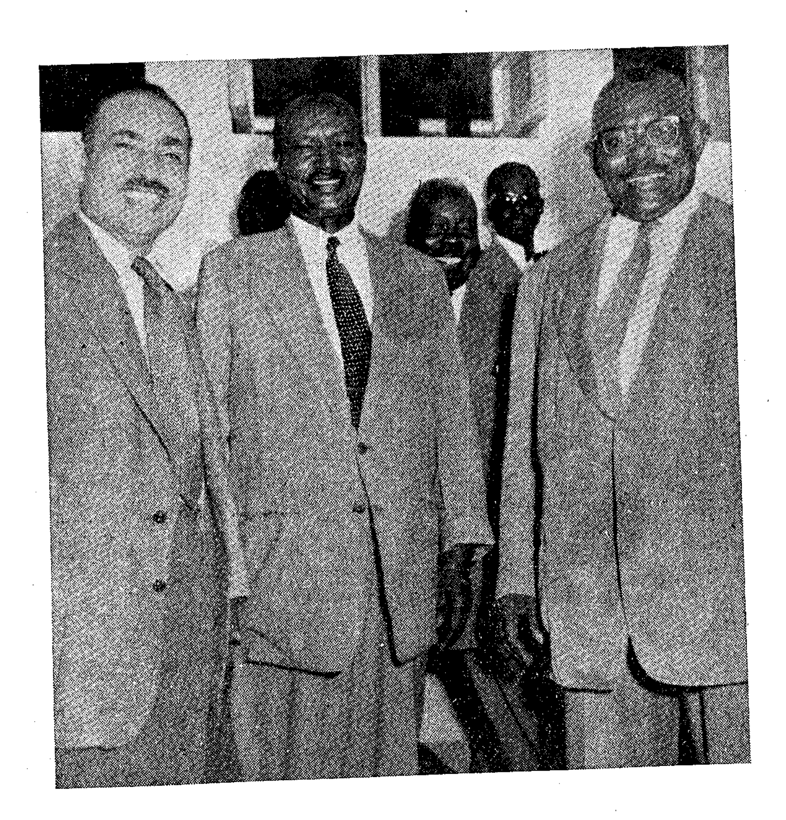
المكبوتة ، وتلجلجت الآمال فى صدرى ، أيكون الأوان قد حان لأحقق أمنيتى العزيزة فأسافر إلى الجنوب ، نحو أعالى النيل ، لأطفئ نيران الشوق والجوى بزيارة الحبيب ؟

وترددت فى مصارحة السيد إسماعيل الأزهرى برغبتى ، فقد يكون هناك من الظروف والأسباب ما يحول دون تنفيذ هذه الرغبة ، فالجنوب قريب عهد بفتنة مؤسفة ، لا تزال آثارها المؤلمة مستمرة حتى الآن ، فأشفقت أن يرفض طلبى فأصاب بخيبة أمل شديدة ، فقد أصبح ما بقى منا من العمر أقل بكثير مما قطعناه منه ، ولو أن هذه الفرصة ضاعت على ، فلست أظن أنها ستعوض فى المستقبل .

واستخرت الله ، ثم قررت أن أفاتح السيد الأزهرى فى رغبتى ، فلم أكد أفرغ من الإفصاح عن أمنيتى ، حتى كان إسماعيل الأزهرى أسرع من رد الطرف لتحقيق الأمنية ، فلم تمض أربع وعشرون ساعة حتى كان لدى برنامج كامل ومعد لرحلة للجنوب ،وحتى كان يتعين على أن أتجهز للسفر فوراً فالباخرة لا تقوم إلا مرة واحدة فى كل شهر ، ولم يكن يفصلنى عن أول الشهر إلا يومان ، يجب أن أمضى أحدهما فى القطار من الخرطوم حتى كوستى .

وقال الذين طلب الرئيس منهم أن ينظموا لى الرحلة : أليس من الأنسب أن تختزل هذه المتاعب وتسافر بالطائرة إلى جوبا ؟ قلت : أعوذ بالله ! وماذا أفعل بالطائرة تنقلنى وتقذف بى إلى جوبا فى بضع ساعات ، إنما أريد أن أسير ومحبوبى ، أريد أن أسير مع وريد الحياة وشريانها . قالوا : ولكن الرحلة تستغرق ثلاثة عشر يوماً ، قلت : أنعم بها وأكرم ، فهذا هو الذى أريد وأصبو إليه ، أن أعيش هذا الوقت الطويل فى صحبه النيل ، محصوراً بين شاطئيه ، تظلنى السماء التى أظلته ، وأنشق النسمات التى تخط على صفحته أبدع الآيات . قالوا : ما دامت هذه رغبتك فلا مانع من أن تسافر بالطائرة وتعود بالباخرة ، قلت : إن روحى متعلقة أن يكون السير من النهر صعوداً لا هبوطاً ، أنا

أريد أن أتدرج من الصحراء المحرقة ، إلى منطقة السافانا المورقة ، حتى أصل إلى الغابات المتكاثفة الصاخبة ، العارمة بالحياة من نبات وطيور ووحوش وأمطار لا تنقطع ، أنا أريد أن أجعل من خط الاستواء ذروة رحلتى ، لا أن أبدأ بالذروة ثم أنحدر منها .



المؤلف يقف إلى جوار الرئيس السابق السيد إسماعيل الأزهرى والرئيس الحالى السيد عبد الله خليل وذلك عقب الجلسة التاريخية بالبرلمان السودانى فى ٥ يوليو سنة ١٩٥٦ والتى تسلم فيها السيد عبد الله خليل الوزارة من السيد إسماعيل الأزهرى .

نحو الجنوب

وقد كان ، وتم البرنامج كما اشتهيت ، وتحرك القطار فى منتصف يوم

السبت آخر مارس قاصداً نحو كوستى ، وكان فى وداعى مندوب السيد الأزهرى الأستاذ محمد عثمان المفتى ، وذلك الأخ الكريم والصديق الشهم الطيب مجذوب الشاعر ، وإن هو إلا بعض الوقت حتى اختفت هذه الأراضى البور الموحشة لتحل محلها أرض الجزيرة المزروعة قطناً . وكان كل شىء يؤكد الحقيقة المقررة ، وهى أن هذا الجزء من السودان قد أصبح محور الاقتصاد ومصدر الرفاهية . فقد كانت بالات الذهب الأبيض (القطن) تتكدس فى كل مكان على أرصفة المحطات ، وكانت المؤسسات والمستودعات والمنشئات والقرى تنطق بعمران هذه المنطقة كأروع ما يكون العمران ، وبغنى هذه المنطقة كأعظم ما يكون الغنى الزراعى بالنسبة لباقى مناطق السودان .

وقضينا الليل فى القطار ، وعند الصباح كان القطار يصل إلى كوستى ، ويقترب من مينائها النهرى ، حيث تقف عشرات السفن والصنادل والقوارب ، وتدور حركة دائبة بالليل والنهار ، ونشهد هذه الروافع الميكانيكية الكبرى المركبة على رصيف الميناء ، إننا إزاء ميناء ، ميناء نهرى كامل بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى الحيوية والأهمية .

وهأنذا أجلس على ظهر الباخرة وأخط هذه السطور فى انتظار تحرك السفينة ، والساعة الآن قد بلغت الثامنة والنصف ، وبعد ساعة ونصف ساعة تبدأ رحلتنا البطيئة ، التى أحبها لهذا البطء والتمهل ، بل لو كان باستطاعتى أن أوقف سير الزمن لفعلت ، فهذه الساعة ساعة التلاقى مع المحبوب ، هى وحدها الجديرة بالحياة .

النسيم العليل يصل إلى حد البرد الخفيف ويزيد فى النشوة التى تتملكنى بل إن الهواء يصل إلى حد البرد الخفيف الذى يحدث لى قشعريرة ، وحقاً لقد تركت الخرطوم فى جو معتدل ، ولكنى ما تصورت بحال أن كوستى التى تقع جنوب الخرطوم بأكثر من ٢٥٠ كيلو ستكون فى هذا الجو الرائع الذى يجعلنى أستحب الجلوس فى الشمس لأستمتع بالدفء والحرارة .

لقد هممت قبل أن أغادر القطار أن أغير ملابسى الثقيلة ، وأرتدى « الشورت » والقميص والنعل ، ولكنى وجدت الجو لا يسمح بذلك فهو جو شتاء . ولا شك أن الكثيرين ممن يطالعون هذه السطور من سكان الشمال فى مصر وإلى الشمال منها ، سيدهشون عندما أقول لهم إن الجو كان بارداً فى صباح أول أبريل سنة ١٩٥٦ فى مدينة كوستى التى تقع على خط العرض الثالث عشر ، ولكنها نفحات الحبيب لحبيبه ، إنه الاستقبال الكريم الذى يستقبل به النيل ابنـًا من أبنائه ، حانيـًا عليه ومسبغاً عليه من عطفه وآلائه .

الساعة ٥ مساء

نحن الآن فى عرض البحر منذ بضع ساعات ، وقد كان علينا أن ننتظر طويلا قبل أن يفتح كوبرى كوستى المقام على النيل لمرور القطارات الذاهبة إلى الغرب ويسمح للسفينة بالعبور . ولقد اختص النيل منذ أقدم العصور بتسميته بحرًا ، ولست أحسب أنه استحق أن يوصف بذلك ، بأكثر من منظره فى هذه المنطقة التى نجتازها ، والتى قد يتجاوز عرض النهر فيها كيلو مترين . ولكن عبثاً أحاول أن أجد فيما يحيط بى شيئاً يخالف ما ألفته من رؤية النيل فى مصر أو عند الخرطوم . إننا نسير الآن فيما يسمى بالنيل الأبيض ، أى قبل أن يلتقى بالنيل الأزرق فى الخرطوم ، ومع ذلك فلون الماء هو لونه المألوف فى مصر ، وغزارة المياه وجريان الماء والشاطئان وما يحيط بهما من أراض سهلة ، كل ذلك لا جديد فيه ولا غريب ولا شىء غير مألوف .

وتدوى دواليب الباخرة الرجاف ، وتقلب الماء قلباً أمام ناظرىّ المسحورين بهذه الحركة الجميلة التى تخلق شلالا مستمرًّا فى أعقاب الباخرة هو الذى يدفعها للأمام بما عليها من حمولة ، وبما تجر إلى جوانبها وأمامها من صنادل وعائمات قد شدت إليها[1] . ولم أعد أدهش الآن لاستغراق الرحلة حتى جوبا

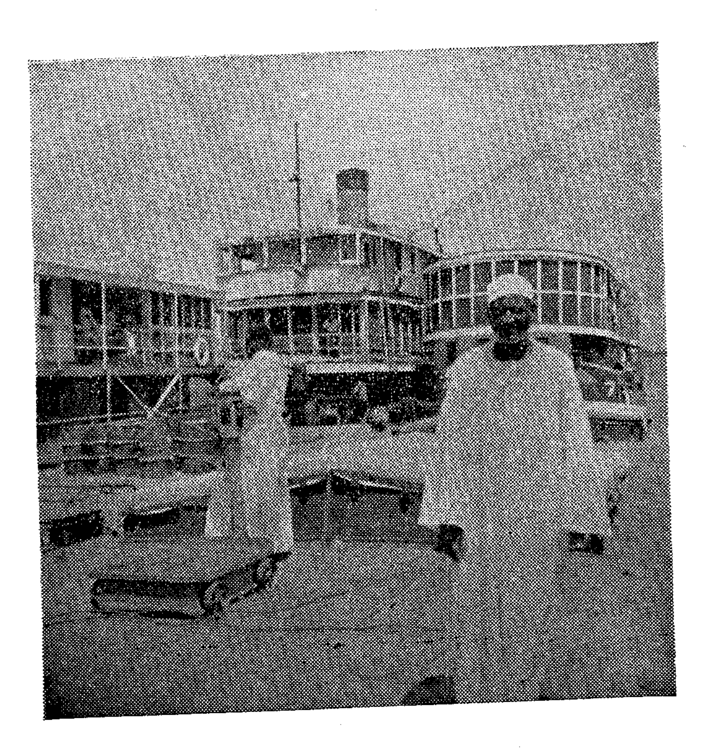
(١) كانت الرجاف تقطر إلى جانبيها وأمامها سبع وحدات كاملة من لنشات البضاعة والركاب والمازوت .

ثلاثة عشر يوماً كاملة ، بل إن ما يدهشنى هو أن تستغرق الرحلة هذا الوقت فقط ، مع أننا نسير بأبطأ من خطى السلحفاة ، ونظرت إلى الرجاف وهى مثقلة بما تجر من أحمال ، نظرة شك فى إمكانها أن تقطع بنا هذه الألف وأربعمائه كيلو التى تفصلنا عن جوبا .

ومع ذلك فقد كانت هناك حقيقة لا شك فيها وهى أننا نسير ، وهذه الدواليب التى تحول الماء الأسمر إلى قطن مندوف ، وتحول سكينته إلى غناء وخرير وهدير ، هى آية أننا نسير ، نسير باسم الله مجراها ومرساها ، صاعدين نحو أعالى النيل ، حيث حاول رسل الحضارة من أجدادنا خلال ألوف السنين أن يصلوا ، فكانت تقعدهم قله الأسباب ، وطول الطريق ، وخوف المجهول . بل كانت تحول بينهم وبين المضى إلى الأمام منطقة السدود . أما اليوم فقد أصبحت هذه الرحلة النهرية شيئاً عادياًّ يقدر عليها كل من استطاع أن يحصل على تذكرة السفر فى أى درجة من الدرجات الثلاث أو الأربع . لقد أصبحت نزهة لمن يريد النزهة ، وطريقاً للتجارة لمن يريد الكسب الحلال ، وهى فرصة لمن يريد العلم أو الدراسة ، دراسة أصل الإنسان فى مواطنه الأولى ، ورؤية الطبيعة فى صورتها الخام البكر ، قبل أن تمتد لها يد الإنسان بالتهذيب والتشذيب والاستغلال .

أما أنا فلم أكن طالب تجارة من هذه الرحلة ، فلست صاحب مال أو ممن يجرون خلف المال ، ولست باحثاً خلف علم أو دراسة ، فأنا أعجز من أن أصول فى هذا الميدان ، وإنما أنا أقوم بهذه الرحلة خضوعاً لنداء خفىّ وعاطفة غامضة تسيطر علىّ ، هى أن أرى النيل فى منابعه الأولى ، هذه المنابع التى أمدتنا بالحياة والحيوية لأكون جديراً بانتسابى إلى النيل وأسرته .

ووسط هذه الأفكار والتأملات نمت ليلتى الأولى على ظهر الرجاف ، وأنا أسعد مخلوق فى هذه الدنيا العريضة ، وأنا شديد الإحساس بقصورى وعجزى عن شكر الله القدير .



صورة الباخرة الرجاف «ذات المدخنة» وعلى يمينها ويسارها وأمامها اللنشات الملحقة بها
ويرى الشيخ الأمين داود إمام مسجد جوبا

٢

الاثنين ٢ أبريل

. . . لقد رأيت لأول مرة نبات البردى الذى يستغرق دائماً نصف الحديث عن أعالى النيل . . . ورأيت الشلك أول قبائل الجنوب وأكثرها استعلاء وشعوراً بالأرستقراطية والكرامة . . .

الساعة ٩ صباحاً

وهكذا يوشك أن ينقضى يوم كامل على ظهر باخرتنا العزيزة الرجاف ، وكأن النيل قدر ما فى نفسى من شوق لمعانقته فقرب شاطئيه ، كما لو كان يطوى ذراعيه حولى ، فمنذ أكثر من ساعة وقد ضاق مجرى النيل ، وبعد أن كان الشاطئان بالأمس بعيدى المنال ، صارا الآن وكأننا نسير فوقهما وخاصة بالنسبة للشاطئ الشرقى . ومن الواضح أننا بدأنا ندخل فى منطقة جديدة من الناحية الجغرافية ، لقد تركنا وراءنا منذ أمد بعيد المنطقة الصحراوية ، ودخلنا فيما يسمونه بالاصطلاح الفنى فى السودان منطقة أشجار الأكاشيا[1] ذات الحشائش القصيرة .

ولست رجلا فنيًّا ، ولست أحب أن أخوض فى مباحث فنية من أى نوع كان ، ولكن الذى أراه رأى العين هو أن الشاطئ والأراضى التى تحف به حتى آخر ما يمتد إليه البصر ، ممتلئ بالأعشاب العالية ، ولكنها أعشاب خشنة شوكية ، وبين هذه الأعشاب تتكاثر أشجار تبدو عليها الخشونة كذلك وتوشك أوراقها أن تكون أشواكاً . وعلى الضفتين من حين لآخر طيور ، طيور

(١) كلمة الأكاشيا هى الاصطلاح الفنى الذى يطلق على نوع الأشجار السائدة فى السودان حيث يمكن استخراج الصمغ العربى من أصناف كثيرة منها وخاصة الشجر الذى يسمى « الهشاب » .



ضخمة بعضها أبيض وبعضها ملون ، وبعضها أسود . ويقف بعضها فرادى والبعض يحلق فى مجموعات ، وبالأمس كانت مجموعة من هذه الطيور السوداء تطير فى رشاقة وترسل صوتاً جماعياً موسيقياً مردداً هذا الصوت : « سى ...سى » فلما سألت بعضاً من حولى عن اسم هذا الطائر ، قال لى : اسمه « سى ... سى » وهكذا أطلق على الطير اسم الصوت الذى يحدثه ، وأحسب أن هذه هى الطريقة التى بدأت بها كل الأسماء فى الوجود . والطيور هى أول ما يطالعنا من المملكة الحيوانية ، وتحدثنا كثافتها وتنوعها ، أننا نقترب من منطقة تزدهر فيها الحياة الفطرية بصورة عارمة .

ولا يزال الجو لطيفاً ، بل لقد اضطررت فى منتصف الليل أن ألتحف بالغطاء الصوفى ، ولا أستطيع أن أصف لك مقدار سعادتى بذلك ، فقد كنت أتصور أن الحر سيؤلف لى مشكلة من المشاكل التى يجب أن أوطد نفسى على احتمالها فى صبر ، فإذا بى أتغطى لأول مرة منذ وطئت أرض السودان من عشرة

أيام مضت ، وهكذا يتجلى دائماً الفارق بين ما يتوهمه الإنسان عن الأشياء والأماكن التى يجهلها وبين حقيقة هذه الأشياء أو الأشخاص أو الأماكن بالفعل .

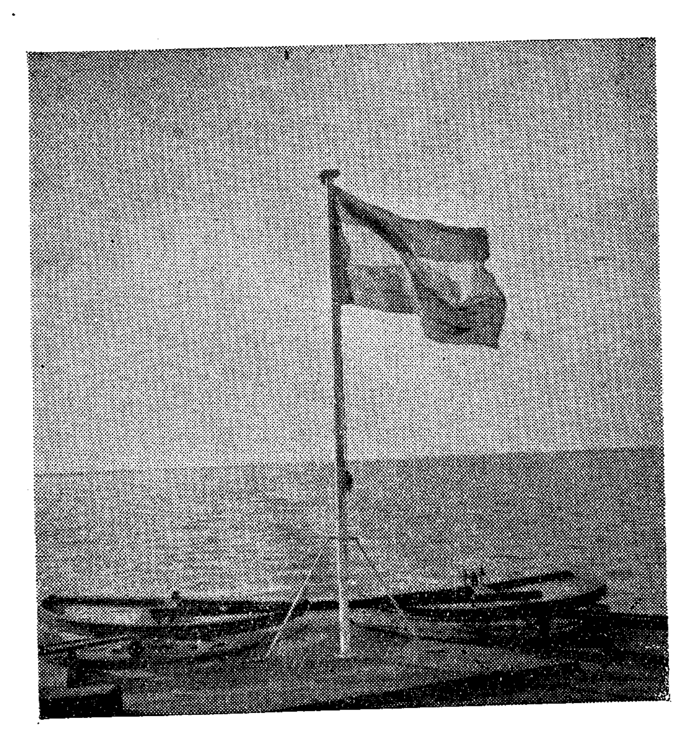
معلومات

وليس لنا فى المركب إلا تجاذب أطراف الحديث ، وقد هيأت لى الظروف أن أسافر مع نخبة من السودانيين الذين سبروا الجنوب من قبلى وعرفوه ، فأقبلت عليهم أسألهم تفسيراً لكل ما أرى ويحيط بى ، وأغترف من علومهم ومعارفهم ، وكان من بين هؤلاء الرفقاء الأعزاء السيد عبد الرحيم عربى أحد كبار موظفى السكة الحديد الذين اشتغلوا على هذا الخط فى شبابهم سنوات وسنوات ، فكان مصدر الكثير من معلوماتى وتحقيقاتى .

سألته عن مقدار اتساع النيل فى المنطقة التى اجتزناها بالأمس ، وقد لفتت نظرى باتساعها غير العادى ، فقال لى : هذه مخاضة أبى زيد وهى معروفة ومشهورة ، واتساعها لا يقل عن كيلو ونصف ، وقد سميت بالمخاضة لأن الماء فى أيام التحاريق ، أى عند ما ينخفض ماء النهر ، قد لا يزيد على ثلاثة أقدام ، بل إن الماء قد ينزل إلى دون هذا المستوى فى بعض السنين ، وإذا كان الماء بها غزيراً هذه الأيام ، فليس ذلك إلا بسبب حجز خزان جبل الأولياء للماء خلفه ، وأما بعد شهر من الآن عندما يشرع فى فتح الخزان لمد مصر بالماء ، فإن الماء ينخفض فى هذا الجزء من النيل ، ولا تعود هذه السفن الكبيرة قادرة على الملاحة . وكان معنى ذلك أن هذه السفينة التى نركبها قد تكون آخر سفينة تسافر من كوتسى نحو الجنوب ، إلى أن يحين ميعاد الفيضان .

وعاد النيل الآن إلى الانفراج مرة أخرى ، وظهر أن هذا الذى كنا نسير بحذائه منذ أكثر من ساعة لم يكن سوى جزيرة كبيرة فى مجرى النيل ، وقد علمت أن الجزر تتكاثر فى هذا الجزء من النيل حتى بلدة الدويم شمال كوستى ،

(٢)



منظر النيل فى مخاضة أبى زيد حيث يبلغ اتساع النهر مداه
وقد رفرف علم الجمهورية السودانية على ظهر الرجاف

ويبلغ طول بعض هذه الجزر ٤٠ كيلومترًا وعرضها ٤ كيلومترات ، بل إن جزيرة أبا المشهورة [١] التى تقع شمال كوستى يبلغ طولها أكثر من ذلك ، والنيل الشرقى يسير حول الجزيرة فى فرعين غرباً وشرقاً والمجرى الغربى أكبر من الشرقى .

وعلى الرغم من أن مجرى النهر قد اتسع ، فإنه لم يعد لمثل اتساعه بالأمس عند مخاضة أبى زيد . وإلى يسارى الآن أو بالأحرى إلى الشرق من السفينة

(١) ترجع شهرة جزيرة «أبا» لظهور الإمام المهدى بها عام ١٨٨١ . أما شهرتها الحالية فرجعها أنها كبرى مشروعات السيد الإمام عبد الرحمن المهدى الزراعية والصناعية . فوق كونها لا تزال هى المكان المقدس الذى تصبو إليه قلوب الأنصار – وهى تبلغ ٦٠ كيلومتراً طولا و ٥ كيلو عرضاً .

أرى أبنية أحد المشاريع المقامة على النيل الأبيض ، حيث ترتفع قرية كاملة بأبنيتها ذات السقوف المخروطة ، وثمة بناء كبير ذو سقف معدنى لا بد أن يكون محلجاً أو مخزناً كبيراً ، وقد علمت أن هذه المشروعات قد أصبحت تمتد على جانبى النيل الأبيض كله تقريباً ، ويغص الشاطئ الشرقى بمظاهر الحياة والعمران ، فأعمدة التلغراف والسيارات المنطلقة ، هى آية الارتباط الوثيق بالشمال وبالتالى بالعالم الخارجى كله .

شروق

وبدأت حياة الباخرة تغمر نفسى فأشعر بالهدوء والسكينة والسعادة ، لا صخب هنا ولا منازعات ، ولا سياسة أو مناقشات ، بل لا أحلام حول المعارك أو المجد والانتصارات ، وإنما هدوء وسكينة ، هدوء تام ومحاولة للاندماج فى الطبيعة أو الفناء فيها . ولقد بلغ هذا الشعور فى نفسى إلى ذروته ، عندما استيقظت لصلاة الفجر ، ولم أشأ النوم بعد الصلاة فجلست أرقب ضوء النهار وهو يولد ، والشمس وهى تشرق بنور ربها ، أى سحر وأى فتنة روحية وأى جلال ! وخواطر النفس كلها فى حالة ركود وهمود ، إلا خاطر واحد وهو التسبيح بآلاء ذى الجلال والإكرام . كيف يمكن لعقل بشرى أن لا يصدع بهذه الحقيقة الخالدة ، حقيقة الخلق والخالق . لقد كان كل شىء حولى يهتف بهذه الحقيقة ويشهد عليها ، هذا القمر وهو يرسل ضوءه بمقدار بعد أن أوشك أن يرحل ، إذ لم يبق على نهاية شعبان سوى أيام قليلة ، وكلما زاد نور النهار خفت ضوء القمر ، فإن نوراً أقوى من نوره يوشك أن يسطع على الكون فلم يبق أمامه إلا أن يتوارى ، ونظرت إلى الشرق وقد بدأ الابتسام يشيع فيه تحت حرارة الشمس وضوئها الزاحف ، وكان على لوحة الأفق فى الشرق غيوم وسحب ، فمنيت نفسى بشروق بهيج ، فالغيوم والسحب صفحة ترسم عليها الشمس عند شروقها أروع الصور واللوحات . ولكن الشمس لا تطلع فجأة ، بل يسبقها نورها طبقة فوق طبقة ، وأشعة فوق أشعة ، تتعالى

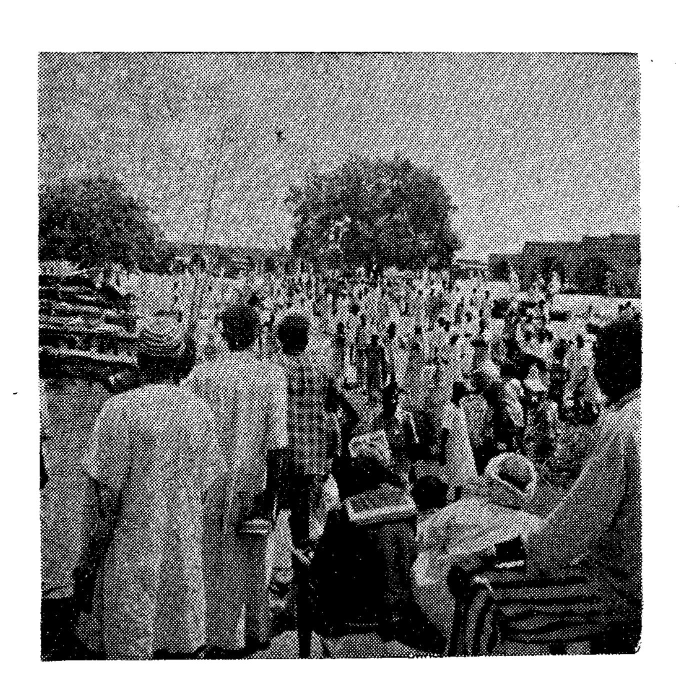
فى درجات فكأنها أنغام موسيقية ترتفع من طبقة إلى أخرى ، حتى إذا غمر الكون بالنور الساطع ، ومحيت آية الظلام نهائياً فلم يعد لها أثر فى هذا الكون ، انبثقت الشمس نفسها على لوحة الأفق ، وإن الإنسان ليحس بأول أشعة للشمس قبل أن يراها ، فكثيراً ما شعرت بروحى تنتفض كما لو كانت مست بتيار خفى ، وأروح أحدق فى الأفق فإن هى إلا لحظة أو مادون اللحطة حتى أرى طرف هذا الأتون الملتهب بسائل الذهب الوهاج وقد انبثق على خط الأفق ، إنها الشمس « تبزغ » . وما أدق هذا اللفظ ليعبر عن الواقع . والحق أن استعمال كلمات بزغ وذر للتعبير عن مبدأ شروق الشمس هو انعكاس لإحساس الإنسان فى هذه اللحظات .

وبدأت أستمتع بما كنت أتوقعه ، فالسحب والغيوم وشيت كلها بحواش من الذهب . ولم يكد قرص الشمس يظهر فى الأفق حتى عاد إلى الاختفاء وراء الغيوم ، ولكن هذه الغيوم لم تعد بالكثافة التى كانت عليها ، بل لقد تحولت إلى ثوب ممزق مهلهل ينفذ النور من خلال فجواته وثقوبه ، كما لو كان ثوباً أسود مهلهلا على جسد بض لحسناء فاتنة . ولم تلبث أشعة الشمس أن اشتد ساعدها فلم تعد السحب والغيوم قادرة على حجب ضوئها فذابت وتبددت تحت حرارتها ، كما يزول الباطل أمام الحق ، فإذا الدنيا كلها نور وحرارة ، ومع الحرارة تدب الحياة ، إنه يوم جديد ، يحمل معه أملا جديداً فى رؤية مناظر جديدة ومفاجآت الحياة ، إنه يوم جديد يبعدنا عن ماضينا ويقربنا نحو المستقبل ؛ نحو النهاية .

الجيجر

إن ما رأيته منذ لحظات وما تحدثت عنه كمظاهر للعمران والحياة من مبان ومشروعات وسيارات وأعمدة تلغراف ، لم يكن إلا طلائع اقترابنا من إحدى محطات الطريق حيث تقع بلدة الجيجر ، وها هى ذى الرجاف تملأ الجو

بزئير صفاراتها معلنة عن قدومها ، فلأدع القلم ولندع الكتابة ، ولنهرع لنشهد الحياة الجديدة ولنأخذ لها بعض الصور إذا استطعنا إلى ذلك سبيلا .



هكذا استقبلت الرجاف على محطات الطريق الأولى

كانت هذه هي الجيجر[١] ، وهي ليست أول محطات الطريق ، وإنما المحطة الأولى هي محطة الجبلين التي تقع على بعد ٧٥ كيلو مترًا من كوستي ، ولقد وقفنا إلى جوارها بعد منتصف الليل وقد أتيح لى أن أستيقظ فأطل من النافذة فرأيت كتلتين سوداوين على الشاطئ ، ولما كنت أعرف أن الرجاف ستقف عند الجبلين فقد أدركت على الفور من هذا المنظر أن هذه هي « الجبلين » وأنها قد سميت بهذا الاسم لقيام هذين التلين من حجر الجرانيت بها ، وهكذا لم

(١) الجيجر باللغة المحلية الفاصل بين جيشين من خندق أو سواه وقد سميت هذه البلدة بهذا الاسم ، لأن الجنرال مارشان الفرنسى أقام بها معسكره ، كما ستطالع ذلك فى موضعه .

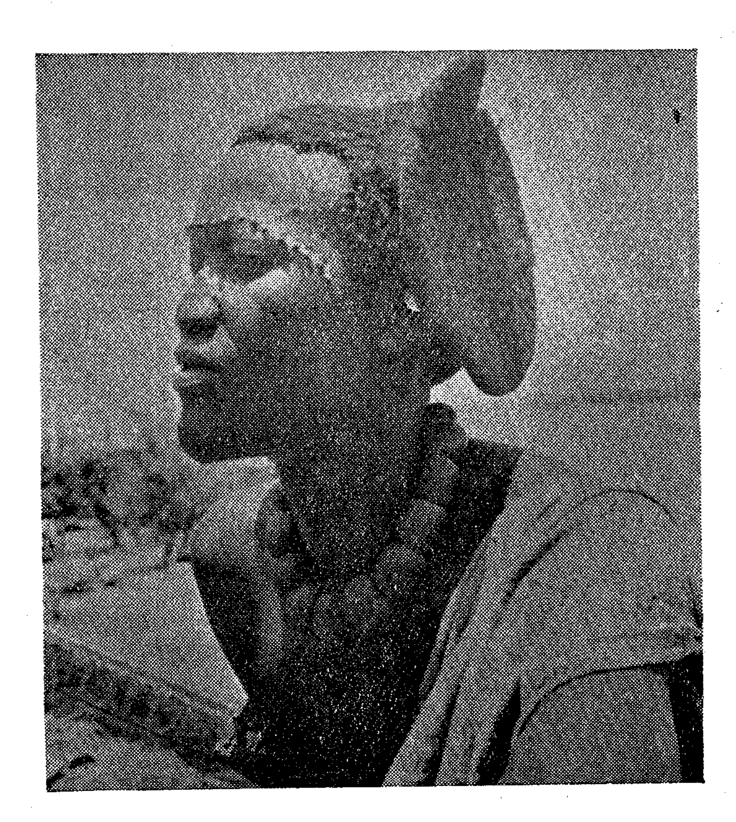
يتح لى أن أزور الشاطئ أو أن أرى أى جديد ، ولذلك فقد كانت الجيجر هى أول طلائع الجنوب بالنسبة لى ، وهى من الناحية الإدارية أول حدود مديرية أعالى النيل ولذلك فقد كانت وقفتنا بها بمثابة تعارف مبدئى للجنوب ، فقد رأيت فيها لأول مرة نبات البردى الذى يستغرق دائماً نصف الحديث عن أعالى النيل ، ورأيت الشلك أول قبائل الجنوب وأكثرها استعلاء وشعوراً بالأرستقراطية والكرامة .

فأما نبات البردى فقد كان الشاطىء كله مليئاً بجزر صغيرة منه ، ولم يكد بصرى يقع عليه حتى أحسست كأننى أقابل صديقاً قديماً طال شوقى وحنينى لرؤيته ، ولم يقل لى أحد إن هذا نبات البردى ، ولكننى تصورت أن هذا النبات الرشيق الجميل لا يمكن إلا أن يكون هو نبات البردى وزهر الباشنين فسألت زملائى : أليس هذا نبات البردى ؟ فقالوا : نعم ، فهتفت من أعماق قلبى : أخيراً ، أخيراً رأيته نبات البردى العتيد . ولكن الحركة على الشاطئ والهابطين من المركب والساعين إليها ، حولوا أنظارى واهتمامى من نبات البردى ، إلى النبات البشرى الجديد ، إلى سكان الجنوب الأعزاء .

الشلك

وكان رجل من الشلك وامرأته هما أول من صافحا بصرى وروحى معاً ، وكانا كما رأيتهما من قبل فى الصور ملء السمع وملء البصر ، فكلاهما فارع القوام رشيقه ، والرجل يرتدى قطعة قماش تستر جسده حتى ركبته وقد ربطها بعقدة فوق كتفه أشبه الأشياء بما كان يلبسه الرومان ، وقد علمت فيما بعد أنهم يسمونها « اللاوو » أما زوجته فكانت ترتدى لباساً عادياً مما ترتديه نساء الشمال وهو يستر كل جسدها . وغنى عن البيان أننى لم أعرف أنهما من الشلك إلا بعد أن قيل لى إنهما كذلك ، وإلا بعد أن لفت نظرى إلى العلامة التى يعرف الإنسان بها الشلكى من غيره . ويا لها من علامة ! إنها سلسلة كاملة

الاستدارة حول الجبهة ، ولكن هذه السلسلة ليست من الذهب أو من الفضة ، أو الخرز أو القماش ، إنها من لحم الجبين بالذات ، فبطريقة جراحية معينة تستحدث هذه النتوءات من جلد الجبهة متكورة فى حبات على شكل عقد أو مسبحة تدور حول الجبهة من الأذن إلى الأذن . ترى كيف وفى أى سن تتم هذه العملية الجراحية ، وكيف يقوى الرجال والنساء ، أو الصبيان والفتيات على احتمالها ، كل هذه تفصيلات أرجو أن أسمع عنها الكثير ، أما الآن فحسبى أن أسجل رعدة القشعريرة التى سرت فى جسدى وأنا أحدق النظر



صورة مواطن من الشلك ، ويرى فى جبهته هذه الزينة التى يحدثونها بالجراحة ، كما نلاحظ الطريقة التى صفف بها شعره

فى هذه العقد اللحمية فى وجه هذا الرجل وهذه المرأة من الشلك ، ولم تلبث رعدة القشعريرة أن تحولت إلى رعدة خوف ، فأشحت بصرى عن جبهة الرجل ، بل ابتعدت عنه خوفاً من أن يكون قد لاحظ نظرنى له ولم يعجبه ذلك منى [١].

سمك

وبينما كنت أراقب الصاعدين والهابطين ، إذا بوكيل المركب يأتى ومعه من يحمل سمكة ضخمة ، وعلى وجهه أسارير الابتهاج فسألته عن ثمنها فقال لى : ثلاثون قرشاً ، وهى لو كانت فى مصر لبيعت بأضعاف ذلك ، ولكنى عندما نقلت الخبر إلى صديقى الشيخ الأمين داود إمام مسجد جوبا المسافر معنا ، إذا به يبدى استنكاره لهذا الغلاء الفاحش . ولم يهدأ خاطره إلا بعد أن لفت نظره إلى أن هذا ثمن خاص لمركب الحكومة ، فهذه فرصة الصياد الوحيدة فى كل شهر للكسب المضاعف ، أما لو كانت السمكة تباع له هو وكان هو المشترى فلا بد أنه كان من الممكن أن يحصل عليها بثمن أقل ، فصاح فى وجهى : عشرة قروش لا تزيد مليماً واحداً هى كل ما تساويه هذه السمكة ، وسواء كانت تساوى ثلاثين أم عشرة ، فقد كانت سمكة فى حجم خروف كبير . وهكذا بدأت تقابلنا خيرات الجنوب التى طالما سمعت عنها أعجب القصص .

ومثل هذا السمك الضخم لا يمكن أن يستخرج من نيل مصر ، فليست عنده فرصة للنمو حتى يصل إلى هذا الحجم ، وكل ماء النهر إنما يخصص للرى فيمر فى الترع والقنوات والسدود والخزانات ، والأيدى العاملة الجائعة لا تدع للسمك المسكين فرصة لكى ينمو ويترعرع ، أما هنا فى الجنوب ، حيث

---

(١) يبلغ عدد الشلك فى كل أنحاء السودان حوالى ٢٠٠ ألف نسمة ، وهم يسكنون على شاطىء النيل من تونجا إلى كاكا على الشاطىء الغربى للنيل ومن الملكال حتى السوباط : وهم أكثر القبائل النيلية اشتغالا بالزراعة .

لا رى ولا صرف ولا ترع ولا قنوات ولا سدود ، حيث لا سكان إلا القدر القليل ، فلماذا لا ينمو السمك وينمو حتى يصبح بحجم الخروف وحتى يغضب الشيخ الأمين إذا قدر لثمن الواحدة منها ثلاثون قرشاً ، وليس السمك هو وحده الذى ينفرد بالضخامة بل إن الطيور والحيوانات كلها ضخمة ، فهى تعيش كلها حرة طليقة لم تمتد إليها بعد يد العمران بالاستئصال والإبادة .

الباخرة تصفر ، إنها تتحرك ، تبتعد عن الشاطئ ، ها نحن أولاء من جديد فى وسط مجرى النيل ، وها نحن أولاء نعوم على سطح الماء ونتزلق بفضل مجهودات دواليب الرجاف . . . إننا نتابع السير صاعدين نحو أعالى النيل .

الساعة ٦ بعد الظهر

القافلة تسير ، بدأ الحر الشديد الذى يغمرنا يبعث فى نفسى الارتياح ، فكم كانت خيبة أملى تكون شديدة لو استمر هذا الجو الجميل طويلا . ألا تفقد الرحلة نحو خط الاستواء معناها وبهجتها ؟ إنهم يقولون إن الأجر على قدر المشقة ، فأى مشقة فى أن يجتاز الإنسان النيل فى نزهة لطيفة ، فوق هذه السفينة التى أعدها الإنجليز ، وبخاصة درجتها الأولى ، بخير إعداد ، والتى يتوفر فوقها أصح طعام [1] ؟ لا إننى لم أقصد أعالى النيل فى شهر أبريل لكى أتنزه ، وإنما أنا أريد أن أحج ، وأريد أن أشعر بالحرارة وبكل صنوف المشاق ، لأشعر بالفعل أننى أتحمل شيئاً من أجل رؤية النيل فى أعاليه ، من أجل الاقتراب من خط الاستواء .

وليس مجرد الحر هو الذى يشعرنا بأننا نقترب من غايتنا ، بل إن وقوفنا فى محطة الرنك[2] أحد المراكز الكبرى فى مديرية أعالى النيل ، كان يدخلنا نهائيًّا

---

(١) لا أستطيع أن أصف طعام الباخرة إلا بأنه صحى وهو كأى طعام يقدم فى السكة الحديد وفى الفنادق الكبرى التابعة لها ، هو الشىء الوحيد الذى لم تشمله عملية السودنة ، فهو إنجليزى قح ، فمتى يسودن ؟ متى ؟

(٢) ثالث المحطات بعد كوستى وتبعد عنها جنوباً ١٧٤ كيلومتراً .

فى جو الجنوب ، فقد كان هناك ولد عار بجسمه الأبنوسى ، ولم يكن ذلك سوى طليعة العرى ، فبعد قليل — والباخرة تسير بقرب الشاطئ — وقع نظرى على قارب به ثلاثة من الصيادين وهم عراة ، وقد بدا لونهم جميلا ، إنه أسود داكن كالأبنوس ، وقد كانت أجسادهم قوية تبدو عليها علامات الصحة ، فكان منظرهم على البعد لا يوحى بشىء غير عادى ، ولم تتصاعد حمرة الخجل إلى وجهى . ورأيت نسراً يقف بجلاله فوق قمة أحد الأشجار ؛ وبينما كنت أتأمله إذ نادانى أحد الركاب الأمريكان لكى يرينى ما يرى ، ولم يكن ما يراه إلا أول طلائع الجرنتى .

الجرنتى

وما أدراك ما الجرنتى ؟ ! إنه باللغة العلمية فرس البحر ، ولا يدلك هذان الاسمان على كثير إذا كنت أيها القارئ العزيز من سكان مصر ، ذلك أننا فى مصر لا نعرف ما هو الجرنتى ، ولا نعرف إلا أقل من القليل ما هو فرس البحر ، أما لو قلنا لك « السيد قشطة » فسوف يفتر ثغرك على الفور بابتسامة عريضة لأنك أصبحت تعرف الحيوان المقصود : هذا العجل السمين الذى نراه فى حديقة الحيوان وهو يغوص تحت الماء ، ثم يستدعيه حارسه بصوت خفيض : «تعالَ يا سيد» ، فإذا بالحيوان اللطيف يصعد إلى ظهر الماء ويصعد درجات على السلم الحجرى ويفتح فاه الضخم ليلقمه الحارس بعض حبات من البطاطس أو يعلفه بالبرسيم . هذا هو الجرنتى أحب الحيوانات وأقربها إلى أفئدة المصريين من رواد حديقة الحيوان ، لا يعرف إلا باسم السيد قشطة ، وقد أصبح « السيد قشطة» علماً عليه ، حتى ليضطر المدرسون إلى ذكر هذا الاسم لطلابهم ليعرفوا الحيوان المقصود .

ولقد أتيح لى أن أرى واحداً من أفراس البحر هذه فى حديقة الحيوان بالخرطوم ، وأن أراه وهو مصاب بالإعياء وملقى على الأرض ريثما يملأون له بركته

الجافة بالماء ، ولكن هذه هى أول مرة أرى فرس البحر فى موطنه الطبيعى ، وهو ليس ذليلا أو قعيداً فى السلاسل والأغلال .

ولقد كانا اثنين : ذكراً وأنثى من غير شك ، وكانا يطلان برأسيهما فوق الماء ثم يبادران بالغطس والاختفاء تحته ، ولكنهما لا يلبثان أن يظهرا لينشقا بعض الهواء ، وليراقبا هذا المخلوق الغريب الضخم المتحرك على صفحة الماء فعكره عليهما وملأه بالتيارات والدوامات ، وأفسد عليهما خلوتهما البريئة أو غير البريئة ! ولا شك أن هذه ليست أول مرة يريان فيها الرجاف ، فما دام العمر قد امتد بهما وحنكتهما التجارب ، فلا شك أنهما رأيا هذا الطراز من الوحوش الكبيرة وهو يروح ويجىء ويرسل أصواتاً مزعجة ، وحقاً إن لهذا الوحش زعانف باطشة وهى هذه الدواليب التى تقلب الماء قلبا ، ومع ذلك فإن هذا الوحش طالما مر بسلام دون أن ينال الجرنتى بالأذى ، فضلا عن أن يفتك به أو يبتلعه ، فلا خوف من الرجاف ولا محل للذعر ، ومع ذلك فزيادة فى الحرص وإمعاناً فى الطمأنينة فالغوص تحت الماء أسلم ، وهكذا يعود الجرنتى ورفيقته إلى الاختفاء . . . ونكون عند هذا الحد قد ابتعدنا كثيراً وخلفناهما وراءنا ، فإذا صعدا هذه المرة على سطح الماء لم يجدا حاجة إلى الغوص السريع ، فقد ابتعد الوحش الجبار ، وباستطاعتهما أن يستأنفا ما كانا بسبيله من ضروب الغزل والاستمتاع بالحياة ، أو التغلب على مشاكل الحياة .

الساعة ٩ مساء

الزرازير

وأبى اليوم أن ينقضى نهائياً إلا بعد أن يقدم لى صورتين من صور الحياة فى أعالى النيل ، فبينما كنت أتطلع إلى الشاطئ عقب الغروب إذا بى أرى سرباً من الطيور مؤلفاً فيما بينه ما يشبه أن يكون سحابة صغيرة تتسع فيبيض

لونها ، ثم تنكمش فيسود ، وجذبني هذا المنظر ، فإذا به ليس إلا مقدمة لأرجال من هذه الطيور التي لم أستطع حتى الآن أن أصدق أنها طيور الزرزور وليست جراداً . لقد دهش كل من فى السفينة لتشككى فى أن تكون هذه زرازير ، ولكنى كنت معذوراً فى هذا الشك ، فإن خيالى لم يستطع أن يتصور أن تكون هذه الملايين التى ظلت تتدفق أمامى بهذه الكميات هى زرازير ، أو بالأحرى عصافير . أجل لقد سمعنا عن الجراد وهو يؤلف سحباً تحجب وجه الشمس ، ورأيت فى السينما رواية الأرض الطيبة التى تدور حول مكافحة الجراد فى الصين ، وقد رأيت فيها صوراً ومناظر تشبه هذا الذى رأيت هذا المساء ، فلو أن هذا جراد لما كان فى ذلك شيء غريب بالنسبة لى ، أما أن تكون هذه الذرات الهائمة ، هذه السحب الغائمة ، هذه الرياح العاصفة ، ليست سوى عصافير ، فقد كان لا بد لى من زمن كى أعتاد هذه الحقيقة .

لقد كانت هذه الأمواج من الزرازير تبدو على البعد وكأنها أدخنة متصاعدة ،أو سحب تسوقها الرياح ، فلما اقتربت منا ، إذا بها حشود لا عدد لها من الزرازير ، وإذا كان قد خيل إلى — وأنا مبهور بهذا المنظر — أن ليس فى هذا الكون كله عدد يمكن أن يفوق عدد هذه الزرازير ، فليس يسعنى إلا أن أسبح الله بعددها . . . أجل ، سبحان الله الخالق بعدد هذه الزرازير التى خلق !...

لست أعرف كم من الوقت قد مر على وأنا فاغر الفم مشدوه أمام هذا الطوفان الذى لا ينقطع من الزرازير . وكأن هذه الطيور كانت تعلم ما أنا فيه من دهشة فأبت إلا أن تزيد فى إغراقى فى بحار الدهشة والعجب ، فكانت إذا ما اقتربت من السفينة ، راحت تتشكل تشكيلات مختلفة ، فبينما تسير على شكل مروحة ، إذا بها تتقارب حتى تتحول إلى كتلة ضخمة كأنها كرة ، ثم تعود إلى الانتشار فى صورة مستطيل أو مثلث ، ولكنها منطلقة أبداً ، منطلقة دائماً إلى ما لا نهاية ، من أين؟ وإلى أين ؟ لم يكن من السهل معرفة جواب

السؤال[1] ؟ أى مكان يتسع لإيواء هذه الملايين ؟ ومن أى مكان جاءت ؟ كيف تشرب ؟ وكيف تأكل ؟ وأى طعام يكفيها ؟ وسرعان ما هتف بى النيل: أوَ تتساءل: كيف تشرب ، وهل يؤلف الشرب بالنسبة لها مشكلة ؟ وماذا أفعل أنا إذن ؟ وما هى مهمتى ؟ أوَ لم تعش ملايين الملايين من الناس والحيوانات والنباتات على مائى ؟ أوَ لست أنا واهب الحياة بإذن ربى لكل من يعيش على ضفتى ؟ وقلت: عفواً أيها النيل العظيم ! فقد أفقدتنى هذه الملايين من الزرازير صوابى ، فتصورت أنها لا تجد ما يكفى لشربها ، وهى لو شربت كلها من بحر فيضك لما نقص إلا بمقدار نقرة عصفور واحد ، أجل إن شرابها لا يؤلف مشكلة ، وإنما الطعام هو المشكلة ، فلو أن هذه العصافير تأكل حباً فأين ألوف الملايين من الحب الذى يكفيها وجبة واحدة ؟ ! إن ألوف الأفدنة المزروعة قمحاً أو ذرة لتختفى من الوجود فى أقل من لمح البصر لوحطت عليها هذه الملايين من الطيور ! ولو أنها تأكل دوداً أو حشرات ، لأصبح ثمن الدودة بضع جنيهات لأنها ستتحول إلى مخلوق نادر ، ولكنى لم ألبث أن تلفت فيما يحيط بى من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، فقد كانت هذه كلها مساحات شاسعة من الأرض ، وهى بدورها تكاد تكون لا أول لها ولا آخر ، وهى كلها بما عليها ملك لهذه الزرازير ، فحظ الإنسان فيها قليل . وكل هذا الملك العريض الذى نسير فيه منذ ساعات وساعات ، وسنظل نسير فيه بعد ذلك أياماً وأياماً ، هذه الدنيا الواسعة بكل نباتاتها وحشراتها وعناصر الحياة التى تضطرم فيها ، هى ملك خالص لهذه الملايين من الزرازير ، تتبوأ منها حيث تشاء ، فإذا ضاق بها مكان حملتها أجنحتها إلى مكان آخر ، حيث الوفرة والسعة والأمان والدسم من الغذاء . وتطلعت ببصرى نحو المستقبل ، عندما تتحول هذه المناطق المقفرة إلى أرض زراعية يعيش على إنتاجها الإنسان ، عندها لن يكون لهذه الزرازير مكان ،

(١) علمنا فيما بعد ، أن فصل الأمطار عندما يبدأ فى الجنوب تهاجر هذه العصافير نحو الشمال وقد كان من حسن الحظ أن أشهد منظر هجرتها السنوية .

سوف يطاردها الإنسان، بل سوف يأكلها أكلا ، فهو فى حاجة إلى القمح، ولن تبقى له هذه الزرازير حبة من القمح إذا هو تركها وشأنها ، وليس أهون عليه من حل هذه المشكلة بأن يأكل الزرازير نفسها فيوفر عليها مؤونة الكدح ويوفر لنفسه مادة الحياة ، سعيد أنت أيها الجيل من الزرازير ، طر واسرح وامرح فإن يد الإنسان لم تمتد إليك بعد ، ولكنها لن تتأخر ، لن تتأخر طويلا ، فقد استقل السودان وخرج المستعمر الأجنبى ، ولن يبقى بعد قليل شبر من الأرض على ضفاف النيل بغير زرع أو فلاحة على أوسع نطاق .

الجوهرة

وأسدل الليل ستاره علينا وأنا ما زلت فى حيرتى وعجبى من هذه الظاهرة، وشتى الخواطر والأسئلة تتردد فى نفسى ، وإذا بنور سيارة يضوى على البعد بين حشائش الشاطئ المظلم ، وعجبت لوجود سيارة فى هذه المناطق ، ولكن النور لم يلبث أن ظهر فى مكان آخر كأنه ضوء سيارة أخرى ، يا لله نور ثالث ، فرابع ، فخامس . . . ما هذه الأضواء التى تلمع ثم تختفى ؟ لا . . . إنها لا يمكن أن تكون أضواء سيارات ، لا بد أنها أنوار بطاريات كهربائية يضىء بها بعض الناس طريقهم ، وسألت رفيقى الشيخ الأمين داود الذى كان يجلس بجانبى : ما هذه الأنوار الساطعة يا شيخ أمين ؟ فقال الشيخ فى بساطة وهدوء: هذه هى الجوهرة ، ومضى الشيخ فى صمته متصوراً أنه قد فسر لى ما أغلق على فهمه ، وقلت له : ماذا تعنى يا شيخ بكلمة الجوهرة ... لقد زدت فى حيرتى ، فأجابنى : الجوهرة ! الجوهرة ! ألا تعرف الجوهرة ؟ إنها حشرة طائرة دون الفراشة حجماً، وهى التى تحدث هذا النور عندما تطير وترف بأجنحتها، وجدتنى أقفز من مكانى وأصرخ من الدهشة: ماذا تقول ؟ وأعاد علىّ الرجل فى صبر وأناة ما قاله لى أولا . . . وفتحت عينى دهشة ولم أستطع أن أصدق أن هذه الأضواء الكهربائية تبعثها حشرة ، ولكن الظاهرة كانت تتكرر

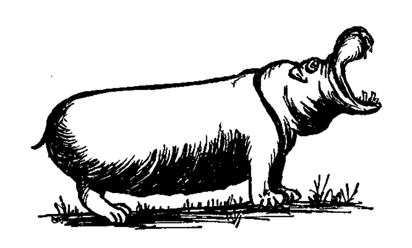
أمامى مؤكدة هذا الذى يقول : أنوار كهربائية تسطع فجأة بين الحشائش وعلى طول الشاطئ وفوق سطح الماء، لقد سمعت وطالعت عن الحشرات المضيئة، ولكن الذى لم أتصوره ولم يطف لى فى خيال أن تكون الإضاءة بكل هذه القوة ، حتى لقد حملت زميلنا الأمريكى على القول بأن بضعة من هذه الجواهر تطير فى حجرة كافية لإضاءتها .

وهكذا أنستنى الجوهرة بأنوارها ، الزرازير بكثرتها ، ورحت أراقبها وهى تضىء على البعد من لحظة لأخرى فى كل مكان حول السفينة ، بينما راح الشيخ الأمين يطمئننى على أننى سأراها فى جوبا وسألمسها بيدى إذا شئت ، لأنها ستكون فى حديقة الفندق حيث أنزل، ولكن ذلك كله لم يكن له أثر فى تخفيف وطأة ما انتابنى من شعور عميق .

كرومر

وكان لا بد من شىء عارض يخرجنى من هذا الجو الذى استغرقنى ، وجاء هذا الشىء على صورة سفينة ثانية كانت تسير فى الاتجاه المضاد لسيرنا ، وهرع الركاب فى كل من السفينتين يحيى بعضهم بعضًا ، وكان منظر السفينة بأنوارها الساطعة مبهجاً إلى أبعد حدود الإبهاج ، فقد خفف من وحشة الطريق والوحدة التى كنا نعانيها ، وقال السيد عبد الرحيم، الذى يعرف كل شىء عن هذه البواخر : هذه « كرومر » آتية من بحر الغزال . وخفق قلبى لسماع كلمة بحر الغزال أحد روافد النيل والذى حفظنا اسمه منذ كنا أطفالا صغاراً ، أى منذ أربعين سنة تقريباً ، وهأنذا قد احتجت إلى أربعين سنة من العمر قبل أن يقدر لى أن أسمع اسمه يتردد وأنا أقترب منه ، وأن أشهد باخرة فى الليل وهى عائدة من لدنه ، وتمتلئ نفسى بالسعادة والغبطة لتحقق الأحلام ، فهأنذا أعيش فى هذا الجو العبق بهذه الأسماء: أسماء بحر الغزال وبحر العرب وبحر الزراف وبحر الجبل .

وقال سودانى ممن يقفون إلى جوارى : أولم يحن الوقت لتغيير هذه الأسماء ؟ لماذا نسمى سفينة سودانية باسم كرومر ؟ فقلت له : أجل أيها الأخ الشقيق ، سوف تغير هذه الأسماء بعد أن استقل السودان ، وستطلق عليها أسماء سودانية وعربية ، بل كن على اطمئنان أن تماثيل كتشنر وغوردون سوف ترفع من الخرطوم ، فلا مكان لها فى ميادينها وساحاتها ، وإذا كان الإنجليز يريدون أن يكرموهم كأبطال لهم فليفعلوا ذلك فى بلادهم ، أما نحن فقد كانت هذه البطولة على حساب حريتنا وكرامتنا . . . لا ، إن سفن السودان لن تسمى كرومر بعد اليوم ، وإن تماثيل كتشنر وغوردون لن تبقى على قواعدها بعد اليوم .



٣

الثلاثاء ٣ أبريل ١٩٥٦

. . . الحرية هى التى تجعل الإنسان إنساناً . . . هى التى تجعله كائناً فوق الكائنات ، فإذا سلبت حرية الإنسان فقد سلبت آدميته ، وهبط إلى مرتبة دون الحيوان . . .

الساعة ١٠ صباحاً

الدواليب تدور ، الشلال الذى لا ينقطع يعزف موسيقاه ، الشمس المحرقة الساطعة تشوى الكون من حولنا ، وليس يحول بيننا وبين أن نكون بعض المحترقين إلا هذه الظلال التى تنشرها فوقنا أسقف الباخرة ، وإلا كوننا نسير فوق الماء ، فسيبقى الماء أشد حناناً من هذه الأرض وأقل بعثاً منها للهيب ، ما دمنا لا نزال فى نصف النهار الأول ، أما إذا زال النهار وبدأت الأرض تفقد شيئاً من حرارتها ، عوض الماء تسامحه السابق واحتفظ بالحرارة التى اكتسبها ببطء[1] . وبعد الساعة الثانية أو الثالثة بعد الظهر يوشك الماء أن يغلى عندنا . لطالما سمعت عن البخر الذى تتعرض له مياه النيل فى الأعالى ، وليس باستطاعة إنسان أن يتصور مقدار ما يفقده النيل بالبخر إلا أن يأتى إلى هنا ، ليرى الشمس وهى مسلطة بكل هذا العنف طوال النهار ، فوق هذا الوعاء المحتوى على ماء النيل لكى يعجب كيف تصل إلى مصر قطرة واحدة من هذا الماء على بعد أربعة آلاف كيلو ، دون أن تتبخر كلها تحت وطأة هذه الشمس المحرقة .

(١) هذه الظاهرة الطبيعية هى الأساس لما يعرف بنسيم البر والبحر .

جبل أحمد أغا

واستيقظت هذا الفجر على صوت طيور الغابة ، وهى تملأ الجو بأنغامها التى تذكرنى بأصوات حديقة الحيوانات فى مصر ، ولكنى لم ألبث أن تبينت وسط الأصوات ، أذان الديك وقوقة الدجاج ، وليس الدجاج من طيور الغابة ، وربما كانت فى القديم ، منذ عشرات الألوف من السنين ، أما اليوم فحيث يرتفع صوت الديك فهذا معناه وجود الإنسان ، ولذلك فقد قفزت إلى نافذة القمرة ، فوجدت التفسير والتعليل فقد كانت السفينة راسية على إحدى المحطات التى تسمى « جبل أحمد أغا » وهى قرية من قرى الشلك ، وقد سميت بهذا الاسم لأن جبلا صغيراً دارت إلى جواره معركة عندما أرسل محمد على جيوشه إلى جنوب السودان ، وكان قائد الجيش هو أحمد أغا الذى اشتبك



أكواخ الشلك المصنوعة من البوص والحشائش ويطلق عليها اسم « القطية » أو الأطية

فى حرب مع الشلك الذين اصطدموا به، ولم يشأ الإنجليز أن يغيروا هذا الاسم كما غيروا عشرات غيره من الأسماء ، لإن كل الذى يهمهم هو أن يذكروا السودانيين الجنوبيين بعدوان الشماليين عليهم ، ناسين أن تاريخ الإنسان فى القديم إنما كان يتألف فى مجموعه من معارك وحروب ، بين أفراد الأمة الواحدة ، بل بين أبناء القبيلة الواحدة ، وإذا كان الشمال قد أغار على الجنوب يوماً ، فقد أغار الجنوب على الشمال مرات ، وهذا لا يمكن أن يغير من واقع الحال، وهو أن الشمال والجنوب أمة واحدة . وأحمد أغا هى قرية ككل قرى الشلك التى ترى على ضفاف النيل مؤلفة من عديد من الأكواخ المصنوعة من البوص والحشائش الجافة والتى ترتفع فوقها هذه السقف المخروطية وهى الدرع الواقية ضد هطول الأمطار ، وتبدو عليها مظاهر النعمة وخفض العيش ، وليست أصوات هذا الدجاج والديوك إلا آية ذلك ، فالدجاج والسمك والسمسم والفول السودانى والذرة هى المواد التى تظهر دائماً فى طعام الشلك .

صباح

وكان النسيم فى الصباح المبكر عليلا ، والفجر كالعهد به جلالا وروعة ، يشف روحانية ويسيل رقة وأنساً ، وإذا كانت نسمات الفجر لا تحمل جسد الإنسان على جناحيها فمما لا شك فيه أنها تحمل روحه لتنطلق بها فى الفضاء مع الطيور المنطلقة ، لتسبح مع الكائنات والعوالم العلوية ، ولتشترك فى سيمفونية الصباح ، حيث العصافير تزقزق ، والبلابل تغرد ، والحشرات تصوصو ، والهواء يصفر والماء يرقص تحت وطأة بسمات الصباح ، إنها الحياة بكل قوتها تتمطى وتتثاءب ، لتبدأ يوماً جديداً ، وتقطع مرحلة جديدة فى رحلتها نحو . . . المجهول .

حتى إذا استعد كل من فى الكون لاستقبال الشمس ملكة الكائنات ، أطلت برأسها وتلألأ تاجها الذهبى فأبرقت الدنيا بنور أشعتها ، وصفقت للطيور

فرحاً وحبوراً ، وسبحت الأسماك ، وغنت الأفلاك . وقد حاولت اليوم أن آخذ صوراً للشمس المشرقة ، وأنا أعلم أنه من العبث مواجهة الشمس بعدسة الكاميرا ، فإن الضوء يعشوها ، وبصفتى مبتدئاً فى عالم التصوير لم أحضر الجهاز الخاص الذى يوضع على العدسة فيمكنها من مواجهة الشمس ، ومع ذلك فقد رأيت أن أحاول لأرى كيف تكون نتيجة المحاولة ، وكم حزنت لأننى لست رساماً موهوباً لأصور بالألوان هذه المناظر الرائعة ، ولست شاعراً لأصور بالألفاظ هذه الدنيا الساحرة ، ولست موسيقياً لأنقل للعالمين هذه الألحان السامية ، بل إننى لا أملك حتى مجرد « كاميرا » لتأخذ المناظر ملونة ، واأسفاه فلست أملك سوى هذا الأسلوب العاجز الحائر الركيك لأتحدث عن هذه العوالم ، وسوى هذه الصور المشوهة الكسيحة التى أحاول أن أنقلها بهذه الآلة الصغيرة ، ولن يكون لها أى فائدة إلا أن تذكرنى أنا وحدى بهذا الجمال الذى كنت أعب منه عباً كل صباح ، دون أن أستطيع إشراك الناس فى سعادتى ! . . .

وتسير بنا السفينة وتسير ، وستظل تسير أياماً وأياماً ، والشاطئان الآن قريبان منا ، ولكنى لم أعد أنخدع بهذا القرب ، فقد ظهر لى أن هذا الذى أتصوره شاطئاً ليس فى حقيقته إلا الحشائش المائية الضخمة التى تتغذى بالمياه وتؤلف جزراً يخيل للإنسان أنها أرض ، وفى الحق أنها ليست سوى حشائش من تحتها ماء ، فلندع القلم قليلا ، لنصغى لصوت دواليب السفينة وهى تزلزل الماء ، فإن صوتها الممتع هو اللحن الذى لا أمل سماعه والذى يغذى روحى وينعش وجدانى .

تأملات

اجتذبت حركة الدواليب بصرى وروحى معاً ، فكثت ساهماً مدة طويلة من الزمن وقد سحرتنى حركة المياه ، فأوقفت تفكيرى ولست أعرف كم ظللت

على هذه الحالة ، ولكن رجة فجائية جعلتني أنتبه مذعوراً وتعود إليّ حواسي ، ولم تكن هذه الرجة سوى اصطدام بسيط بالشاطئ ، لم تلبث الباخرة بعد ذلك أن استأنفت سيرها ، وهبت على وجهي نسمة منعشة فملأت رئتي من الهواء ، واسترخيت أكثر وأكثر في مقعدي ، ورحت أحلق في هذه الطبيعة التي تحيط بي ، فلا يلبث فكري أن يرتد إلى السفينة وما تحتويه من آلات من صنع الإنسان مكنته من طي المسافات والتحكم في العناصر ، هذه الأرض التي تحيط بنا لقد زرعها الإنسان ... هذه الطيور المحلقة فوقنا لقد جعل منها الإنسان طعاماً له ، ولم يرض إلا أن ينافسها فأصبح قادراً على الطيران ... هذه الأسماك التي تسبح في الماء ، لقد جعلها الإنسان طعاماً له كذلك ، ثم أبى إلا أن يتفوق عليها سباحة وغوصاً ، كل شيء في هذه الطبيعة مهما بلغ من الضخامة أو الجلال فالإنسان يحاول أن يعلو عليه وأن يسوده ويستغله لمصالحه ، ووجدتني أسائل نفسي : لماذا كان الإنسان هو سيد هذه الكائنات كلها ؟ لماذا كان سيد الشمس والقمر والليل والنهار ، والبحر والبر والوحش والطير ؟ بأي سر استطاع هذا الجرم الصغير جداً ، أن يستغل نواميس الطبيعة لتحقيق أغراضه ؟ لماذا كان هو الوحيد من الكائنات الذي يرقى ويتطور ، وله في كل يوم شأن ، وله في كل يوم كشوف وغزوات موفقات في اجتلاء أسرار الطبيعة ؟! ولم أجد جواباً عن هذا السؤال يشفي الغليل إلا في الكتب السماوية ، لأن العلم المادي البحت لا يستطيع أن يفسر لنا هذا اللغز ولماذا انفرد الإنسان من سائر الكائنات بهذه القدرة ، أما الكتب السماوية فالأمر عندها سهل وواضح ، فخالق الكون قد أبدع الإنسان على هذه الصورة وزوده بهذه الملكات . فالتوراة والإنجيل يقولان لنا :

على صورة الله

«وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا وشبهنا ، فيتسلط على سمك البحر

وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى كل الدبابات التى تدب على الأرض . فخلق الله الإنسان على صورته ، على صورة الله خلقه ، ذكراً وأنثى خلقهم وباركهم وقال لهم أثمروا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض[١] » . فالإنسان هنا قد خلق على صورة الله ، وبالتالى فقد أودعه قبساً من قدرته .

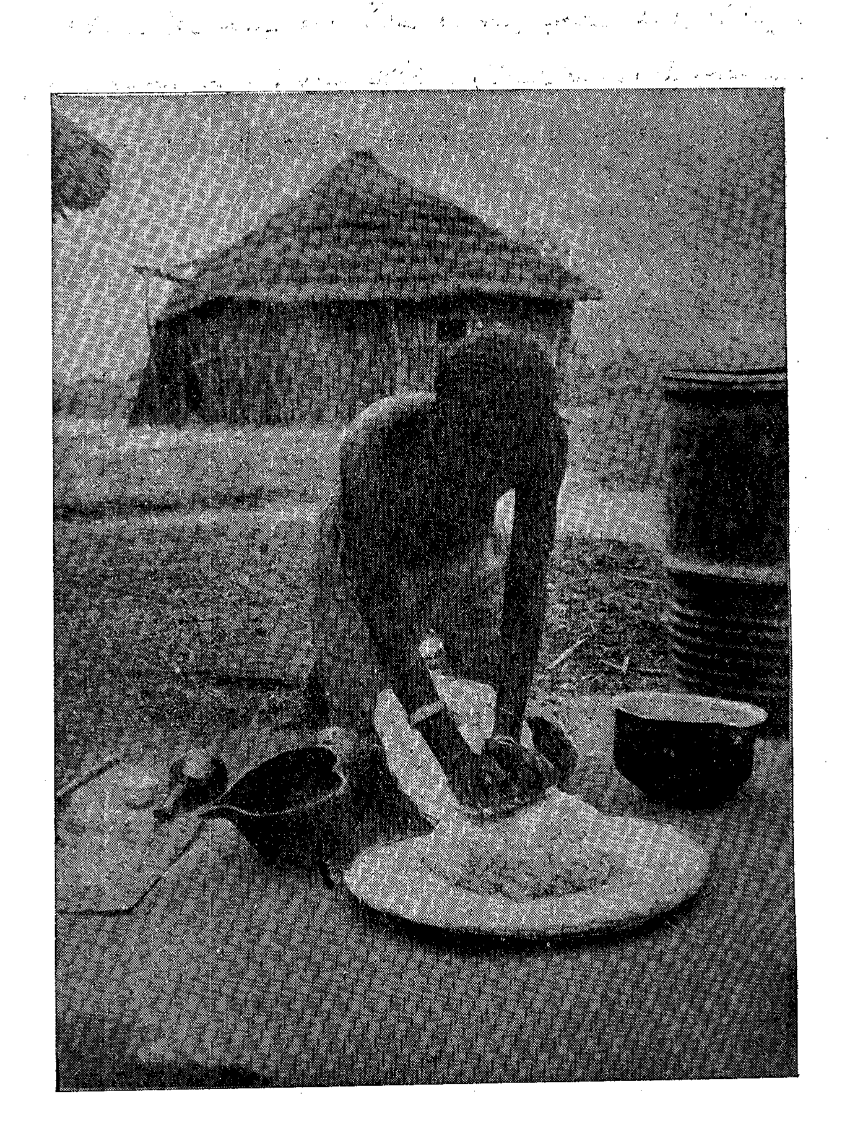
خليفة الله

أما فى القرآن الكريم فالله ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، ومع ذلك فقد ذكر لنا أن الإنسان خليفة الله على الأرض ، وأن جسده إذا كان قد جبل من التراب ، فإن روحه من أمر الله ونفحته ، ولذلك استحق الإنسان أن تسجد له الملائكة نفسها ، واقرأوا إن شئتم : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون — وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين — قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم — قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون[٢] » .

« إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين — فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين — فسجد الملائكة كلهم أجمعون — إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين — قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين[٣] » .

---

(١) كتاب العهد القديم — سفر التكوين — الإصحاح الأول — آيات ٢٧، ٢٨، ٢٩ .
(٢) سورة البقرة — الجزء الأول — آيات ٣٠، ٣١، ٣٢ .
(٣) سورة ص — الجزء الثالث والعشرون — آيات ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥ .



فى قرية من قرى الشلك — ربة الأسرة تعد أسباب الحياة

فالانسان إذن بحسب هذه الآيات قد خلق ليخلف الله فى الأرض ، والإنسان قد خلق يعلم ما لم تعلمه الملائكة ، والإنسان قد سواه الله وخلقه بيديه ونفخ فيه من روحه ، والإنسان قد استحق أن تسجد له الملائكة .

الإنسان الحر

وطالما وقفت أمام هذه القضية أحاول استجلاء مدلولاتها ، فالإنسان ــ على الرغم مما ينطوى عليه من شر أحياناً فيفسد ويسفك الدماء ــ مخلوق أكثر امتيازاً من الملائكة التى لا عمل لها إلا أن تسبح بجلال ربها هاتفة حول العرش : قدوس قدوس ، سبوح سبوح . فما هو تعليل ذلك ؟ وسرعان ما بدا التعليل واضحاً جلياً ، حقاً إن الملائكة لا تعصى الله ما أمرها ، ولكنها فى ذلك لا تتصرف عن طواعية واختيار ، فهى لم تجهز بالحرية التى جهز بها الإنسان ، إنها مجبولة ومفطورة على ما هى عليه ، لقد خلقوا بحيث لا يستطيعون العصيان ، إنهم يسيرون ويعملون وفق سنن معينة لا يستطيعون أن يحيدوا عنها قيد شعرة ، مثلهم فى ذلك مثل أى كائن آخر فى الكون أو ظاهرة طبيعة محكومة بنواميس وقوانين لا تستطيع أن تعدوها .

إنهم كالشمس والقمر والكواكب والنجوم ، إنهم كالهواء والضوء والحرارة ، إنهم نواميس محكومة بما بث فيها من قواعد . فليست لهم قوة الاختيار والإرادة ، إنهم ليسوا أحراراً وهذا هو الفارق بين الإنسان وبين الملائكة وسائر الكائنات المبثوثة فى هذا الكون ، فهو وحده الكائن الحر المختار المريد الفعال .

فالحرية هى التى تجعل الإنسان إنساناً ، هى التى تجعله كائناً فوق الكائنات ، فإذا سلبت حرية الإنسان فقد سلبب آدميته ، وهبط إلى مرتبة دون الحيوان[1] .

---

(١) لعل من أروع ما يتضمنه الفقه الإسلامى من القواعد الإنسانية هو رفض الإمام أبى حنيفة الحجر على السفيه ، فلما سئل عن علة ذلك ، قال لأن فى الحجر على إنسان إهداراً لآدميته وتلك مضرة أعظم من ضياع ماله .

وما بعثة الرسل للإنسان، لتدله على سبيل الله، ولتخاطب عقله، وتقدم له الأدلة والبراهين، إلا تأكيداً لهذه الحقيقة وتذكيراً مستمراً من الله الخالق أن الإنسان قد خلق حراً ليعرف الله عن طريق العقل والاقتناع، وليعبده إذا شاء عن طريق الحرية الاختيار، ولا عن طريق الجبر والإعنات، فيقول لنا القرآن الكريم: «من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»، ويقول لنا: «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى»، ويقول للرسول الأمين: «فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر».

ويقول الله لموسى وهارون وقد أرسلهما لفرعون: «فقولا له قولا ليناً، لعله يتذكر أو يخشى».

كم جعلتنى هذه الآيات وأمثالها مما هو مبثوث فى جميع الكتب السماوية أحب ربى وخالقى وأعبده! كم جعلتنى أناجيه وأسبحه! سبحانك يا مالك الملك! أنت خلقتنا، أنت غمرتنا بهذه النعم وزودتنا بهذه الحياة التى لو أحسنا تنظيمها فإنها تكون مصدر سعادة وسرور فى كل لحظة من لحظاتها، لقد بثثت فى أجسادنا لذات ومسرات، ومتعتنا بالسمع والبصر والعقل والفكر والحرية، ومع ذلك لم تشأ أن تكرهنا على عبادتك، وتركت ذلك لمحض حريتنا وإرادتنا، فقلت — بعد أن بينت لنا الطريق على لسان الهداة المرشدين —: من شاء فليؤمن ومن شاء فلكفر، فرفعت الإنسان بذلك مكاناً علياً بتحميله مسئولية أعماله، فقد كان باستطاعتك أن تفطرنا على الانصياع لأوامرك ونواهيك، لقد كان باستطاعتك أن تخلقنا جميعاً أمة واحدة على نهج واحد ونسق واحد، ولكنك لم تشأ ذلك لحكمة تعرفها، وخلقتنا على ما نحن عليه مختلفين، ألواناً وأجناساً، وعادات وأمزجة، وبعثت لنا الرسل مبشرين ومنذرين يقيمون الدليل على وجودك ويقودوننا بالحب والمنطق والخير إلى طريقك المستقيم.

معجزة عقلية

سبحانك يارب ! لقد أبيت إلا أن تجعل معجزة آخر أنبيائك الذى لا نبى بعده معجزة عقلية بحتة ، فلم تصدع عقولنا بمعجزة قد تؤول كما أول أمثالها بأنها سحر ، ولكن معجزة المعجزات التى جاء بها خاتم النبيين لم تكن سوى معجزة عقلية وفكرية ، ونددت فيها بهؤلاء الذين يريدون الإيمان عن غير طريق العقل ، الذين يريدون أن يغلبوا على أمرهم قبل أن يؤمنوا بوجودك ، فيعرضوا عن الأدلة العقلية ويطلبوا الخوارق التى تلغى عقولهم ، فقلت وقولك الحق :

« ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً — وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً — أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً — أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا — أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا — وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا — قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا — قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً »(١) .

ورحت يا خالقى فى كل سطر من سطور هذا القرآن تستثير أفكارنا ، وتستنهض هممنا للبحث والتنقيب واجتلاء المعرفة مشيراً لنا إلى أن فى هذه الأرض آيات للموقنين فقلت وقولك الحق : «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت — وإلى السماء كيف رفعت — وإلى الجبال كيف نصبت — وإلى الأرض كيف سطحت » ؟ !

---

(١) سورة الإسراء — الجزء الثالث عشر — الآيات من ٨٩ — ٩٦ .

« فلينظر الإنسان مم خلق ؟ـ خلق من ماء دافق ـ يخرج من بين الصلب والترائب » .

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ـ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ـ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

وليس ذلك كله إلا دعوة منك لاستعمال العقل والتفكر والتأمل ، وعلى هذا النسق تجرى آيات القرآن فتثبت لنا وحدانية الله بالدليل العقلى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، فإذا قال العقل : ولماذا إذا تعددت الآلهة تفسد الأرض ؟ جاءه الجواب ناصعاً جلياً لا يحتمل جدلا أو شكا أو تأويلا :

« إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يشركون » .

وهكذا يا رب شئت أن نعرفك بعقولنا ، وإذا عبدناك عبدناك بملء حريتنا ، فلك الحمد والمنة على ما كرمتنا به نحن عبيدك وخلقك .

أقدس الحرية

لذلك فقد لخصت عبادتى لك يا رب فى تقديس الحرية التى وهبتها لنا ، لقد رفضت دائماً ، وسأظل أرفض ، كل مذهب أو دين أو دعوة أو نظام يقوم على إكراه الإنسان وأخذه بالقوة أو الشدة وسلبه حريته ، ولو كان هذا المذهب أو هذه الدعوة ستطعم الناس الشهد والعسل ، وستبنى لهم بيوتاً من ذهب وأخرى من فضة ، فذلك كله لا يساوى شيئاً إزاء فقدان الإرادة وسلب الحرية ، وهل يكون الإنسان إنساناً إلا بالإرادة والحرية ، ما الذى يفرق الإنسان عن غصن الشجرة المثمر المزهر ؟ ما الذى يفرقه عن الحيوان السمين المكسو بأغلى الجلود والفراء ؟ ما الذى يفرقه عن الذهب والجوهر والدر واليواقيت ؟ ! لا شيء إلا الحرية ! خذ من الإنسان الحرية فلا يبقى أمامك إلا مخلوق حقير منافق خسيس

دنىء ضعيف جبان كذاب مستسلم جاهل ، لأن الحرية - والحرية وحدها - هى التى تجعل الإنسان كريماً صريحاً صادقاً نبيلا قوياً شجاعاً مجاهداً متطوراً عالماً . وهل يمكن أن يزدهر العلم فى مجتمع قد خلا من الحرية ؟ وهل يمكن أن يكون عالماً مبدعاً من لا يستطيع أن يفكر بحرية ؟!

لا . إننى أقدس الحرية ، أومن بالحرية الشخصية ، أومن بحرية القول والفكر والكتابة والعقيدة وحرية التنقل والامتناع عن العمل ، أومن بالحرية التى وهبنا الله إياها ، حرية ارتكاب الخطأ ما دام الإنسان يتحمل مسئولية الخطأ . وإنى كافر بكل قيد يوضع على حرية الفرد إلا ليوفر مزيداً من الحرية ، وعلى شريطة أن يكون هذا الفرد قد أسهم فى إبداء رأيه فى هذا القيد فى حرية واختيار بالطريق القانونى الدستورى الذى ارتضى الفرد أن يحكم به وأن يعيش فى ظله . وإنى أنكر على الجماعة أيا كان سلطانها وقوتها أن تجرد فرداً ، أى فرد ، من أن يقول ما يشاء ويعتقد ما يشاء وينتقد ما يشاء ويسعى لإقناع الآخرين بوجهة نظره ، مادام لم يتعرض لأمن الآخرين أو سلامهم ، وما دام لم يحاول أن ينتقص من حريتهم .

أهى دعوة قديمة ؟

وقد يكون هذا الإيمان بالحرية الفردية وتقديسها يعود إلى عهد مضى وانقرض ، وقد يكون عصر الآلة والإنتاج الآلى قد نال من مكانة الفرد وحريته وأنشأ مذاهب ودعوات وأشخاصاً تتجهم لهذه الحرية وترى من أيسر الأشياء وأهونها مصادرة حريات بعض الأفراد ، بل مصادرة الحريات العامة كلها إذا لزم الأمر لما يسمونه مصلحة الجماعة ، وترى أنه لاسبيل للارتقاء بالجماعة إلا بالتضحية بهذه الحريات. ثم عُبِّر عن مصلحة الجماعة بمصلحة الدولة ، ثم جعل من هذه الدولة كائناً أسمى من الأفراد والناس والهيئات ، وزود بحق خرافى أطلقوا عليه اسم السيادة ، وباسم هذه السيادة تستباح الحرمات ويسحق الأفراد ،

أجل! أنا أعرف أن العصر الميكانيكي الحديث قد خلق لنا هذه المذاهب والآراء ، وأنا ــ عندما أتحدث عن الحرية وعن الفرد وكرامة الفرد وأن الدولة إنما قد خلقت لتهيئ للفرد مزيداً من الحرية والكرامة ، فإذا أنقصت من هذه الحرية والكرامة فقد فقدت أساسها الشرعي ، وعندما أقول إن انتساب أى فرد إلى جماعة ليس مقصوداً به إلا أن يكون سبيلا لتوفير أكبر نصيب لهذا الفرد من الأمن والحرية والكرامة وفرصة التطور بنفسه وبمواهبه ، فإذا حالت الجماعة بين الفرد وبين هذه الحقوق الأساسية فقد حلت الروابط التى تربطها ببعضها ــ أنا أعرف أننى عندما أقول هذا الكلام إنما أتحدث بلهجة قديمة وبأسلوب عتيق . ولكن لا حيلة لى فى ذلك ولا سبيل للتغير أو التطور فى هذا السبيل ، فمن شب على شيء شاب عليه ، وأنا فى نهاية الأمر مؤمن أشد الإيمان بربى ، وقد خلقنى الله حرًّا فليس لإنسان أن يسلبنى الحرية ، فالحرية دينى ومذهبى منها خلقت وعليها درجت ونشأت ، وإنى لأرجو الله أن يتوفانى عليها ، حتى إذا تقدمت بصفحتى يوم القيامة وأحصيت سيئاتى فإذا هى فوق الحصر والعدد وإذا هى سوداء تثير النقمة والغضب ، ثم سئلت عن دفاعى عن نفسى لم أقل سوى عبارة واحدة ، وهى أننى حاولت يارب جاهداً أن أحافظ على الأمانة التى أودعتنى إياها . . حاولت دائماً أن أعيش حرًّا وأن أدفع ثمن حريتى . . .

الشيخ الأمين يوقظنى

وقطع على الشيخ الأمين داود سلسلة أفكارى ، وأخرجنى من نشوتى وأحلامى ودنياى ، فقد كان لا بد أن أرى المنظر الذى يراه : قطيعاً من الجرتى لا يقل عدد الرؤوس الظاهرة منه عن بضعة عشر رأساً ، فهل هذه الرؤوس الطافية هى كل القطيع ، أو أن هناك غيرها مختف تحت الماء ؟ تلك مسألة علمها عند الله . . وقد حاولت أن آخذ لهذا القطيع بضع صور ، غير ناجحة بطبيعة الحال ، فلن يظهر فى الصورة إلا نقط سوداء ، ومع ذلك فقد كان لا بد من

المحاولة . ويؤلف الجرنتى أو فرس البحر مصدراً كبيراً من مصادر التغذية للشلك الساكنين فى هذه المناطق ولجميع القبائل الساكنة على شواطئ النيل بصفة عامة ، فالجرنتى الواحد يكتنز ما قد يصل إلى طن من اللحم الشهى ، وجلد الجرنتى السميك يستخدم لشتى الأغراض النافعة لهم فى حياتهم ، وعظامه نافعة كذلك لصنع كثير من الأدوات .

تماسيح

وبينما كنا مشغولين بالجرنتى ، وتصوير هذا القطيع منه ، والتحدث عن منافعه ، إذ هتف البعض : « التمساح ، التمساح » ، وقال آخر : بل اثنان ، وصاح ثالث : « أربعة » ، وسرت فى الجميع موجة من الاهتياج ، وكنت أنا الوحيد الذى لا أرى ما يرون . . . وعبثاً حاولت أن أنظر إلى حيث ينظرون على شاطئ هذه الجزيرة الرملى ، فلم أكن أرى إلا كتلا من الوحل والطين تلمع تحت أشعة الشمس ، ثم أعطيت منظاراً مكبراً ، فإذا هذه الكتل التى تصورتها طيناً هى التمساح بعينة ، وقد ظهر ذلك واضحاً عندما تنبهت إلى اقتراب الرجاف فتحركت جميعاً ودلفت إلى الماء خائفة مذعورة من منظر الرجاف وأصواتها .

ما أغرب هذه الحياة ! فعند ما يرى الإنسان التمساح فى حدائق الحيوان ، وقد رقد وسط الحشائش على ضفاف المستنقع الذى ينشأ له ، أو عندما يراه فى الأفلام السينمائية وهو يدلف إلى الماء حيث يعوم البطل أو البطلة ، يمتلئ الإنسان رهبة وخشية ، وترتسم فى ذهنه صور عن موطن التمساح ، وما يحيط بهذا الموطن من الفزع والرعب ، وها نحن أولاء — وقد أصبحنا فى موطن التمساح — لانحس رهبة ولا فزعاً ، وكأن التمساح دودة من دود الأرض يطأها الإنسان بقدميه ، فالنيل هو النيل بمياهه وشاطئيه ، وعلى ضفته وتحت أشعة الشمس ترقد هذه التماسيح كأنها كتل من الطين ، وعندما تمر أمامها الرجاف بجبروتها وشموخها لا تتمالك التماسيح نفسها من أن تفر مذعورة فتغوص فى الماء .

ويحلق فوق التماسيح ويقف إلى جوارها نوع معين من الطيور ، قال لى السيد عبد الرحيم عربى إن القول المتواتر هو أن مهمة هذا الطير أن ينظف أسنان التمساح فيلتقط ما فيها من الفضلات ، ومن عادة التمساح إذا نام أن يفتح فمه فيقترب منه هذا الطير ويأكل الفضلات من فمه . ولقد سمعت هذا القول من قبل ، وهأنذا أرى بعينى الطير يقف حيث ترقد التماسيح ، فلا بد أن ينطوى هذا القول على الحقيقة .

وهكذا كلما اقتربنا من الجنوب ، تكاثرت علينا الجرنتى والتماسيح ، ولكن ما لم نر الجاموس الوحشى الذى يتحدثون عنه ، وما لم نرَ قطعان الأفيال والأسود ، فنحن لم ندخل منطقة الجنوب بعد .



كاكا

وقفت الرجاف على محطة تسميها السكة الحديد والخرائط « كاكا[1] » ، أما الأهالى فيضيفون إلى الاسم صفة فيقولون : كاكا التجارية ؛ لأن عرب الغرب يفدون إليها بمتاجرهم .

وهرعت إلى الكاميرا ونزلت إلى « اللنشات » الملحقة بالرجاف والتى تقوم بدور الرصيف كلما وقفنا فى محطة من المحطات ، وذلك لانبساط سطحها ، ولم أكد أصل إلى « اللنش » حتى قابلنى منظر لطيف : منظر أسرة جنوبية قد جاءت لتستقل الباخرة ، وهى مؤلفة من الأب والزوجة وابنة كبيرة وأولاد صغار ، وقد خفق قلبى حباً وحناناً لرؤية هذا المنظر ، الذى لا يختلف عن مثيله فى أى بلد من بلاد العالم وفى أى ركن من أركانه ، فقد استعدت الأسرة للسفر ولبست أبهى ما عندها .. فأما الرجل فيرتدى اللاوو ، إنها ليست نظيفة ولكن أليس من

(١) تبعد بلدة كاكا ٣٣٣ كيلومتراً عن بلدة كوستى .

دأب كثير من الرجال أن لا يحفلوا بملبسهم ؟ ! أما الفتاة الكبيرة فترتدى قطعة من القماش الحريرى الأصفر زاهية اللون وجميلة ونظيفة جداً ، والأم ترتدى أحسن ما عندها وإن كان قديماً بطبيعة الحال ، وكانت تحمل طفلها الرضيع الذى كان عارياً ، ولكن جسده يفيض بالقوة والصحة ، وحاول بعض الأولاد الصغار أن « يتشيطن ويتعفرت » فانتهرهم الأب ، فلم يلقوا بالهم لانتهاره ومضوا فى عبثهم ، فضربهم فجلسوا يبكون ويدعكون أيديهم فى أعينهم ، فى حين وقفت أنا أرقب ذلك كله والدموع تكاد تطفر من عينى ، أليست هذه أسرة كأسرتى ؟ أليس هؤلاء كأولادى ؟ أوَما كنت أفعل مثل هذا الأب لو أن أولادى لم يسمعوا كلامى ؟ وتمنيت لو أنى أستطيع أن أصور هذه العائلة ولكننى خفت أن يكون ذلك على غير رغبة رب الأسرة ، وقد يكون فيه ما يجرح شعوره ، ومن ناحية أخرى فلم يطاوعنى ضميرى أن آخذ الصور خلسة وفى غفلة من الرجل . إنى لا أحب أن يصورنى إنسان وعائلتى بدون إذنى ، فليس من حقى أن أرسم صورة هذا الشلكى وعائلته ، وهكذا لم أستطع أن أنقل للعالم صورة أسرة كريمة ركبت الباخرة من كاكا تحفها المهابة والإجلال اللائقين بكل أب وأم يسيران مع أطفالهما .

* * *

وفى كاكا . . . رأيت سكان الجنوب بكل صورهم وأشكالهم وزينتهم ، رأيت هذا الذى يضع قطعة غليظة من البوص فى أنفه بعد أن خرقه ، ورأيت ألواناً عجيبة من الزينة ، فقد طلى البعض رؤوسهم بمادة طينية حمراء تقوم مقام « الحنة » فى صبغ الشعر باللون الأحمر ، ولكنى عندما نظرت لأول وهلة تصورت أن الرجل قد سلخ رأسه ، ولم أستطع أن أحدق البصر طويلا فى هذا المنظر . وتشجعت ونزلت إلى السوق فوجدت فى ساحته الكبرى رجلا وأسرته على ما يبدو يعملون فى كوم من الصمغ ، وقد كانت هذه هى أول مرة فى حياتى يقع بصرى على مادة الصمغ العربى وإن كان شديد الشبه باللبان الذى

نمضغه فى مصر ، وسألت الرجل فى تهيب دون أن أعرف إذا كان سيفهم كلامى أم لا : «أهذا صمغ»؟ فهز الرجل رأسه إيجاباً، قلت: هل أستطيع أن أراه ؟ فمد يده وناولنى قطعة منه لم ألبث أن أعدتها إليه شاكراً بعد أن فحصتها ، ثم انصرفت عائداً نحو السفينة مكتفياً بما رأيت ، وهكذا تحدثت مع جنوبى بالعربية وفهمنى ، وجرى لى أول لقاء مع محصول الصمغ الشهير[1] ولم تقع عيناى فى بلدة كاكا ، سواء فى المحطة أم فى السوق على إنسان واحد عريان ، كما أننى لم أر منظراً أنكره من أى ناحية من النواحى فهى قرية كأى قرية راقية يقابلها الإنسان على ضفاف النيل فى الشمال ، وفيها التجار ومتاجرهم مليئة بشتى أصناف الحاجيات ، ابتداء من البقالة حتى الأقمشة والخردوات والأدوات المنزلية ، وقد خطف بصرى ألوان القماش الزاهية والمشجرة والمخططة التى تغص بها المتاجر ، وقد اشترى أحد زملائنا دخاناً وكبريتاً مما اعتاد أن يدخنه .

ودوت صفارة الباخرة إيذاناً بالرحيل فأسرعت حتى لا تسافر بدونى تاركة إياى فى كاكا التجارية . وبينما كانت الباخرة تغادر الشاطئ رأينا نفراً من العراة يستحمون فى ماء النهر بأجسادهم الأبنوسية ، ويدلفون إلى الماء كما يدلف الجرنتى أو التمساح ، ومع ذلك فلم أر فى هذا المنظر ما يوجب دهشتى أو استغرابى ، ففى مصر على ضفاف النيل والترع نرى مثله كثيراً ، بل حتى فى أطراف القاهرة نفسها ، ليس من النادر أن نرى البعض وقد تجردوا من ملابسهم فى وضح النهار ونزلوا إلى البحر يستحمون .

وتوشك المرحلة الأولى من رحلتنا أن تنتهى كما قيل لى ، فغداً نصل إلى الملكال عاصمة مديرية أعالى النيل ، ولقد كان تصورى أننا سنصل إليها بعد خمسة أيام فإذا بها أربعة لا خمسة ، ولطالما خفق قلبى كلما سمعت اسم الملكال ، أعظم مراكز الرى المصرى على النيل ، وها نحن أولاء نطوى النيل طياً لنصل إليها ،

(١) كان الصمغ هو أشهر حاصلات السودان التى يقدمها للعالم ، وإذا كان القطن قد أصبح يدر على السودان مبلغاً كبيراً من المال نسبياً ، فإن الصمغ العربى لا يزال ثانى محصول يصدره السودان للخارج ، وقد بلغت قيمة المصدر منه فى عام ١٩٥٤ مبلغ ٣,٧٧٧,٠٠٠ جنيهاً .

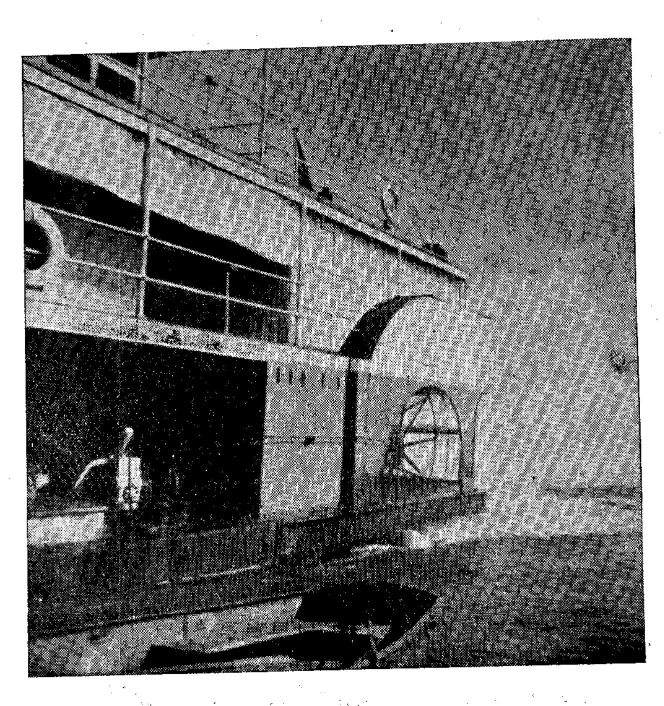
حقاً إن الرجاف تسير ببطء شديد، ولكنها تصل . . تصل فى نهاية الأمر . . .
أولم نكن منذ ساعة فقط فى كاكا . . . كاكا التجارية ؟

الساعة ٩ مساء

عبثاً نستطيع أن نهرب من السياسة ، إنها تطاردنا فى كل مكان ، لقد كنت أمنى نفسى أن تكون هذه الرحلة ، أشبه برحلات شهر العسل ، فلا حديث إلا عن العسل، ولا طعام إلا من العسل، ولا نوم إلا فى العسل كذلك ، ثلاثة عشر يوماً بين السماء والماء على ظهر الرجاف من شأنها أن تبعدنا عن السياسة بمقدار الأميال التى تفرقنا عن الخرطوم ، ولكن هل الرجاف فى حد ذاتها إلا دنيا صغيرة ومدينة عائمة ؟ وهل يمكن أن تخلو الدنيا ، أو مجرد المدينة الصغيرة من الساسة والسياسيين وأحاديث ساس يسوس سياسة ؟ أليس فى الرجاف ركاب ؟ أوليس المستر جوردون هو أحد أعضاء مجلس الشيوخ عن بلدة بور فى المديرية الاستوائية ؟ ولا يتصورن أحد أن المستر جوردون أيوم إنجليزى من أبناء التاميز ، بل هو جنوبى دنكاوى من أعرق الأسر فى الدنكا ، داكن البشرة أو بالأحرى أزرقها على حسب تعبير السودانيين عن اللون الممعن فى السواد ، ولكن صديقنا المستر جوردون كأى جنوبى آخر تعلم فى مدارس الإرساليات قدخلع عليه اسم من أسماء الإنجليز ، فلن تجد فيهم إلا جورج وجون وجيمس وولیم ، وإلا فيكتوريا ومرجريت وشارلوت إذا كن من النساء .

وكان لا بد للمستر جوردون عضو مجلس الشيوخ الذى يشار إليه بالبنان ، أن يحدثنى فى السياسة ، عن الجنوب ومشاكله وعلاقته بالشمال وعن الاتحاد الفدرالى الذى ينادى به البعض ، وعن أسباب الفتنة الأخيرة التى حدثت فى جنوب السودان ومن هو المسئول الحقيقى عنها ، وما هى الأخطار التى تهدد العلاقات بين الشمال والجنوب؟... وليس من مهمة هذه المذكرات أن تتعرض لهذه الموضوعات ، ولو نقلا عن لسان المستر جوردون ، ولكن شيئاً واحداً قد استوقفنى من كل حديثه وأراه جديراً بالنقل والتسجيل وهو أن الجنوبيين يؤمنون

بوحدة وادى النيل ، وقد صوتوا لحزب الاتحاد الوطنى فى الانتخابات لأنه كان يدعو لوحدة وادى النيل ، فلما أعلن السودان استقلاله وانفصاله عن مصر ، فقد بدأ ما يقال فى تبرير الانفصال عن مصر والاستقلال عنها ، يلقى صداه فى نفوس الجنوبيين ويتردد بينهم ، وإذا كان الشماليون الذين تربطهم بمصر حدة الدين واللغة ، والأصل المشترك ، والمصلحة المشتركة ، يرون الاستقلال عن الشمال مثلا أعلى ، أفليس يحق للجنوبى — وهو الذى يفترق عن الشمالى فى دينه وفى لغته وفى أصله وفى مصالحه — أن يفكر فى الحصول على نوع من الاستقلال الداخلى على الأقل؟ فإما دولة واحدة من المنبع حتى المصب فى اتحاد فدرالى ، وإما دول مستقلة ومتفرقة . هذه هى عبارات المستر جوردون أسجلها بدون تعليق . وقد كان يحدثنى بلغة إنجليزية سليمة ، وكان مستواه فى الذكاء وفى مناقشة الأمور والمسائل العامة كأى سياسى يمكن أن يصادفه الإنسان فى السودان أو غيره من البلاد .



صورة مؤخر الرجاف : وترى دواليب السفينة وهى تقلب الماء

٤

الأربعاء ٤ أبريل ١٩٥٦

. . . وهذا الرجل العارى الصدر والرأس والجالس على أحد الكراسى هو صاحب الجلالة بذاته . . .

الساعة ١٠ صباحاً

يوم جديد ، وصباح جديد ، وفجر جديد يطلع على الكون والرجاف تسير ، ودواليبها تحدث هذه الحركة الرتيبة ، وقد بدأت أعجب الإعجاب كله بمهارة ربان هذه المجموعة من العائمات ، والذى يعرف ، على ما يلوح لى ، كل شبر من المياه فى مجرى النيل . إنه يعرف فى أى جزء من هذا النهر العريض يسير بمجموعته ، فتارة نراه يسير بجوار الشاطئ الشرقى ، وتارة بجوار الغربى ، وكثيراً من الأحيان يسير فى الوسط ، ولا مقياس لذلك إلا مجرد علمه بالتجربة لمنظر المياه التى تكفى لحمل الرجاف وأثقاله .

وفى فجر هذا الصباح رأيت طوفان الزرزور من جديد ، وعلى الرغم من أن المنظر لم يكن مفاجئاً لى هذه المرة ، فإن دهشتى لم تكن أقل منها فى اليوم السابق ، وأنا أراه يتدفق وكأنه عاصفة رملية ، فقد كان اللون الغالب تحت أشعة الشمس هو اللون الرمادى ، وقد قيل لى إن اللون الرمادى هو لون الأنثى ، ومع ذلك فقد كانت الموجة تنقلب سوداء من حين لآخر ، ثم لا تلبث أن تعود رمادية فسوداء ، وأحياناً لا يبدو للموجة أى لون وتصبح وكأنها مجرد ذرات هائمة . . . وظلت الزرازير تندفع وتندفع حتى خلفناها وراءنا وكأنها السحب فى كبد السماء ، وقد تأكدت اليوم أنها عصافير أو زرازير فقد كانت مجاميع صغيرة تنفصل من هذا الطوفان وتحلق بالقرب من السفينة .

كودوك ، لا بل فاشودة

إن منظر الشاطئين قد أصبح يثير الاهتمام ، إنه يغص بالحركة والحياة ، فهاهي ذي أراض زراعية ، وهذا هو الشادوف المصرى ينقل الماء من النهر إلى الحقل ، وكأننا قد عدنا إلى أدفو أو إلى أسوان حيث توجد أمثال هذه الشواديف مركبة على النيل ، وفى نفس الوقت تصفر الرجاف وتزأر بالصفير ، من الواضح أننا نقترب من محطة هامة ، إنها كودوك أحد المراكز الهامة قبل الملكال . بل لقد كانت هى عاصمة مديرية أعالى النيل قبل الملكال ، عندما لم يكن اسمها كودوك بل فاشودة ؛ ولعل اسم فاشودة ليس غريباً عليك فهو أحد الأسماء التى طبقت شهرتها العالمين فى يوم من الأيام ، والتى لا تزال تحتل مكاناً بارزاً فى التاريخ الحديث ، تاريخ العلاقات بين فرنسا وإنجلترا فى أواخر القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين . ولقد نقل الإنجليز عاصمة المديرية من فاشودة إلى الملكال ، وأبدلوا اسم فاشودة بهذا الاسم الجديد الذى لا معنى له وهو كودوك ، وذلك كله لإسدال الستار على الماضى وشطب هذه الصفحات من التاريخ ، والإنجليز قوم يصوغون التاريخ على هواهم ويبقون منه كل الذى يتفق وخططهم ويحذفون منه مالا يروق لهم . فأحمد أغا اسم يجب أن يبقى لأنه يصلح لتذكير الشلك بمعركة دارت بينهم وبين أحمد أغا من الشمال ، أما فاشودة فاسم يذكر بأن الإنجليز دافعوا عن وحدة وادى النيل يوماً ما ، وأن السودان ليس أرضاً للاستعمار أو الاستعباد . وتتخلص القصة ، فى أن إنجلترا حتى قبل أن تحتل مصر عام ١٨٨٢ جعلت همها الأول فصل السودان عن مصر لكى تحوله إلى مستعمرة خاصة بها ، ففرضت على خديو مصر حكاماً من الإنجليز للسودان وعلى رأسهم غوردون[١] ، فكان طبيعياً أن يجد

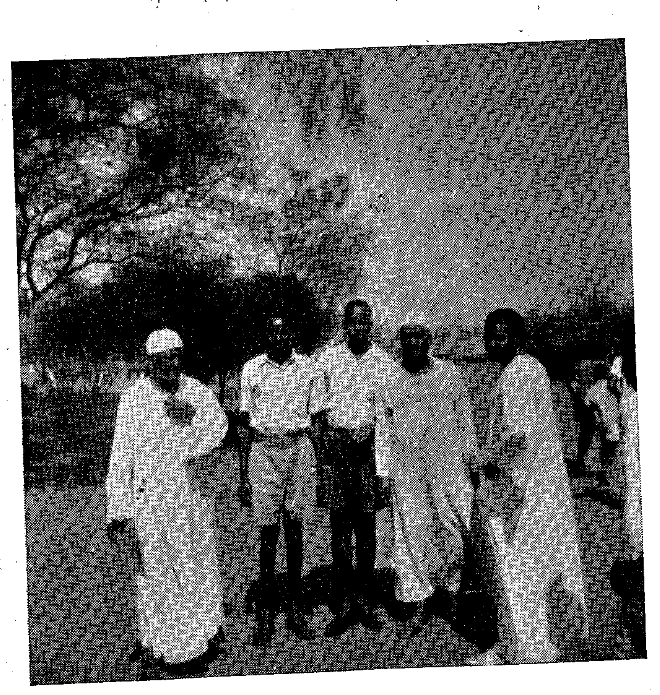
(١) « كان همى الأول أن أعمل لصالح مصر ، ولكنى كنت أسعى فى نفس الوقت لصيانة نفوذ إنجلترا وتدعيمه ، وقد كان ذلك هو نفس الهدف الذى ضحى من أجله خلفى الجنرال جوردون بحياته ، والذى مات بأمل واحد وهو أن تصل إنجلترا إلى الخرطوم » — مذكرات صمويل بيكر كما نقلها الأستاذ مكى عباس فى كتابه « المسألة السودانية » صفحة ٣٤ .

السودانيون فى ذلك، وهم المسلمون الأحرار ممن يأبون الضيم، عدواناً على عزتهم وكرامتهم ، فثارت ثورة المهدى ، التى لم تكن فى حقيقتها إلا ثورة على الاستعمار الأجنبى ، ولم تكن تهدف لتحرير السودان فحسب ، بل تحرير مصر نفسها من ربقة الإنجليز ، ثم كان ما كان من إخلاء الإنجليز للسودان من الجيش المصرى ، ثم عادوا فى سنة ١٨٩٨ لاحتلال السودان تنفيذاً لخطتهم ، وفى هذه الأثناء كان الفرنسيون قد نفذوا بجيوشهم من غرب السودان ، ووصل قائد شجاع اسمه مارشان على رأس شرذمة صغيرة إلى ملتقى النيل بالسوباط ، فاحتل هذه البقاع باسم فرنسا ، ثم سار شمالا مع النيل حتى وصل إلى بلدة فاشودة حيث أقام معسكره ورفع العلم الفرنسى على هذا الجزء من السودان الحبيب . وكان كتشنر قد وصل فى ذلك الوقت إلى الخرطوم ، فأسرع بامتطاء سفينة نهرية على رأس قوة كبيرة ووصل إلى فاشودة ووقف فى وجه مارشان طالباً منه إنزال العلم الفرنسى والانسحاب من هذه الأراضى ، ولم يكن باستطاعة كتشنر الإنجليزى ، ولا هو من حقه ،أن يطالب مارشان الفرنسى بالانسحاب ، فقد كانت القاعدة فى ذلك الوقت أن من دخل أرضًا ورفع فوقها العلم فقد ملكها واستعمرها ، وبهذه الحجة نادت فرنسا ، ووقف قائدها فى فاشودة لا يخضع للقوة أو الإرهاب ، ولكن كتشنر ومن خلفه إنجلترا أسرعا يؤكدان أن فاشودة أرض مصرية وليست أرضاً للاستعمار ، وأنقذت هذه الحجة وحدها السلام الذى كاد يمزق بين إنجلترا وفرنسا ، فقد تنادى الشعبان بوجوب الحرب ، ولكن فرنسا آثرت أن تنسحب فى نهاية الأمر ، شريطة أن لا يرفع فوق هذه الأراضى إلا العلم المصرى ، وقد كان... وطوى العلم الفرنسى ليرتفع مكانه العلم المصرى . ذلك هو التاريخ وتلك هى فاشودة صاحبة هذه القصة التاريخية والشهرة العالمية ، فقد ارتج العالم فى ذلك الوقت بأنباء هذا النزاع بين إنجلترا وفرنسا ، وجاءت لحظات ظن فيها أن الحرب بين الدولتين ستقع من لحظة وأخرى ، إلى أن وفقت إنجلترا إلى هذا الحل السعيد الموفق ، فأما

وقد بلغ الحل أغراضه وحقق مراميه ، فلم يعد هناك ضرورة للإبقاء على اسم فاشودة ولتغير إلى كودوك ، وقد كان وتم لهم ما أرادوا .

عاصمة الشلك

ونزلنا إلى كودوك فإذا نحن فى صميم بلدة من بلاد الشلك الراقية ، ليس فيها عار واحد ، فالجميع حتى الذين يعملون فى الحقول يرتدون اللاوو ، ومساكن البلدة منظمة بشكل هندسى يتجلى الفن فى بنائها على الرغم من أنها مبنية من القش والبوص ، ويتجلى الفن أكثر ما يتجلى فى أسقفها المائلة أو المخروطة ، وفوق بعض هذه الأكواخ وجدنا هوائى الراديو ، فقال أصحابنا : لا بد أن يكون



بعض رفقاء الرحلة وهم من اليسار إلى اليمين الشيخ الأمين داود إمام مسجد جوبا ، فابن المستر جوردون أيوم فوالده المستر جوردون فالسيد عبدالرحيم عربى فأحد إخواننا تجار الشمال

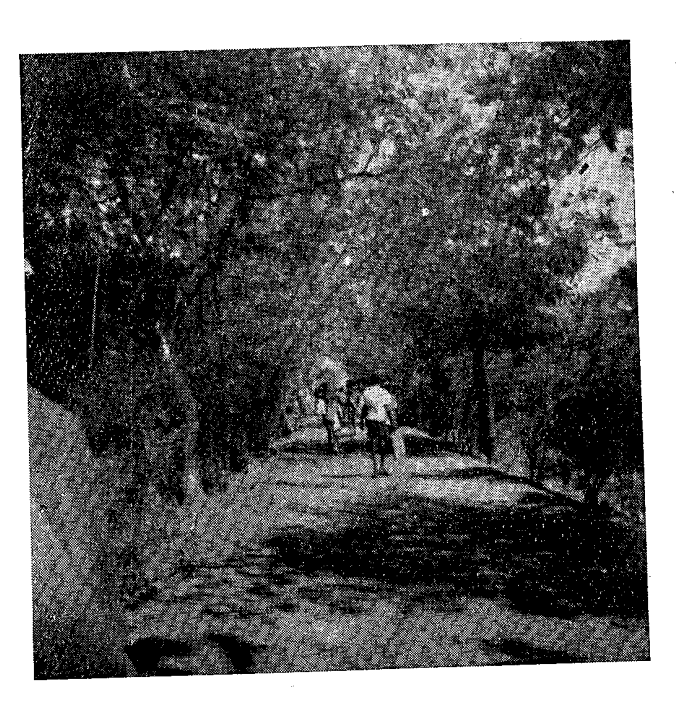
هذا بيت أحد الجلابة ، والجلابة هو الاسم الذى يطلق على التجار ، وقديماً كان تجار العبيد يسمون الجلابة ، ولذلك فيا حبذا لو غير هذا الاسم وحل محله اسم جديد ليعفى على آثار الاسم القديم وما يثيره فى النفوس .

وفى طريقنا إلى السوق وجدنا رجلا يقف ممتشق القامة وسط أبقاره وثيرانه ، ولقرنى الثور هنا منظر جليل ورائع ، وهما يرتفعان شامخين ويتلاقى أطرافهما فى شبه دائرة كما لو كانا يؤلفان فيما بينهما قمراً ، وكثيراً ما رسم هذا الثور على الآثار المصرية القديمة مما يدل على أن هذا النوع من الأبقار والثيران قد استورد من مصر القديمة فبقى فى السودان وزال من مصر ، وقد رفض الرجل أن يسمح لنا بتصويره أو تصوير أبقاره . وفى السوق الكبيرة كان هناك كل ما يمكن أن يرغب الإنسان فى شرائه ، ودخلنا إلى مخزن كبير نشاهد كل معروضاته فكان فيه كل ما يتصور الإنسان إمكان وجوده فى عدة متاجر كبرى ، فمحفوظات العلب أشبه بمثيلاتها فى أى مخزن فى أنحاء العالم ، والأقمشة بمختلف أصنافها وأشكالها ، والبطاطين الصوفية ، والملابس الجاهزةالصنع للرجال والنساء ، والأدوات المنزلية من أطباق وصحون وأوانٍ نحاسية ومعدنية وزجاجية ، ولتتويج ذلك كله كان بالمحل ثلاجة كهربائية كبيرة مما نسميه « الفريجدير » ، وكان آخر ما أتصوره أن ألتى « فريجدير » فى كودوك . . . فى مديرية أعالى النيل . . . فى أحد مخازن التجار .

ملك الشلك

ولفت نظرنا على باب هذا المخزن مجموعة كبيرة من محاربى الشلك ما بين واقف وجالس وممدد على الأرض ، وهم يحملون حرابهم وقسيهم ، ولم نعر الأمر ، فى بدء الأمر أى اهتمام ظنًّا منا أن ذلك أمر عادى ، ثم تكشف الأمر عن أننا سعداء الحظ جداً إذ يتاح لنا فى هذه الساعة التى وقفناها فى كودوك أن نشهد ملك الشلك جميعاً الذى يدينون له بالطاعة والولاء ، والذى يملك على

رعاياه حق الحياة والموت ، وهؤلاء المحاربون الذين يتجمعون حول هذا المخزن هم حراس صاحب الجلالة ، وهذا الرجل العارى الصدر والرأس والجالس على أحد الكراسى هو صاحب الجلالة بذاته، ولم يكد زملائى فى الرحلة يكتشفون الحقيقة حتى سألوا المستر جوردون ليستوثقوا منه باعتباره جنوبيًّا : أحقًّا هذا هو ملك الشلك ؟ وقال المستر جوردون: أجل، إنه هو، وقد تشرف بمصافحته ورفع التحيات إليه، فقلنا له: ونحن جميعاً نرغب فى تحيته ، ولكن جوردون نصحنا بالابتعاد، حتى لا نتعرض للمتاعب، ورأى أن من الخير أن ننصرف فى سلام، ولفت نظرنا إلى أن حراس الملك بدأوا يراقبوننا بشدة، وأن أى فهم خاطئ لحركة من حركاتنا تؤول على قلة الاحترام نحو الملك قد يترتب عليها أذى كبير . ولم يكد جوردون يفرغ من تحذيراته ، حتى ماتت فى نفوسنا



منظر الطريق المؤدى من الميناء حتى سوق فاشودة وهو مظلل بالأشجار

كل رغبة فى التشرف بمصافحة جلالة الملك ، ورأينا أنفسنا نستحث الخطى مبتعدين عن المكان ، ولست أعرف ماذا كان شعور إخوانى ، أما بالنسبة لى فقد استولى على لون من الذعر ، ورحت أتخيل هذه الحراب فى أيدى الحراس وقد قذفت نحوى فاستقرت بين أضلعى وفى قلبى ، فلا ألبث أن أخر شهيد الغرام ، غرام الرحلة فى أعالى النيل ، والإصرار على تحية ملك الشلك .

* * *

ويطلق على ملك الشلك لفظة «الرث» . وإلى عهد قريب كان جلالته لا يعترف فى العالم إلا بثلاثة ملوك هو رابعهم : ملك مصر وملك إنجلترا وملك الحبشة . وملكه هو فى الدرجة الأولى : وهو ليس مجرد ملك سياسى على أتباعه بل وملك روحى فسلطته لا حد لها ، وهو منحدر مباشرة من «نايكانج» أول ملك فى تاريخ الشلك . وهكذا كل ملوك الشلك يعتبرون دائماً منحدرين مباشرة من هذا الملك الأول ، ومنطقة نفوذه مقسمة إلى مديريات على رأس كل مديرية زعيم يدين له بالولاء ويتلقى منه الأوامر . ولجلالة الملك بيت صغير فى كودوك ولكن قصره الأكبر فى عاصمة ملكه وهى قرية صغيرة تبعد ١٢ ميلا جنوب كودوك ولا تزال تسمى فاشودة .

وإذا كان الشلك على خلاف الدنكا يمكن اعتبارهم مزارعين وهم أميل إلى الاستقرار بصفة عامة فإنهم ككل القبائل النيلية يقيسون ثروتهم بما يملكون من الأبقار . وهذه الأبقار لا تذبح للانتفاع بلحمها فى الطعام إلا فى النادر جداً عندما تذبح كقربان للآلهة ، أو تقع ميتة حتف أنفها [١] وكل ما تستعمل له البقرة هو الانتفاع بلبنها الذى يؤلف الجزء الأكبر من غذاء كل القبائل النيلية . على أن المهمة الكبرى للأبقار هى أنها وسيلة الزواج ، فهى تستخدم لتكون مهراً . ولا بد أننا سنسمع الكثير عن هذا الموضوع وستزداد معلوماتنا كلما اتجهنا صوب الجنوب .

---

(١) حاول البعض أن ينكر على الجنوبيين أكلهم الأبقار بعد أن تنفق ، فكان جوابهم : « أتأكلون ما تقتلون بأيديكم ، ولا تأكلون ما قتل الله ؟ ! »

وحثثنا الخطى نحو الرجاف التى كانت تطلق صفارتها إنذاراً باستئناف المسير ، وفى طريقنا دخل جوردون فى مساومة مع صبى صغير كان يحمل دجاجة تكاد تكون أكبر منه فكأنها ديك رومى عتيد ، وكان الصبى يطلب خمسة عشر قرشاً ثمناً لها ، وكان جوردون يعرض على سبيل المزاح عشرة قروش فقط ، ولكن الصبى أصم أذنيه عن سماع هذا الرقم ، ثم أظهر استعداده لأن يبيعها بثلاثة عشر قرشاً فهى فى نظره دجاجة كبيرة . وساءلت نفسى : ترى أولا يسيل لعاب أية ربة من ربات البيوت فى مصر لمرأى هذه الدجاجة ؟ أولا يسيل مع لعابها جنيه من حقيبتها ثمناً لهذه الدجاجة تدفعه وهى قريرة العين ، ولكن واأسفاه إن بين مصر وبين هذا المكان الذى نحن فيه ألوف الكيلو مترات ، ولو حملت هذه الدجاجة إلى مصر لتكلف نقلها أضعاف أضعاف ثمنها فصعوبة المواصلات هى التى تحرم الشمال خيرات الجنوب ، وعندى أن المواصلات فى السودان هى إحدى مشاكله الكبرى التى تحتاج إلى علاج ، وعلاج سريع ليشعر السودانيون بنعمة الاستقلال ، وليشرعوا فى الانتفاع باتساع ملكهم وضخامة ثروتهم ومواردهم .

واستأنفت الرجاف سيرها فى الساعة الحادية عشرة وسط حرارة متزايدة وماء ساكن راكد لعدم وجود هواء ، ومع ذلك فإنى فى فيض من الشعور بالسعادة كلما تصورت أننا نسير دائماً صوب الجنوب وأننا نقترب ونقترب من منابع النيل الحبيب .

* * *

الساعة ٦ مساء

اشتداد الحر

لا أظن أننى حدثتك عن الحروشدة الحرارة حتى الآن . الحرارة التى نعانيها ساعة الظهيرة ابتداء من الساعة الواحدة حتى الخامسة ، ولقد حال بينى وبين وصف الحر هو أننى أتوقع منه المزيد فى الأيام المقبلة ، فلو أننى صورت لك

درجة الحرارة التى بدأنا نقاسيها لاستخدمت كل أفعال التفضيل والمبالغة ولحرت فى المستقبل من أين أجيء بألفاظ لتصور شدة الحر ومع ذلك فلأعطك صورة مختصرة وسريعة عن بعض مظاهر هذا الحر . فأنا أدخل حجرتى أو قمرتى بعد تناول طعام الغداء ، وفى حجرتى مروحتان تدوران باستمرار ومع ذلك لا أكاد أدخل إليها حتى أحس بلفح اللهيب يكاد يشوى وجهى ، وألمس الفراش استعداداً للنوم فإذا به يلسع ويكاد يشتغل ، فعن لى فى مرة من المرات أن أجرب فكرة رش الفراش بالماء ، فلم أكد أفعل ، وأغرق ملاءات الفرش بالماء ثم أحاول الاستلقاء على الفراش حتى قفزت كالملسوع من شدة الحر ، فقد تبخر الماء الذى سكبته وتحول إلى بخار ساخن ، وقد يكون فى هذا بعض المبالغة ولكنى أصف لك ما أشعر به ، ولا تهدأ حرارة الفراش إلا بعد أن أستقر عليه طويلا إذ تنتقل الحرارة إلى جسدى والحمد لله . ولا تلبث الوسادة تحت رأسى أن تتحول إلى بركة من العرق فأقلبها على الناحية الأخرى ، فإن هى إلا بضع دقائق حتى تتحول إلى بركة كذلك ، فأستحضر وسادة ثانية جافة من السرير الآخر الموجود فى الحجرة فينتهى مصيرها إلى مصير الوسادة الأولى ، ولكن من حسن الحظ أنه يكفى أن أرفع رأسى عن الوسائد بضع لحظات حتى تجف على الفور وتكون على استعداد لامتصاص قدر جديد من العرق الذى ينضح من رأسى ، وأهرع إلى الماء أشرب وأشرب لأمد جسدى بكمية جديدة من المياه الصالحة للتحول إلى عرق من النوع الممتاز ! !

ولقد سخطت على الإنجليز عندما نزلت فى فندق الجراند أوتيل لإدخالهم إلى السودان نوعاً ضخماً من أكواب الماء الزجاجية ، وقد كان يهولنى أن يشرب الإنسان كل هذا القدر من الماء فى جرعة واحدة ، وأنا الآن أشد سخطاً عليهم لأن هذه الأكواب كانت بهذا الحجم فقط ولم يحضروا لنا أكواباً تتسع لجالون من الماء البارد ، وأحسب أن هذه فرصة للعمل والإصلاح !

ومما يجعل الموقف شيقاً جداً أن الإنسان وسط هذا الحر لا يستطيع أن يتناول (دوشاً) بارداً ليخفف من وطأة الحر وذلك لسبب بسيط جداً، وهو أن الماء يغلى فى صنابير المياه (وأدشاشها) ولكن هل أنا منزعج من هذا الحر؟ اللهم لا فلا تكاد حدة الشمس تنكسر حتى يرق الجو ويعتدل ، بل إن الجو يبرد فى الليل حتى يحتاج الإنسان دائماً إلى الغطاء الصوفى وهذا ما يجعلنى أتصور أن الحر لم يبدأ بعد وعلى ذلك فلننتظر .

وتتقدم الرجاف الآن ببطء ورشاقة نحو الملكال ، ومنذ ساعتين ونحن نسير وسط شاطئين عامرين بسكان النيل ولكنهم الآن عرايا جميعاً ، عرايا كما خلقتهم أمهاتهم ، وقيل لى إن هؤلاء هم الدنكا الذين اختصوا هم والنوير بالعرى المطلق ، والدنكا هى أكبر قبائل السودان النيلية على الإطلاق إذ يبلغ عددهم ٨٢٠ ألف نسمة[1] ، وهم أكثر قبائل الجنوب حرصاً على اقتناء البقر فهم رعاة أبقار أكثر منهم أى شىء آخر ، وتتوالى القرى بأكواخها المصنوعة من القش ، وقد بدأ يظهر فى كل قرية نخل زخرفى جميل ، وهو ليس نخل البلح ولكنه نخل « الدوم » الكثير الانتشار فى السودان[2] .

إحراق القش

ومن المشاهد التى أصبحت مألوفة لنا منذ بدأنا رحلتنا ، مشهد النيران وهى تشتعل فى مساحات ضخمة من القش النامى على شاطئ النهر ، وهذه هى طريقة السكان فى تطهير الأرض من الحشائش الجافة أو الخشنة لينمو بدلا منها عشب جديد أخضر أكثر نعومة ، وأكثر صلاحية لرعى الأبقار والماشية ، والغريب أن باستطاعة أى فرد جنوبى أن يشعل هذه النيران فى الحشائش

(١) يبلغ عدد الدنكا فى مديرية أعالى النيل وحدها ٦٠٠ ألف نسمة يملكون أكثر من نصف مليون رأس من الأبقار ومثلها من الضأن والماعز .

(٢) لأمر ما تسمى مصلحة الغابات «الدوم» بالعاج النباتى وتقدر محصوله بـ ٥٣ ألف جنيه فى العام الواحد .

الجافة ، دون أن يجد من يعترض عليه ، مهما كانت المساحات الضخمة التى قد تشملها هذه الحرائق .

هؤلاء الإنجليز

ولقد فرغت اليوم من مطالعة كتاب إنجليزى كنت قد اصطحبته معى لأستمد منه بعض المعلومات عن السودان» بصفة عامة وعن الجنوب بصفة خاصة ، وهو كتاب « الزراعة فى السودان » لجامعه المستر ج . د. توتهل ، وليس هذا الكتاب من تأليف عالم واحد وإنما قد اشترك فى إعداده عدد من خبراء الإنجليز وعلمائهم ممن اشتغلوا فى حكومة السودان فى النواحى الفنية المختلفة ، فيكتب البعض عن الناحية الطبوغرافية ، وآخر عن الجيولوجيا ، والثالث عن الرى ، ويتحدث البعض عن حيوانات السودان ، وعن وسائل المواصلات به وهكذا . ولقد حرصت على أن أقرأ وأتصفح صفحاته التسعمائة حتى ما كان منها علمياً بحتاً ، وذلك لأستفيد مما يقال فى ثنايا أى بحث من معلومات عامة عن السودان ، ولقد استفدت من هذه الناحية فى إعداد كثير من الهوامش التى ترى فى هذا الكتاب ، ومع ذلك فقد كان الشعور الذى سيطر على عقب الفراغ من مطالعة الكتاب هو شعور بخيبة الأمل ، لقد كان الأثر الذى استقر فى نفسى هو أن السودان بالرغم من ضخامته قطر فقير ، بل إن هذه الضخامة هى أحد أسباب فقره وستبقى العقبة الكبرى فى سبيل تطوره . فهل السودان حقاً على هذه الصورة القاتمة التى تتجلى من مطالعة هذا الكتاب ، أم أن هذه المباحث قد أريد بها تبرير هذا التخلف الذى يعيش فيه السودان حتى الآن . إن كتّاب هذه المقالات من الموظفين الإنجليز ، ولا شك أن البعض كان يحاسبهم فضلا عن محاسبة الشعب السودانى لهم ، مذكراً إياهم بتقصيرهم حيال السودان ، وما أدراك ما السودان . إنه مليون ميل مربع من الأرض ، يهطل فوق نصفها أمطار خلال ستة أشهر فى العام على الأقل ، وتتراوح من ٥٠٠ ملليمتر إلى ١٢٠٠

ملليمتر ، ويمر خلال السودان أطول أنهار العالم ، ومع ذلك فقد كان هناك أقوام تموت من الظمأ ، وهناك أقوام تموت من الجوع . وفي أعالي النيل ، وفي مديريتي بحر الغزال والاستوائية ، لا تزال هذه القبائل من الدنكا والنوير والشلك[1] تعيش على الفطرة . فكان لا بد للإنجليز أن يدافعوا عن أنفسهم على ما يظهر ، على الأقل أمام ضمائرهم إن لم يكن أمام أي إنسان آخر ، فكتبوا أمثال هذه التقارير وجمعوها في مثل هذا الكتاب الذي إذا تصفحه الإنسان امتلأ يأساً وتشاؤماً ، لا بالنسبة لحاضر السودان ، بل بالنسبة لمستقبله ، ويتصور الإنسان أن هذا القليل التافه الذي فعله الإنجليز في خمسين سنة كإنشاء مشروع الجزيرة الذي ينتج مليون قنطار من القطن ، هو عمل جبار يجب أن نسبّح بحمد الإنجليز من أجله بالليل والنهار .

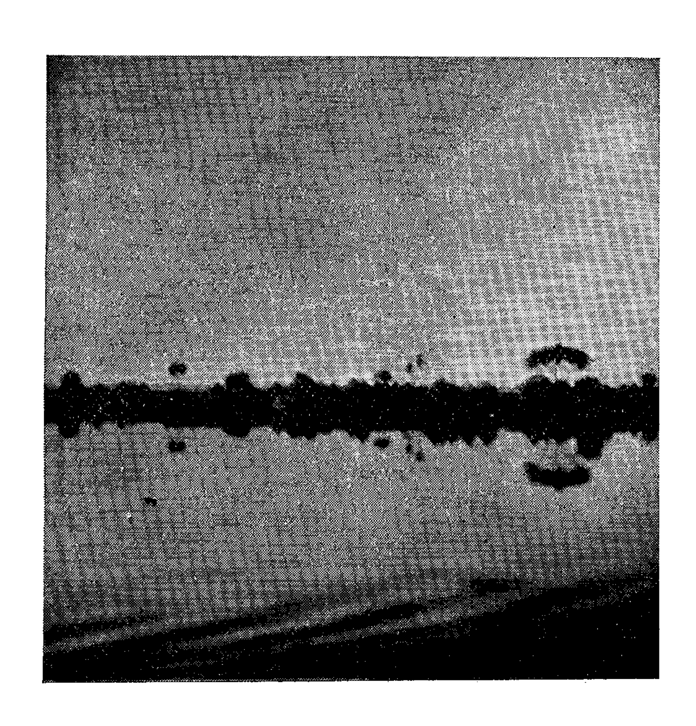
ولم يطاوعني عقلي لتصديق الشعور الذي ولده في نفسي مطالعة هذا الكتاب الجاف . إن هذا الكتاب يمكن أن يلخص في أن نصف السودان صحراء بلقع لا يمكن عمل شيء فيه لعدم وجود الماء ، والنصف الآخر حيث يكثر الماء ويغزر فهو بعيد جداً عن الأسواق الخارجية ، والمواصلات إليه من شأنها أن ترفع تكاليف استغلال أي سلعة من السلع أو مادة من المواد ، بحيث تجعل استغلالها عملا غير اقتصادي . ومن ناحية أخرى فسكان هذا القسم فطريون لا يميلون إلى العمل . وقد أخفقت كل وسائل الإنجليز في حثهم على العمل والإنتاج ، والأرض الزراعية في أكثر أجزاء السودان من نوع رديء ، وحقاً قد تسقط الأمطار في بعض أجزاء السودان الجنوبي تسعة أشهر في العام ، ومع ذلك ففي أشهر الجفاف الثلاثة يصبح العثور على الماء مشكلة صعبة . وعلى هذا النحو من استعراض واقع الحال في السودان يسجل الكتاب معلوماته الكئيبة . إنه كتاب دعاية ، أو بالأحرى كتاب تغطية لقصور الإنجليز

(١) ليست قبائل جنوب السودان ، من الزنوج كما قد يتصور البعض بل إنهم مزيج من الدم الحامي « القوقازي » الذي وفد من الشمال واختلط مع الدم الزنجي .

وإخفاقهم فى التطور بالسودان، هذا الإخفاق الذى لم يكن عن سهو أو خطأ، أو عجز ، وإنما عن قصد وتدبير لإبقاء الشعب السودانى فقيراً غير متطور ليكون من السهل حكمه واستغلاله عن أيسر سبيل ، وسوف نرى الآن فى عهد الاستقلال كيف تتحول كل هذه الحقائق القاتمة إلى حقائق زاهية براقة[١].

صلاة

الشيخ الأمين داود يدعو لصلاة المغرب ، والمستر جوردون يدعو لسماع محاضرة عن مشاكل الجنوب السياسية ، وأعتقد أن الصلاة خير وأبقى ، ولا بأس إذا فرغنا من الصلاة ، وكان لا يزال هناك بعض الوقت قبل الوصول إلى الملكال ، أن نمضيه فى حديث السياسة ، وساس يسوس .



(١) علمت وهذا الكتاب تحت الطبع أن شركة المعادن الشرقية قد صدرت معدن المنجنيز لأول مرة فى تاريخ السودان ، وأنها **وفقت** للعثور على كثير من المعادن الوفيرة .

٥

الخميس ٥ أبريل ١٩٥٦

. . . ولست أعرف لماذا أحسست بخشوع ونحن نقترب من ملتقى السوباط بالنيل الأبيض . . . لست أعرف لماذا ملأنى الروع وغمرت بشعور غامض . . .

الساعة ١٠ صباحاً

فى الملكال

نفس الشعور الذى أحسست به عندما وجدت نفسى لأول مرة فى باريس أو فى نيويورك ، أو فى كلكتا فى الهند أو رانجون فى بورما، هو ما أحسست به بعد أن رأيت نفسى فى الملكال[1] ، ففى كل هذه الأماكن كنت أتساءل إذا ما وصلت إليها: أحقًّا أنا فى باريس أو فى نيويورك أو لندن ؟ هل تحقق هذا الحلم المنشود وتحول إلى أمر واقع ؟ ! ويجيئنى الرد دائماً مما يحيط بى من بيئة ومناظر : أجل، أنت فى نيويورك وكل ما حولك يؤكد لك هذه الحقيقة .

هذه الأنوار التى تتلألأ على البعد إنها أنوار الملكال، وهاهم أولاء الركاب قد تكأكأوا على حاجز السفينة يتحدثون عن الأسماء الحبيبة التى طالما ترددت فى الصحف والتى طالما حن الإنسان لرؤيتها ، هذه أنوار الرى المصرى ، هذه أنوار النادى المصرى . . . أجل إنها الملكال أخيراً .

ومنذ خمس وثلاثين سنة واسم الملكال يدوى فى رأسى كطالب صغير يتعلم الجغرافيا، وكمواطن مصرى يدرك دائماً خطورة الفيضان على مصر، وأن

(١) اسم البلدة كما ينطق فى السودان هو « ملكال » أما فى مصر فينطق بها الملكال للتخفيف ، وقد رأيت أن أكتبها كما اعتدت أن أنطقها .



صورة ميناء الملكال ، ويرى شاطىء النهر وقد كسته الأحجار

اهتمام مصر بالنيل لا ينشأ فقط من انتفاعها بمياهه ، بل لعله نشأ قبل ذلك من خوفها من أن يغرقها بفيضانه — كمواطن مصرىّ عرفت لماذا ، كلما اقترب موسم الفيضان — تعلقت أبصار الناس بمقاييس النهر فى أعالى النيل ، نحو الروصيرص والملكال ، ونشرت الصحف أنباء ارتفاع النهر فى هذين المقياسين وغيرهما . وقد يكون مقياس الروصيرص أهم هذه المقاييس فى فترة الفيضان ، ولكن مقياس الملكال هو المقياس الذى يظل صاحب الاعتبار الأول طوال العام، باعتباره مقياس النيل الأبيض الذى يمد مصر بالماء طول العام، وليس فى أوقات الفيضان فقط .

وهكذا كان اسم الملكال يتردد دائماً فى نفسى ، ويحتل مكاناً عزيزاً فى قلبى ، وكلما سمعت الاسم تشوقت لرؤية المكان ، وهأنذا أخيراً أرى نفسى

فى الملكال كما رأيت نفسى من قبل فى كل الأماكن التى تشوقت لرؤيتها . ورؤية أى مكان يحوله من نقطة مظلمة فى فكر الإنسان إلى نقطه مضيئة ومشرقة ، فإذا ذكرت الملكال بعد اليوم ، فلن يرتفع الضباب إلى خيالى وفكرى ، فقد انجاب هذا الضباب والغيوم وأصبحت الملكال[1] شيئاً واضح المعالم مرسوم الحدود ، لى فيه ذكريات وآراء وتعليقات .

والملكال بلغة الشلك معناها « حظيرة البقر » وقد اتخذ منها الرى المصرى أهم مراكزه فى أعالى النيل ، ثم جعل منها الإنجليز عاصمة مديرية أعالى النيل .

فى النادى المصرى

وكان طبيعيًّا أن أتجه صوب هذا التفتيش أو بالأحرى صوب النادى المصرى بمجرد أن رست السفينة على رصيف الملكال ، وهى أرصفة كبيرة وممتدة على مسافة طويلة من الشاطئ . ثم يصعد إلى البلدة بعدد كبير من الدرجات . وقد كسيت جدران الشاطئ المرتفع بالأحجار . سرت والشيخ الأمين داود رفيقى العزيز والذى يعرف طريقه إلى النادى المصرى فطالما عرج عليه أثناء رحلته إلى جوبا ، وسرنا فى طرقات معبدة على أحسن طراز بالأسفلت وقد أضاءتها الكهرباء وحفت بها الأشجار ، ومررنا فى طريقنا إلى النادى بمسجد الملكال الذى أنشأته مصر فى هذه البلدة ، وكأنها خافت على المسجد أن يذوب من شدة الأمطار ، أو لعلها تصورته سدًّا من السدود التى تقيمها على مجرى النيل لمقاومة الفيضان ، فاستوردت أحجاره كلها من الخرطوم ، وبنته على شكل قلعة حصينة ، أو على الأقل هذا هو الشعور الذى تحدثه فى النفس مئذنته المربعة الوطيدة الأركان .

وكان بقية من الموظفين المصريين فى حديقة النادى المضاءة بأنوار

(١) تقوم الملكال على بعد ٨٢٠ كيلو متراً من الخرطوم وعلى بعد ٥٠٠ كيلو متراً من كوستى وتبعد عن البحر الأبيض المتوسط ٣٨٣٢ كيلو متراً وتعلو عن سطح البحر ٣٨٢ متراً وهو مقدار الانحدار الذى ينحدره النيل فى هذه المسافة الطويلة حتى البحر .

(الفلوريسنت) ، يلعبون الورق ، وهؤلاء لم يكلفوا أنفسهم مؤونة الانقطاع ولو لحظة واحدة لمعرفة هذا المصرى الوافد على هذه البقاع النائية والذى يزورهم فى ناديهم ، ولم أتضايق من ذلك لأنى أعرف أن « الكيف لا يرحم » ومن حسن الحظ أن مدير الأعمال ومهندساً آخر كانا غير مشغولين باللعب ، ثم جاء شيخان جليلان[1] من الأزهر أحسنا استقبالنا وجىء لنا بشراب (الغازوزة) ، وعلى هذه الصورة تمت زيارة النادى المصرى بالملكال ، وعدت بعدها لقضاء ليلتى فى الرجاف .

جولة فى المدينة

وفى الصباح رافقنى الشيخ الكريم أبو فرحة مبعوث الأزهر ، فطاف بى أرجاء المدينة العامرة بالمتاجر ومنشئات الحكومة ، والأحياء السكنية للأهالى ، ولطالما طالعت وسمعت أن الملكال تغص بالعرايا من الرجال والنساء ، من أبناء الجنوب ، ولكن عينى لم تقع على عار واحد ، فلما أبديت هذه الملاحظة قيل لى إن هذا المظهر هو ثمرة التطور فى السنوات الأخيرة وإلا فقد كانت المدينة تغص بالفعل بالعرايا الوافدين والمقيمين فى المدينة نفسها .

وفى الملكال مثل ما فى كودوك وسائر مدن الجنوب ، حى يطلق عليه اسم حى الملكية يسكنه هولاء الجنود الرديف ممن كانوا فى الجيش المصرى قديماً ثم سرحوا ، ويمتاز هؤلاء الملكية بمستواهم الاجتماعى الراقى بالنسبة لإخوانهم واعتزازهم بالخدمة فى جيش وادى النيل .

تفتيش الرى

ولكن سيبقى تفتيش الرى المصرى هو محور حياة البلدة ومظهر أهميتها . ويناهز عدد الموظفين به من مصريين وسوادنيين ستين مهندساً وفنياً بخلاف مئات

(١) هذان الشيخان الجليلان هما محمد أبو فرحة وعبد العزيز عيسى .

العمال ، الذين لا يعملون فقط كما قد يتصور فى قياس تصريف ماء النهر ، ومراقبة ارتفاعاته وإرسالها إلى مصر يوميًّا ، وإنما يعملون منذ أمد بعيد فى مسح منطقة السدود ، ودراسة منابع النيل كلها دراسة وافية تمهيداً لإنشاء المشروعات اللازمة للاستفادة من مياه النيل ، وقد استطاع المصريون عن طريق هذه الجهود المتواصلة أن يسيطروا على النيل فى منطقة السدود بحيث يجعلون مجرى النيل صالحاً للملاحة . ويمكن أن يقال إن تفتيش الرى المصرى فى الملكال هو مدينة عصرية كاملة ، فثمة منازل متوفرة فيها كل أسباب الرفاهية والحضارة من مياه نقية وكهرباء وثلاجات ومراوح ، تحيط بها الحدائق الغناء الحافلة بالزهور والفواكه ، ويحيط بالمنطقة كلها ، أو بالأحرى تقع المنطقة كلها فى حديقة ضخمة من كبريات حدائق مصر والسودان .

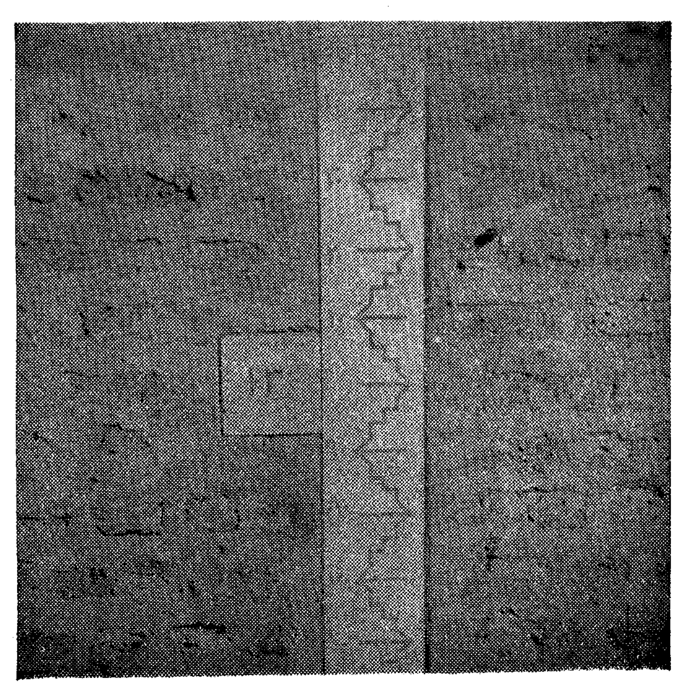
وفى التفتيش مصنع لإنتاج الثلج ، ومصانع وورش مجهزة بأحدث آلات الخراطة الكهربائية والمسابك وكل ما يحتاج إليه لإصلاح وإنشاء كثير من المهمات ، وصيانة السيارات والبواخر وإنشاء بعض (اللنشات) الصغيرة إذا لزم الأمر .

ويشمل التفتيش كذلك ساحات للألعاب الرياضية كالكرة والتنس ، وبه حوض للسباحة .

المقياس

وكان طبيعيًّا بعد أن طوفت بأرجاء التفتيش وزرت ورشه ومصانعه أن أطلب رؤية المقياس الشهير ، فأخذونى إليه ، فكان على خلاف ما أتصور فهو لا يتألف من عمود واحد ، وإنما يتألف من عديد من اللوحات الرخامية طول كل منها متر وقد أعدت لها مدرجات خاصة بطول ارتفاع الشاطئ . وإذا كان الإنسان — إن نزل إلى القاهرة وزار الأهرام — يحس بأنه رأى أهم معالمها ، فإنى لم

أكد أفرغ من رؤية المقياس وزيارته حتى شعرت بأننى رأيت أهم ما فى الملكال ولم يبق على إلا أن أغادرها .



صورة لوحة رخامية من المقياس

تاجوج

وتحركت الرجاف مخلفة وراءها الملكال ، ولكننا لم نكد نبرح الميناء حتى وقفنا على بعد قليل منه على الشاطئ المقابل ، فى انتظار وصول باخرة من الجنوب اسمها « ناصر » ويتعين علينا أن نسمح لها بالمرور أولا ، والناصر كالرجاف تسوق أمامها وإلى جانبها عديداً من الصنادل واللنشات .

وبينما كنا واقفين فى انتظار عبور الناصر ، استرعى نظرى وجود سفينتين أخريين فى الميناء أطلق على إحداهما اسم « الحرية » وهى تسمية طبيعية جداً

بعد استقلال السودان ، ولكن الاسم الطريف هنا والجدير بالتسجيل فى هذه المذكرات هو اسم السفينة الأخرى وهو «تاجوج » ، ولقد سألت عن معنى تاجوج فإذا بى أفاجأ بأجمل قصة إنسانية وإذا بى أرى من واجبى أن أهنئ هذا الذى فكر فى إطلاق هذا الاسم على إحدى سفن نهر النيل ، فليست تاجوج إلا اسم أجمل امرأة فى حياة السودان ، وهى من قبيلة الحمران من شرقى السودان ، وقد خلد جمالها وأشهر اسمها زوجها الذى جن بحبها ولم يكن له من سبيل إليها بعد أن افترقا بالطلاق ، فراح ينشد فيها الأشعار ويبثها جواه ، ويتغزل فى محاسنها ، ويشبب بوصفها ، حتى فتن السودانيين جميعاً بجمالها ، وقصتهما كقصة قيس وليلى ، فاختيار تاجوج عروس السودان ، لتكون علماً على سفينة نيلية هو اختيار موفق ، فلطالما كانت العرائس تزف إلى النيل فى القديم.

الساعة السادسة مساء

نهر السوباط

أفرأيت الفارق بين أن ترى صورة المرء الفوتوغرافية ، وأن تقابله وتعيش معه وتتفاعل مع عواطفه ؟! فكذلك الفارق بين النهر تراه خطاً مرسوماً على الخريطة ، أو تسمع باسمه ، وبين أن تراه رأى العين ، وترى مياهه تنساب فى غزارة وجزالة لتصب فى النيل الأبيض وتمده بالحيوية . ترى ماذا كان يساوى النيل الأبيض لو لم يمده السوباط بمياهه الغزيرة التى تأتى محملة بالطمى الثمين من جبال الحبشة[1] ؟

ولست أعرف لماذا أحسست بخشوع ونحن نقترب من ملتقى السوباط بالنيل الأبيض ، لست أعرف لماذا ملأنى الروع وغمرت بشعور غامض .

(١) يشرع نهر السوباط فى الفيضان ابتداء من شهر يونيو فيرتفع تصريفه إلى ٢٤٠ متراً مكعباً فى الثانية ويظل يأخذ فى الزيادة حتى يصل إلى ذروته فى شهر نوفمبر إذ يبلغ تصريفه ٧٦٢ متراً مكعباً فى الثانية .

إن نهر السوباط لم يكن سوى مجرى مائى شبيه بهذا المجرى الذى نسير فيه منذ أيام ، ومع ذلك فإن مجرد التقاءه بالنيل الأبيض ووقوع بصرى على مكان اللقاء قد أحدث فى نفسى التأثير الذى تحدثه فى نفوسنا الأحداث الجسام .

لم يكن عبثاً ولا هو مجرد صدفة أن تنحدر مياه الجبال الحبشية لتلاقى النيل فى هذا المكان تحت اسم السوباط ، ولتلتقى بها مرة ثانية عند الخرطوم تحت اسم النيل الأزرق، ومرة ثالثة فى الشمال تحت اسم العطبرة ، لا ، إن ذلك لم يكن عبثاً ولا صدفة ، وإنما هو لشىء يراد ، وليس هذا الشىء إلا خلق هذا الشعب الفذ شعب وادى النيل ، الذى أمد العالم فى القديم بالحضارة والمدنية ، والذى يوشك اليوم بعد أن تحرر شماله وجنوبه من ربقة الاستعمار أن يلعب دوره من جديد فى تاريخ البشر ، فيتعاون على تحرير ما بقى من الشعوب ويحمل لواء السلام والأخوة البشرية . وظللت أراقب السوباط ونحن نقترب منه خطوة فخطوة وشبراً فشبراً ، لقد قطع رحلة طويلة قبل أن يصل إلى هذا اللقاء دون أن يبدو عليه التعب أو الكلل ، لقد كان ماؤه الوافر ينساب فى رشاقة ويمتزج بماء النيل فى غير عنف ، فلا يزال أمامه أسابيع ثلاثة قبل أن يفور بمياه الفيضان حيث تطغى مياهه على ماء النيل الأبيض فيحجزها ريثما ينطلق بمياهه نحو الشمال . . . نحو الخرطوم وحلفا وأسوان فالقاهرة ورشيد .

نحو بحر الغزال

تركنا السوباط ، ومنذ بضع ساعات ونحن ننساب على ظهر الماء فى حركتنا الرتيبة الهادئة ، ومجرى النهر يضيق حيناً بسبب الجزائر ، ويتسع حيناً آخر ، ولكنه بصفة عامة قد أصبح الآن أكثر ضيقاً بحيث لا يزيد فى المتوسط على مائتى متر . وما فتئ الجرنتى يطل برأسه من حين لآخر على سطح الماء أفراداً وجماعات ، وما زالت التماسيح تدلف إلى الماء كلما اقتربت منها الرجاف ، وتشير الخرائط التفصيلية الموضوعة على ظهر السفينة ، أننا نمر الآن فى منطقة

غابات قد أعدت لتكون بمثابة مخزن ومستودع أو بالأحرى مربى للحيوانات المفترسة ، وذلك بمنع الصيد فيها ، ولا بد أن خلف هذه الأشجار والحشائش مئات وألوف من الغزلان والأسود والضباع والأفيال والزراف والجاموس والقرود ، ولكن العين لم تقع على شيء من ذلك حتى الآن ، وليس سوى رجال القبائل من الدنكا يظهرون بجلودهم الأبنوسية من حين لآخر ، ليؤكدوا لنا هم وقطعان أبقارهم الكثيرة ، أن النيل لا يمكن أن يمر فى مكان دون أن يخلف فيه الحياة .

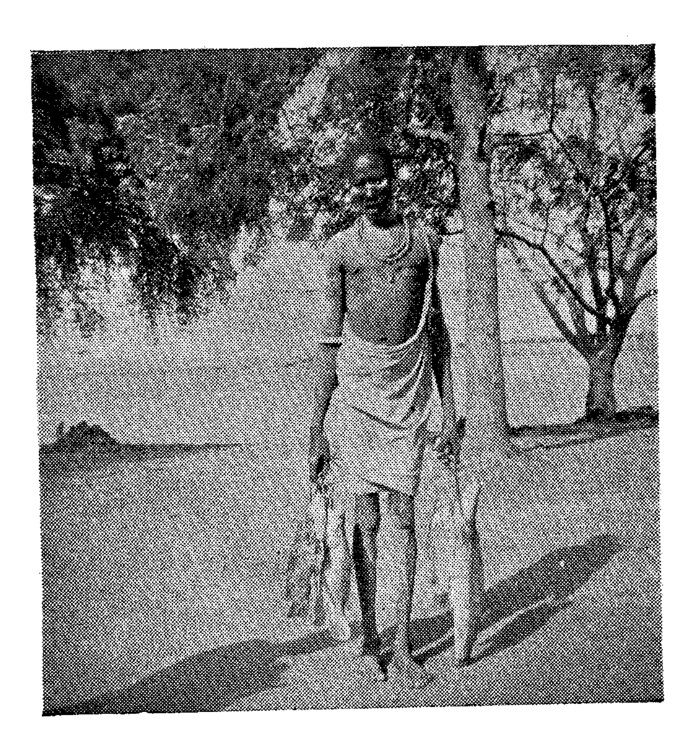
ولقد تغير الآن سير الرجاف ، وبعد أن كنا نسير من الشمال إلى الجنوب أصبح سيرنا من الشرق إلى الغرب ، فنحن الآن فى طريقنا لمقابلة بحر الغزال أو بالأحرى بحيرة نو حيث يصب بحر الغزال .

والجو لطيف على خلاف ما كنت أتوقع ، ويرخى الليل سدوله من حولنا ، ومع ذلك فلا تزال قرى الدنكا ترسل الضوء على كلا الشاطئين متحدثة عن الحياة . وترتفع بعض النيران التى يشعلها رجال الدنكا ، لترد بدخانها الناموس الذى يزعج البقر وأصحاب البقر ، على أننا من حين لآخر نرى الحرائق الضخمة تجتاح القش اجتياحاً .

النوير

على أن هذه القبائل الساكنة فى هذه المناطق لم تعد من الدنكا بل من النوير فقد دخلنا فى منطقتهم ، والنوير هم القبيلة الثانية فى كثرة العدد بعد الدنكا إذ يبلغ عددهم ٢٥٠ ألفاً ، وليس يعرف السبب الذى جعل هذه القبيلة تظهر فجأة بشخصيتها المستقلة فى القرن التاسع عشر فتقتطع جزءاً كبيراً من أراضى الدنكا وتسوق نصيباً ضخماً من قطعانهم ، ونسائهم ، ويظهرون بهذا المظهر من السيادة والامتياز والعجرفة على باقى القبائل الأخرى . إن لغتهم شديدة القرب بلغة الدنكا ، وحياتهم الاجتماعية الديمقراطية كحياة الدنكا ، ومع ذلك فهم ليسوا من الدنكا ، إنهم النوير الذين برزوا بشخصيتهم

على الدنكا ، بل على كل قبائل السودان بشجاعتهم وقوة احتمال أجسادهم وروحهم الفكاهية المرحة .



أحد الشلك من سكان الملكال يحمل سمكاً يطلق عليه اسم العجل لضخامته

ملك الشلك من جديد

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر ، فإن حديث النوير يذكرنى بما قلته لك عن مقابلتنا بالأمس لملك الشلك فى كودوك ، فقد حصلت فى الملكال على معلومات طريفة عن هذا الملك السعيد أراها جديرة بالتسجيل ، فإن من تقاليد الشلك أن لا يموت ملكهم حتف أنفه أبداً لأن ذلك يحمل فى طياته الشؤم

على القبيلة كلها ، ولذلك فإن الملك يجب أن يقتل قتلا . فإذا حضرته سكرات الموت فإن نساءه الكثيرات أو بالأحرى بعضهن يسرعن بكسر رقبته ، ليسبقن الموت الطبيعى بالقتل إنقاذاً للقبيلة من شؤم هذا الحادث . وفى رواية أخرى — لعلها أقرب للصحة — أن المرشح الجديد للملك هو الذى يجب أن يدخل على الملك المريض ليقوم بالإجهاز عليه ، وبدون ذلك لا يستحق أن يلى الملك ، وعلى الرغم من الخلاف فيمن يقوم بعملية الإجهاز على الملك المريض ، فقد اتفقت الروايتان على ضرورة قتل الملك . ومن أجل ذلك فملك الشلك لا يشكو أبداً من أعراض أى مرض ، ويجب أن يكون فى صحة جيدة باستمرار وأن يخرج كل يوم على رعاياه سليماً معافى ، والويل له إذا اشتكى أو مرض فقد يقرر أطباء القبيلة من السحرة أن الساعة قد حانت لوضع حد لحكم جلالته ولحياته معاً . ولذلك فإن بعض الشلك إذا ما أصيبوا بمرض وعجزوا عن مقاومته سريعاً ، فإنهم يختفون عن الأبصار ريثما يشفون من مرضهم ، ولكنهم إذا عادوا للظهور بعد ذلك فإن ذلك يكون بعد فوات الوقت ، لأن الاختفاء مهما كان قصيراً قد هيأ السبيل لقيام الملك الجديد لأن الشلك لا يمكن أن يعيشوا يوماً واحداً بدون ملك قوى صحيح معافى لا يعرف المرض إليه سبيلا[1] .

وقد جعلتنى هذه المعلومات أذكر الصورة الغريبة التى رأيت عليها ملك الشلك وهو جالس فى مكانه فى ذلك المخزن التجارى . لقد كانت نظرته ساهمة وعلائم الحمى تشيع على وجهه بالرغم من جلوسه منتصب القامة ، وقد حدثنى جوردون وهو الوحيد الذى تمكن من مصافحته أن يده كانت ساخنة جدًّا ، ولكن صاحب الجلالة لا وقت عنده ولا يجوز عليه المرض ، فالمرض عندى وعندك قد لا يكلفنا أكثر من تناول قرص من الأسبرين ، أو جرعة دواء ، أو ملازمة الفراش بضعة أيام ، أما صديقنا صاحب الجلالة فإعلان المرض قد يكلفه لى

(١) قد يزيد نساء ملك الشلوك عن خمسين أو ستين زوجة .

عنقه ، أو إغماد خنجر فى صدره ، أو كتم أنفاسه ، فتصعد روحه إلى خالقها تشكو إليه من ظلم الشلك الذين لا يسمحون لملوكهم بنعمة المرض فى سلام[1] .

بيض التمساح

على أن القصة الطريفة والجديرة بالتسجيل حقًّا خاصة ببيض التمساح . فعلى الرغم من أن التمساح له أداة تناسلية كبيرة على ما قيل لى ، مما يجعل أنثاه أقرب إلى الحيوانات فى حملها منها إلى طيور والأسماك ، فإنها تنجب ذراريها فى هذه الحياة الدنيا من خلال بيض تضعه فى حفرة من الرمال ، ثم لا تلبث بعد فترة من الزمن أن تنبش هذه الرمال فيفقس البيض وتخرج منها الذرارى الوفيرة العدد لترفع رأس التماسيح عالياً فى عالم الزواحف والحيوانات والأسماك . وليس هذا هو موطن الشاهد فى رواية هذه القصة ولا هو موضع الطرافة ، وإنما الطريف ، أن صديقنا الأمين داود قد نزل إلى السوق فى كودوك ليشترى بيضاً ليأكله . فقدم له البائع بيضاً كبيراً اغتبط الشيخ الأمين بحجمه ورخص ثمنه ، ثم عن له أن يسأل : أهو بيض دجاج أم بيض بط وأوز ؟ فقال له البائع محتجًّا : إنه بيض تمساح يا سيدى . وكاد صاحبنا يسقط مغشيًّا عليه من هول الصدمة ، لولا أنه راح يضحك ويضحك ليسرى عن أعصابه ، وقد تمثل نفسه ، وقد أعد السمن ليقلى البيض ثم شرع فى تكسيره فإذا بتماسيح صغيرة تقفز من هذا البيض وتنساب فى أرجاء الحجرة وتملأ حجره وتدخل فى كمه .

وعدنا نقص القصة على إخواننا فى السفينة ونحن نضحك ونظهر العجب والدهشة من أن يكون هناك إنسان يأكل بيض التماسيح ، فإذا أخونا الدكتور عبد القادر المشرف على صيدلية مستشفى جوبا يسخر من جهلنا ، ويسفه خفة أحلامنا ، فليس فى القصة أى موضع للعجب أو الدهشة ، فبيض التمساح

---

(١) اسم ملك الشلك الحالى هو كور فافيتى وكان اسم أبيه فافيتى وهو أول ملك فى تاريخ الشلك يموت موتاً طبيعياً ذلك أن الحكومة بدأت تتدخل فى الموضوع وتعين حراساً لحمايته .

هو من ألذ أصناف البيض ، ولحمه كأجود لحوم الأسماك وأشهاها . ولقد استطاع خيالى أن يتصور أكل لحم التمساح أما بيض التمساح فهذه الفكرة وإصرار الدكتور عبد القادر عليها جعل الطعام يتحرك فى معدتى ورجوت محدثنا الكريم أن يكف عن وصف لذه طعم عجة بيض التماسيح .



المؤلف على ظهر الرجاف أثناء وقوفها فى ملكال

٦

الجمعة ٦ أبريل

. . . وقد حكم الإنجليز السودان الجنوبى نيفاً وخمسين سنة على سبيل الانفراد والاستقلال ، والاستعمار قد جاء لهذه البلاد كى يستغلها ويستثمرها وينتفع بثمراتها فما الذى فعله علماؤهم أو استخرجوه من هذا البردى . . . ما الذى أفاده رأسماليوهم من هذه الحقول اللانهائية . . .

الساعة ١٠ صباحاً

بحر الجبل

يوم جديد وفجر جديد وشروق جديد يطلع علينا واسم النيل الأبيض يودعنا ليفسح مكانه لاسم بحر الجبل . وهكذا تتجلى نسبية الأمور . فالنيل الأبيض ينتهى بالنسبة لنا عند هذه المرحلة ليبدأ بحر الجبل ، مع أن الحق أن يقال إن بحر الجبل ينتهى فى هذه المرحلة حيث يبدأ النيل الأبيض ، ولكن ما دمنا نسير الآن فى عكس اتجاه النيل فإن البداية بالنسبة لنا نهاية . وعلى هذه الصورة تتعقد الأمور بين الناس ، لأن كل شخص إنما ينظر للمسألة من زاويته الخاصة ومن وجهة نظره ، فى حين يكون هناك دائماً طرف آخر ينظر للمسألة من زاوية أخرى تتفق مع وجهة نظره ، ويصطرع الرأيان ويتمسك كل بنظرته ويؤكد للآخر أن الحق هو ما يرى ، ولو تعمق الاثنان قليلا ، لوجدا أن الحقيقة مسألة نسبية تتغير بتغير الاتجاه الذى يُنْظَر إليها منه وشخصية الناظر . على أية حال حسبنا هذا القدر من البحث الفلسفى فلست أظن أن معدتى مستعدة لهضمه ولنأخذ الأمور بغير تعقيد . لقد وصلنا إلى بحيرة « نو » حيث

يصب بحر الغزال فى غربها وينشأ النيل الأبيض من شمالها ، وهو ليس فى حقيقته سوى بحر الجبل الذى يمس البحيرة فى جريانه من الجنوب إلى الشمال .

وهكذا لم نكد نفرغ من السوباط ، حتى كان بحر الغزال ، وإذا كان السوباط يمد النيل من الشرق ، فإن بحر السوباط يمده من الغرب . وقد يكون نهر السوباط أهم من بحر الغزال من حيث كمية الماء التى يمد بها النيل[1] ولكن قليلين فى مصر من يعرفون نهر السوباط ، بالنسبة للذين يعرفون بحر الغزال ، ومديرية بحر الغزال . وكثيرون من المصريين هم الذين عاشوا فى بحر الغزال ، وتزوجوا من بحر الغزال ، وقد لا يتمثل جنوب السودان بكل ثروته الحيوانية والنباتية كما يتمثل فى منطقة بحر الغزال ، وقد حرص الإنجليز كما هو دأبهم ، على هدم الذكريات المصرية فى السودان ، ولذلك فقد ألغوا فى بدء الأمر مديرية بحر الغزال ، وضموها إل مديرية منجلا وأطلقوا على الاثنين معاً اسم المدير ية الاستوائية وجعلوا العاصمة مدينة جوبا ، ليساعد التقسيم الجديد على الإعفاء على آثار الماضى وهدم مدينة « واو » كعاصمة مديرية بحر الغزال ، ولكنهم لم يلبثوا أن أدركوا استحالة الإشراف على هذه المساحة الضخمة من السودان فى مديرية واحدة فأعادوا التقسيم الإدارى القديم إلى سابق عهده . ولقد كان يشوقنى من غير شك أن أزور مديرية بحر الغزال ، وأن أصل إلى مدينة « واو » وأشهد هذه المنطقة التى يطلق عليها أرض الأنهار لكثرة ما فيها من أنهار ومجار للمياه تفوق الحصر ، ولكن السفر إليها عن طريق النهر متعذر إلا فى أوقات الفيضان .

منطقة السدود أو المستنقعات

ومنذ ساعات وقد خلفنا وراءنا بحر الغزال وبحيرة « نو » ، وعدنا من جديد

---

(١) لا يتجاوز مقدار ما يمد بحر الغزال النيل به من المياه عشرين متراً مكعباً فى الثانية وهو قدر ضئيل جداً لا يكاد يذكر .

نسير نحو الجنوب بدلا من الاتجاه صوب الغرب ، ونحن نسير الآن فى بحر الجبل ، وهأنذا أخيراً فى منطقة السدود الشهيرة التى طال ترقبى لها .

وما أعظم الفارق بين ما كنت أتصور عليه هذه المنطقة ، مما جمعته من معلوماتى العامة ومطالعاتى ، وبين ما أراه الآن يحيط بى . لقد طالعت أن منطقة السدود هذه هى التى وقفت حاجزاً طبيعيًّا بين الشماليين وبين الوصول إلى منابع النيل ، لقد كانت هى العقبة الكأداء التى تحطمت عليها كل محاولات المستكشفين فى العصر الحديث لمواصلة السير فى مجرى النيل ، ذلك أن مجرى النهر يختفى فى هذه المنطقة ولا يعود السائر خلال النيل يرى إلا حواجز أو سدوداً من نبات البردى ومن القش تحول بينه وبين المضى إلى الأمام ، فإذا وجد فرجة أو ثغرة وسط هذه الأعشاب ، لم توصله إلا لمستنقع آخر مغطى بدوره بنبات البردى وبالقش ، ويظل الراغب فى التقدم يجاهد ويجاهد ويتغلب على العقبات ولكن السبل تتفرق به ويتيه فى هذه البيداء التى لا أول لها ولا آخر من نبات البردى . هذه هى الصورة المرتسمة فى ذهنى عن منطقة السدود والمستنقعات ، ومنذ بدأنا رحلتنا بالباخرة الرجاف وأنا شديد الشوق لرؤية منطقة السدود ، وأنا شديد الإشفاق منها فى نفس الوقت ، فإن كلمة المستنقعات ملأت رأسى بصور جحافل البعوض والحشرات وهى تخيم على سماء المنطقة كأنها الغيوم أو السحب ، وكنت أتصور الماء راكداً آسنا تفوح منه روائح العطن ، وهأنذا فى منطقة السدود أخيراً ، وكأننى لم أنتقل من بيئة إلى أخرى ، فالمنظر فى مجموعه لم يتغير فى قليل أو كثير عما سبق فى الأيام الماضية ، حقًّا إن مجرى النيل أو بالأحرى بحر الجبل ، قد أصبح الآن ضيقاً لا يتجاوز عرضه أربعين أو خمسين متراً وقد يضيق عن ذلك فى أكثر الأحيان ، ولكن مجرى النيل لا يزال واضحاً ، فتيار الماء يسير نحو الشمال فى وضوح والشاطئان على الجانبين محددان أكمل تحديد ، ونباتات البردى تكسوهما وكأن يد الصناع الماهر قد حفتهما وشذبتهما كأى سور من أسوار الحدائق المصنوع من الزرع ، والجو

لطيف كل اللطف عن الأيام السابقة فقد زال هذا الحر الشديد ، ولا يوجد فى الجو أى أثر لبعوضة أو حشرة . وأروح أسائل كل من فى المركب وخاصة دائرة معلوماتى السيد عبد الرحيم عربى : أهذه هى منطقة السدود والمستنقعات ؟ فيقولون : أجل، لقد بدأت منذ عدة ساعات، ومالى إذن لا أرى سدوداً ولا مستنقعات وإنما طريق مفتوح وسط شاطئين ؟! وأنكب على الخرائط أدرسها فإذا بها تؤكد أننا فى صميم منطقة السدود .

نبات البردى

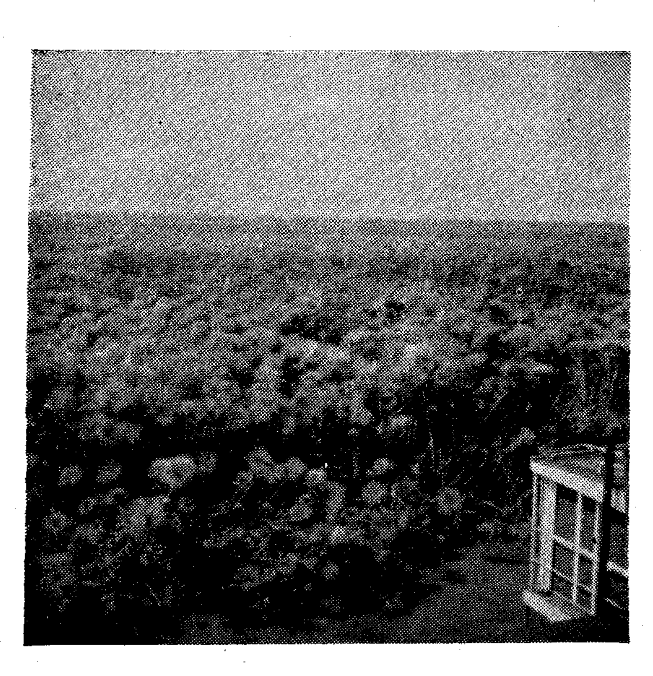
وكان نبات البردى هو الشيء الوحيد الذى طابق ما سمعت عنه من حيث كثرته التى لا حد لها ، لا من حيث شكله وهيئته ، إن عينى لتقع الآن على بحار من هذا البردى بعد أن كدت أيأس من رؤيته بهذه الغزارة ، وكدت أكذب ما طالعته من وجوده بكثرة ساحقة فى أعالى النيل . لقد كنت شديد اللهفة على رؤية هذا النبات ، فلم أكد أرى بضع شجيرات منه لدى أول محطة وقفنا فيها حتى استخفنى الفرح ، كما لو كنت اكتشفت شيئاً جديداً لم يسبقنى إليه إنسان ، ورحت أمنى نفسى ، بأن أرى نبات البردى وهو يتكاثر ويزداد على مر الساعات والأيام ، ولكن الذى حدث ، هو أننى لم أكن أراه إلا لماماً وسط الأعشاب النامية هنا أو هناك ، حتى كدت أجزم بأن ما قيل عن حقول البردى هو حديث خرافة ، ولكن الخرافة الآن قد تحولت إلى يقين ، فها هوذا البردى إلى اليمين والشمال لا يكاد الطرف يحد آخره ، وها هوذا بمنظره الأخضر الجميل الفتان يحدث فى النفس الأثر السحرى الذى كنت أرجوه وإذا كانت هذه الآفاق من البردى تقوم الآن على أرض جافة[1] ، فليس ذلك إلا لأننا فى موسم الجفاف ، وإن هى إلا أيام حتى يبدأ موسم الأمطار التى بدأت بالفعل منذ أيام فى الجنوب ، فإذا علمت أن الأمطار تستمر

(١) لاحظ خطأ هذا التصور فى الفصل التالى .

بعد ذلك طوال تسعة أشهر بغير انقطاع ، حيث يفيض النيل وتفيض كل مجارى الأنهار والأخوار ، وحسب الماء أن يرتفع بضع سنتيمترات فقط لكى يغطى كل هذه المساحات الشاسعة التى لا يحدها طرفى من نبات البردى أو زهرة الباشنين على ما أسماه الفراعنة .

زهرة الباشنين

و إنى أميل الآن إلى تسمية البردى بزهرة الباشنين فالحق أن منظره إلى الزهور أقرب ، من حيث تناسقه والبهجة التى يثيرها مرآه فى النفس . وصدق الفراعنة إذ اتخذوا صورته وسيلة ليزينوا بها جدران قصورهم ومعابدهم ، فإن منظره جميل فاتن ، وكم أشتهى الآن لو أستطيع أن أقتنى منه بعض الأعواد لأشرك الآخرين فى الاستمتاع بمنظره .



نبات البردى وقد وقفت الرجاف إلى جواره

ولست أعرف أى شيطان جعلنى أتصور دائماً نبات البردى على صورة هذه الأوراق الخضراء الكبيرة التى نراها طافية على وجه الماء فى بعض الحدائق العامة عندنا فى القاهرة وخاصة فى حديقة الحيوان ، لا شك أن كلمة مستنقعات هى التى أوحت إلى رأسى صورة هذه الأوراق الخضراء العريضة التى تطفو على سطح الماء، مع أن نبات البردى أبعد ما يكون عن هذه الصورة فها هو ذا أمامى بجلاء ووضوح لا أكاد أسأم من النظر إليه ، بل لقد سمر نظرى عليه فلا أكاد أستطيع أن أحوله عنه إلا بصعوبة . وأحسب أن ذلك يرجع إلى اتساق خطوطه وتكوينه ، فهو يتألف من ساق رفيعة وطويلة كأنها قطعة خيزران خضراء وفى نهايتها تنبثق هذه الفروع [1] الرفيعة الخضراء مؤلفة فيما بينها كأساً أو مروحة أو هالة حسب تلاعب الهواء بها، وهى فى مجموعها أشبه بنخلة البلح وقد تبدو النخلة أحياناً غير متناسقة إذا أفرط طولها وقلت أغصانها، أما زهرة الباشنين فقد خلت من هذا الاضطراب فى التناسق ، فهى موسيقى للعين . وامتدت أمامى إلى مالا نهاية ملايين وملايين من نبات البردى وكلها فى طول واحد حتى ليخيل للإنسان أنه يستطيع أن يمشى على رؤوسها وكأنها البساط ، وتيجانها متعانقة متلاصق بعضها ببعض، متمايلة مائسة تسحر اللب وتؤثر فى النفس تأثيراً عميقاً .

ولست أعرف كنه هذه الخصلة التى تقع فى نهاية ساق البردى أيسميها علماء النبات أوراقا أم فروعاً فهى مستطيلة رفيعة كأنها السياط ويظهر أنها إلى الأوراق أقرب ، على أننى أترك هذه القضية الفنية لعلماء النبات؛ وليعذرنى القارئ إذا كنت قد أثقلت عليه بالحديث عن نبات البردى ، فإننى أعيش الآن معه منذ بضع ساعات ، وسنظل نعيش معه خلال أيام أربعة بلياليها وشروقها وغروبها ، لا جليس لنا ولا أنيس إلا هذه الأمواج والطوفان من نبات البردى .

---

(١) قد يصل ارتفاع نبات البردى إلى ١٥ قدماً ، وارتفاع أوراقه التى يتألف منها تاجه قدماً واحدة .

لماذا لم يستغل ؟

ولأمر ما استطاع المصريون القدامى أن يدركوا من أسرار البردي ما لا ندرك، فهم لم يقفوا عند حد الإعجاب بجمال خلقته وتناسقه بحيث راحوا يحاون بصورته جدران قصورهم ، ويبنون تيجان الأعمدة الضخمة على هيئته ، بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك فصنعوا منه ورقاً وحبالا ومواد أخرى لم يصل إلينا خبرها ، وإن كان من المحقق أنهم انتفعوا به انتفاعات شتى وكان يحتل مقاماً ممتازاً فى عالم الصناعة .

ولعل شهرة ورق البردى الذى أخرجه المصريون من هذا النبات تغنى بنفسها عن كل حديث . لقد استطاع المصريون أن يبدعوا من هذا النبات ورقاً خطوا عليه كتبهم وقوانينهم وقصصهم وتاريخهم ومراسيمهم ، فوصلت إلينا عبر القرون ، ولعل أثمن تراث تملكه البشرية وتفاخر متاحف العالم باكتنازها شيئاً منه ، هو أوراق البردى التى لا تزال بعد أربعة آلاف وخمسة آلاف سنة مقروءة ومفهومة بما تضمنته من علوم أو آداب وفنون جادت بها قريحة الإنسان فى هذا العصر السحيق .

وإنى لأتساءل : هل باستطاعة العالم الحديث بكل علومه وفنونه فى الكيمياء وفى الصناعة والعلوم الطبيعية ، أن يصنع ورقاً يقاوم البلى آلاف السنين كأوراق البردى ؟ . . . من المؤسف أنه لو صنع هذا الورق بالفعل فلن يوجد فينا من يستطيع الفصل فى هذه القضية ، بل يجب انتظار خمسة آلاف أخرى من السنين حتى يمكن أن يقال إن العالم فى القرن العشرين قد صنع ورقاً عاش كما عاش ورق قدماء المصريين .

الإنجليز . . . الإنجليز

وقد حكم الإنجليز السودان الجنوبى نيفاً وخمسين سنة على سبيل الانفراد والاستقلال ، والاستعمار قد جاء لهذه البلاد كى يستغلها ويستثمرها وينتفع بثمراتها ، فما الذى فعله علماؤهم أو استخرجوه من هذا البردى ؟ ما الذى أفاده رأسماليوهم من هذه الحقول اللانهائية التى تنمو بدون جهد أو إشراف أو مراقبة من أى إنسان كان ! ما الذى فعلوه لاستغلال هذه الثروة الزاخرة ، إنهم لم يصنعوا شيئاً ، إلا أن تركوا قبائل الدنكا والنوير تشعل النيران فيها فى فصول الجفاف لتظل النيران ترعى أياماً وليالى حتى تبيد مساحات واسعة من هذه النباتات .

لقد كدت أصدق الإنجليز وأنا أطالع تقاريرهم عن السودان ومشكلات السودان وتعذر استغلال موارد السودان ، أما الآن وأنا أنظر إلى هذا المحيط اللانهائى من نبات البردى ، فأشهد أن الإنجليز قد قصروا وقصروا عن عمد وإصرار [1] . . .

قناة جونجلى

والآن وقد أصبحت فى منطقة السدود فقد استحضرت كل ما طالعت وكل ما قيل لى عن مشروع قناة السدود وما سيترتب على هذا المشروع من زيادة ثلاثة عشر مليارا على الأقل فى كمية مياه النيل الأبيض وخلق ملايين الأفدنة الصالحة للزراعة والتى تزرع بما المطر أى بدون حاجة لاستعمال قطرة واحدة

---

(١) كان الألمان قد أنشأوا بالفعل قبل الحرب العالمية الأولى مصنعاً عند بحيرة «نو» لاستغلال نبات البردى واستخراج الورق والحبال ومنتجات أخرى ، ولكن الحرب لم تكد تشتعل حتى قبض الإنجليز على الألمان العاملين فى هذا المصنع وأوقفوا العمل فيه ولا تزال أطلال هذا المصنع قائمة حتى الآن .

من ماء النيل . ولقد أتيح لى أن أسمع شرحاً وافياً ومبسطاً عن مشروع القناة هذه من فم أعظم خبير فى مياه النيل ومشروعات الرى وهو السير مردوخ مكدونالد . فماء النيل يتبدد فى هذه المنطقة بحيث يضيع أكثر من نصف مياهه فى هذه المستنقعات تقريباً ، وفى بعض السنوات عندما يرتفع الفيضان فإن مقدار الضائع يزيد عن النصف بكثير جداً[1] ، وهذا الفقدان للماء هو نتيجة البخر لانتشار الماء فى منطقة واسعة جداً تقدر بألوف من الأميال المربعة ، ومن هنا نشأ التفكير فى تعميق مجرى النيل بحيث يصبح مصرفاً لهذه المياه وحافظاً لها من الضياع ، ولكن رؤى أخيراً بعد تردد بين عدة مشروعات أن الأنسب هو حفر قناة جديدة تسمى قناة جونجلى نسبة إلى اسم البلد الذى ستبدأ منه وتسير بطريق مستقيم بعيداً عن منطقة السدود وفى شرقها بحيث تتصل ببحر الجبل من جديد قبيل التقائه بنهر السوباط ، ويبلغ طول هذه القناة ٢٨٠ كيلومتراً تقريباً واتساعها ١٢٠ متراً وعمقها خمسة أمتار وبهذه المساحة تكون هذه القناة قادرة على تصريف ٥٥ مليون متر مكعب من الماء يومياً . على أن ضمان انتظام توفير هذا القدر من الماء ، يتطلب إنشاء خزان عند بحيرة ألبرت نيانزا وهى صالحة لخزن كميات ضخمة من الماء . وبواسطة هذين المشروعين : تحويل بحيرة ألبرت إلى خزان وإنشاء قناة جونجلى يزيد إيراد النهر زيادة عظيمة جداً ، تتراوح بين ثلاثة عشر ملياراً وسبعة عشر ملياراً وذلك بحسب الموقع الذى ستحسب فيه الكمية وهل هى فى النيل الأبيض أو عند الخرطوم أو شمال ذلك لأن البخر دائماً يتقاضى كميات ضخمة من الماء . وإلى جوار هذه الزيادة الكبيرة من الماء ، فسوف تجف أرض السدود والمستنقعات وتتحول إلى أرض زراعية ، وهى تقدر بأكثر من عشرة ملايين فدان ، وصفها لى السير مردوخ مكدونالد بأنها

---

(١) يبلغ متوسط تصريف النهر عند بلدة منجلا جنوب السدود ٩٥٢ متراً مكعباً فى الثانية ، ويبلغ متوسط تصريف النهر عند نهاية بحر الجبل والزراف ٤٥٥ متراً مكعباً فى الثانية أى دون النصف .

ستكون من أجود الأراضى الزراعية فى العالم ، وأنا لست خبيراً فى الزراعة ، ولكن مجرد النظر إلى ما يحيط بى الآن وأنا سائر وسط النهر ، يؤكد لى بالفعل أنها ستكون من أجود الأراضى الزراعية ، أوَ ليست تنبت كل هذا القدر من نباتات البردى المتكاثفة ؟ ! فأى شىء لا تستطيع إنتاجة بعد ذلك ابتداء من القطن والأرز والذرة والسمسم والفول السودانى حتى الفواكه والزهور والنباتات الطبية .

وحدة مصر والسودان

وقد جعلنى ذلك أفكر من جديد فى تكامل مصر والسودان اقتصاديًّا . إن السودان فخور باستقلاله ومعتز به ، ونحن الذين نؤمن بوحدة الإنسانية كلها فضلا عن الوحدة العربية ووحدة وادى النيل ، نحن الذين تطورت أفكارنا بحيث أصبحنا نؤمن إيماناً عميقاً بأنه لا سبيل لرفع مستوى مئات الملايين من البشر التى تعيش الآن فى الفقر والمسغبة والتخلف إلا إذا تم التعاون بين البشر على أساس التضامن والتكافل، لا نريد أن نعكر على السودانيين اعتزازهم باستقلالهم ، لا نريد أن نصدع رؤوسهم بالحديث عن وحدة وادى النيل ، لئلا نتهم بالرغبة فى الدعاية لاستعلاء مصر أو استغلالها للسودان . لا فليعش السودان حرًّا مستقلا ما شاء أن يمعن فى الاستقلال ، ولكن هل أستطيع أن أغالب نفسى من التحسر على الفرص والثروات والإمكانيات التى ستضيع على السودان وعلى مصر بسبب صيرورة كل من البلدين مستقلا عن الآخر ، يحاول أن يتطور بنفسه وأن ينمى موارده بعيداً عن الآخر ، هل يمكن أن لا أستخرج العبرة من موضوع مشروع السدود بالذات . إن مصر المستقلة التى تريد المحافظة على نفسها واستيفاء موارد الماء داخل حدودها ، تفكر الآن وتعمل لإنشاء خزان السد العالى جنوب خزان أسوان ، وسوف يتكلف السد العالى أربعمائة مليون جنيه على أقل تقدير ، ويترتب على إنشائه إمكان زراعة مليونى

فدان جدد فى مصر ، سوف ينتزع الجزء الأكبر منها من الصحراء مع ما يتكلفه ذلك من جهد ومشقة مع أن مشروع السدود قد لا يكلف سوى خمسين مليوناً من الجنيهات ، فيزيد فى كمية ماء النيل ١٥ ملياراً فى المتوسط ، ويخلق ما يزيد على عشرة ملايين من الأفدنة صالحة للزراعة ، ولكن مصر المستقلة لا تستطيع أن تنفق أموالها وأن تزيد موارد المياه فى محابسها العليا التى تقع فى السودان ، وأن تعتمد فى رزقها ومحصولاتها الزراعية على ما يزرع فى السودان المستقل والذى قد يقف منها لسبب من الأسباب موقفاً معادياً فيضغط عليها فى الماء والأرزاق معاً ، ويكون معنى ذلك أن تمضى مصر فى إنشاء السد العالى مع كثرة نفقاته مؤخرة مشروع السدود الذى يعود على مصر والسودان بالخير العميم ، ولا يمكن أن يلومها السودان المستقل على ذلك ، أما لو أن مصر والسودان أصبحا يؤلفان وحدة اقتصادية ، لأصبح من العبث أن تفكر مصر فى زرع مليونى فدان فى مصر تنتزعها من الصحراء انتزاعاً ، فى الوقت الذى تستطيع فيه بهذه التكاليف أن تزرع فى السودان خمسة ملايين فدان أو عشرة ملايين ، يزرع بعضها ويجعل بعضها الآخر مراعى نموذجية لتربية ملايين الأبقار ، وتقام عليها عشرات المصانع الزراعية لإنتاج كل ما يحتاج إليه شعبا الشمال والجنوب من حاجيات تزيد فى رفاهيتهم وترتفع بمستواهم فيفيد الجنوبيون بتضاعف الثروة الزراعية فى أرضهم ويفيد الشماليون بثمرات الأرض الجنوبية تسد جوعهم . إن عظمة الولايات المتحدة الأمريكية لم تنشأ إلا لأن اقتصاد قارة بأكملها قد ارتبط بعضه ببعض ، فتفوقت على أوربا المؤلفة من عدة دول يغار كل منها على استقلاله ، وينافس كل منها الآخر فى حين أن ولايات أمريكا تتعاون فيما بينها ، الشمال يكمل الجنوب ، والشرق والغرب يدعمانهما ، فأصبحت أغنى دول العالم بل أغنى قارات العالم على الإطلاق . . .

وعفواً إخوانى حماة الاستقلال ، إذا كان هذا اللون من الحديث لا يعجبكم فيعلم الله أننى لم أقله كمصرى وإنما قلته كإنسان يعز عليه أن لا يرى البشر متعاونين فيما يعود عليهم بالنفع والخير العميم .

الساعة ٦ مساء

خور الجاموس(١)

كنت أظن ما دمنا فى منطقة السدود أن اليوم سينتهى على الصورة التى بدأ بها وأننى لن أجد ما يستحق التسجيل ، ولكننى كنت قد ذكرت من قبل أننا دخلنا منطقة النوير ، ومع النوير جاء العرى فى ذروته الكاملة ، فقد وقفت الباخرة على محطة تسمى خور الجاموس أو كيب بافللو بالإنجليزية ، وهى محطة تتزود منها البواخر بالأخشاب التى تعدها مصلحة الغابات ، ولم أكد أطل على القرية حتى فوجئت بالمنظر فى كل غرابته . لقد رأيت كما سجلت من قبل أفراداً عرايا ، يظهرون على البعد بين الحقول ، أو فى قوارب الصيد ، ولكن كانت هذه هى المرة الأولى التى يقتربون منا ويصبحون على بعد بضعة أمتار ، بحيث رأيت نفسى قادراً على تصويرهم وأنا فى داخل قمرتى ، بل لقد تشجعت وخرجت إلى حاجز السفينة ، ولم أشعر أن تصويرى لهم يغضبهم . ولقد وقفت أمامنا فتاة ممشوقة القد ، ناهدة الصدر مما تحسدها عليه أى فتاة أمريكية أو ممثلة سينمائية ، ولست أعرف إذا كانت تحس بجمال جسدها وامتيازها على الأخريات ، فقد راحت تنظر إلينا وتحدق فى وجوهنا بثقة واطمئنان طالبة منا أن نقذف لها بعض الأشياء ، وللجمال سحره وسلطانه حتى لو كانت صاحبته نويرية فى منطقة السدود ، ولذلك فقد بادر الكل بتلبية طلبها وقذف بعض ما يستغنون عنه ، وسرعان ما اكتشفت أن أعظم ما يتوقون له هو شفرات الحلاقة ، وقد كان لدى منها كمية مستعملة فلم أر حرجاً فى إعطائهم إياها ،

(١) قال لى بعض الزملاء إن اسم هذه المحطة هى خور الجاموس ، ولكن الحقيقة أن اسمها هو (الكيلو ٦٠) وهى على بعد ٧٠٨ كيلو مترات جنوبى كوستى . أما خور الجاموس فتقع بعيداً عن هذا الموقع .

وبدأوا يتنافسون ويتزاحمون على أخذها ، ولكن فى غير عنف ، مما يحدث فى مجتمعاتنا لو أن إنساناً قذف بنقود وسط جماعة من الناس . ورحت أبحث فى حجرتى عن أشياء أخرى يمكن أن أعطيهم إياها ، فوجدت بعض حبات من فاكهة المانجو ، فقذفت بواحدة منها لهم ، فلم تلق ترحيباً وظلت ملقاة على الأرض دون أن يتناولها أحد ، ثم تقدم لأخذها صبى صغير تناولها فى غير سرور أو انشراح ، وسرعان ما هدانى عقلى إلى أن الأنابيب الفارغة التى كانت تحوى أفلام التصوير ، ربما كانت مبعث ابتهاج لهم بمادتها المعدنية اللامعة ، وبالفعل رحت أقذفهم بهذه العلب المعدنية الفارغة ، فعادوا من جديد يتزاحمون على أخذها وعلى وجوه كل من يظفر بواحدة منها علامات الإنشراح والبهجة ، وإن كانوا قد راحوا يقلبونها فى أيديهم محاولين معرفة كيفية الإفادة منها . وجاء رجال كبار ونساء ، وانهالت عليهم الهدايا من ركاب السفينة جميعاً ، ما بين خبز وزجاجات فارغة وأمواس ، واكتظ الشاطئ بجمهور الشعب النويرى ، أطفالا ذكوراً وإناثاً وشباناً وفتيات ورجالا شيوخاً ونساء متزوجات ، ومن السهل معرفة المرأة المتزوجة لأنها هى وحدها من دون سائر أفراد القبيلة التى تغطى عورتها بحزام تتدلى منه شراشيف بطول ثلاثين أو أربعين سنتيمتراً ولكنها كفيلة بستر العورة . أما الفتاة التى لم تتزوج فلا تستر عورتها ، والرجال بدون استثناء لا يسترون عوراتهم .

ما هو التعليل

ووجدت هنا نقطة جديرة بالدراسة والاعتبار وحجة للداعين للإكثار من نوادى العراة . ويظهر لى أن سهولة الاهتياج الجنسى هى ظاهرة خاصة بنا فقط نحن الرجال الذين نتصور أنفسنا متمدينين ، وأن الإفراط فى الشهوات الجنسية هو لازمة من لوازم الحضارة ، وليس كما نتصور لازمة من لوازم العيشة

البدائية فى الغابة ، فها هم الناس يعيشون عراة فى الغابات رجالا ونساء ، فإذا بحياتهم الجنسية هادئة، معقولة ، فضلا عن أن يفتك بعضهم بالبعض الآخر ، بل إن جريمة الزنا هنا شيء نادر الوقوع ولا توجد بينهم مومسات أو عاهرات يحترفن إشباع رغبات الرجال الجنسية ، ومن تقاليد القوم هنا أن المرأة إذا حملت فقد أصبح حراماً على زوجها أن يغشاها وإلاّ جرّ اللعنة على نفسه وعلى أسرته ، وقد حاول بعض الإخوان أن يقلل من أهمية هذا الأمر بدعوى أن للرجل أكثر من زوجة ، وليس هذا حلا للمشكلة ، لأننا نزعم نحن المتمدنين أن الرجل إذا أحب زوجة بعينها لم يستطع أن يبتعد عنها طويلا ، والمرأة تظل حاملا مدة تسعة شهور فابتعاد زوجها عنها خلال هذه المدة الطويلة هو آية تحكمهم فى غرائزهم ، وأن شهواتهم الجنسية ليست فى حالة ثورة كما هو شأننا نحن المتحضرين المتمدينين . ولا عجب فى ذلك أوَ ليس أقل الطعام يكفى هؤلاء القوم ؟ ! أوَ ليس كل غذائهم قليلا من اللبن مع بعض الذرة ؟ ! أما نحن فما هو مقياس الحضارة عندنا ، مقياسها هو أن نأكل ثلاث مرات أو أربعة فى اليوم ، وأن ننوع مأكولاتنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، وأن نحرك شهوة الطعام عندنا بشتى الأنواع ، فهذه مشهيات ، وهذه سلطات ، وهذه توابل ، وهذا يقلى وهذا يشوى وهذا يسلق ، وهذه حلوى ، وهذه فواكه ، وهكذا جعلنا من الطعام والتفنن فى أصناف الطعام شغلنا الشاغل ، وكذلك الشأن فى هذه الغريزة الجنسية فالمرأة عندنا تفتن فى كل يوم لإثارة غرائز الرجل ، ومجرد ستر جسد المرأة عن الرجل بالملابس المزركشة ، التى تقصر حيناً وتطول حيناً آخر ، والتى تظهر الرقبة أو تغطيها ، والتى تكشف الصدر أو تحجبه ، والتى تبرز النهود ، والتى تسفر عن الأذرع حتى النصف أو بكمالها ، كل ذلك لم يكن له إلا تأثير واحد هو إثارة غريزة الرجل وشهوته أكثر وأكثر ، بل إن ملابس المرأة المتعددة ، وبخاصة ما كان منها تحت الملابس الظاهرة ، لم يرد بها إلا إثارة حواس الرجل ، فكل ممنوع مرغوب ، وكل محجوب هو دعوة

مستمرة لكشف الحجاب عنه ، وهكذا لم يعد للمدنية أو الحضارة من عمل إلا كيف توقع الرجل فى شباك المرأة ، والمرأة فى شباك الرجل ، ويسرف الرجال ويسرفون فى إشباع شهواتهم ، وفى خلق الوسائل التى تمكنهم من اقتناص المرأة أو التى تمكن المرأة من اقتناصهم ، وأنشئت بيوت الهوى ، حيث تبيع النساء المتع الجسدية ، وابتكرت صنوف الرقص التى لا هدف منها إلا إثارة الغرائز ، وأصبح أعظم المشاهد التى يسافر الناس من أجلها إلى باريس ويتدفقون عليها من كل حدب وصوب ، ما سمعوه من أن الراقصات يسفرن على المسرح عرايا ، والمجلات والصحف التى تريد الرواج والانتشار ما عليها إلا أن ترسم النساء عرايا أو شبه عرايا ، والسينما لتضمن النجاح لا بد أن تجرد امرأة من بعض ملابسها ، وأن تحملها على القيام ببعض حركات تشير إلى الغريزة الجنسية وإثارتها ، وهكذا غرقت البشرية المتحضرة فى كل ما يستثير حواسها الجنسية ويذكيها ويلهبها . واللطيف فى كل ذلك أنهم يتحدثون عن أن الإنسانية قد تحضرت وخلفت وراءها عهد الغابة زعماً منهم أن عهد الغابة كان أشد إسرافاً وإمعاناً من عهدهم فى انطلاق الشهوات الجسدية وفوضاها . والآن وقد رأيت ما رأيت فإنى أستحلف هؤلاء المتحضرين أن لا يظلموا عهد الغابة ، فها نحن أولاء فى الغابات فى قلب أفريقيا ، تحت وهج الشمس ولهيبها ، والرجال والنساء فى حالة عرى واختلاط تامين منذ الطفولة ، ومع ذلك فإن البنات يحتفظن ببكارتهن حتى يبلغن سن الزواج ، بل إن الشبان قد يصبرون سنوات وسنوات بعد البلوغ دون أن يضاجعوا فتاة ، والأغلبية الساحقة من الرجال والنساء لا يعرفن الاتصال الجنسى إلا من خلال الزواج ، فلا تظلموا الغابة ولا ترموها بنقائصكم ، فإنى لأتساءل كم فتاة تبقى عذراء فى أمريكا حتى سن الزواج ؟ ! وكم شاب فى أمريكا لم يتصل بفتاة حتى يتزوج ؟ ! الحق أن الإفراط فى الشهوات الجنيسة والاندفاع فيها هو لازمة من لوازم الحضارة لا البدائية ، وأن فوضى الاتصالات الجنسية بين الرجل والمرأة هو ظاهرة من ظواهر المجتمعات الراقية لا المجتمعات الفطرية الساذجة .

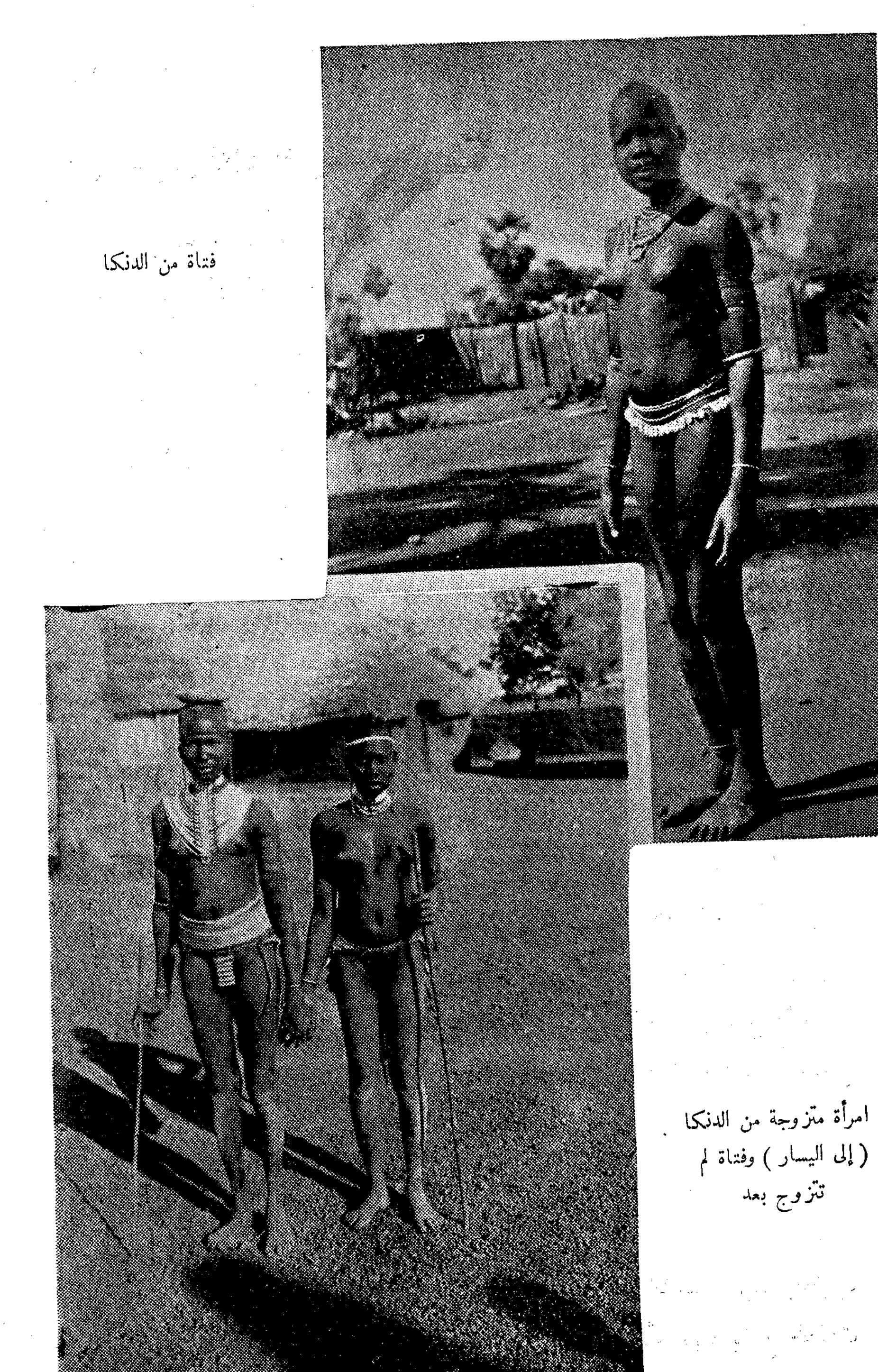
وكان قد حدثنى قبل قيامى بالرحلة نحو الجنوب ، السيد داود عبد اللطيف الذى كان مديراً لمديرية بحر الغزال ، أن للجنوبيين العراة فلسفة فى العرى ، فهم لا يتصورون للملابس من فائدة إلا أن تخفى عيباً . وقد كرر لى نفس المعنى الشيخ أبوفرحة مبعوث الأزهر فى الملكال ، فقد حدثنى أنه سأل فتاة مرة : «لماذا لا ترتدين ملابس» فردت على سؤاله : « لماذا يرتدى هو الملابس » ، فقال لها لأن الملابس تزيد فى كرامة الرجل بستر عورته ، وكذلك المرأة تزداد كرامتها بستر عورتها ، وتحفز الرجال على اشتهاء الزواج منها ، فقالت له : هل التاجر الممتاز الذى يملك بضاعة جيدة يخفى هذه البضاعة عن أعين الناس أو يظهرها لهم ليشجعهم على شرائها ؟ كذلك أنا ، فإنى أملك بضاعة جيدة فيجب أن أظهرها دائماً على رؤوس الأشهاد . وعند هذا القدر انتهى الحديث .

ولكن الشيخ أبو فرحة قص على والدالفتاة هذا الحديث وسأله عما تقصده ابنته بالبضاعة الجيدة التى تملكها ويجب أن تعرضها على رءوس الأشهاد ، فقال له إن الفتاة إذا فقدت عذرتها فإن تكوينها الجسدى تطرأ عليه تغيرات يعرفها الرجال ، بعكس الفتاة التى لا تزال بكراً ، فإن مظهرها يدل على بكارتها وعلى أن أحداً لم يعبث بها ولذلك فهى تعرف على الفور ، وابنتى فخورة ببكارتها فهى تعلنها على رؤوس الأشهاد ، وكل سرة تفتخر وتعتز ببناتها الأبكار وكل أب يمنى نفسه بالعدد الوفير من الأبقار الذى سيقدم له يوماً من الأيام مهراً لابنته العذراء .

ونعود من جديد لحديث صديقنا داود عبد اللطيف وهو يناقش مسألة عرى الجنوبيين فيقول : إننا يجب أن نقدر الظروف المحلية لهؤلاء الأقوام ، ففى بلاد تبلغ فيها الحرارة إلى الحد الذى لا يطيقه الإنسان منا ويحمله على

خلع ملابسه لو استطاع إلى ذلك سبيلا ، مع هطول الأمطار طوال السنة تقريباً بغزارة شديدة ، فإن الملابس بالنسبة لهؤلاء تكون شيئاً ضاراً وليس مفيداً من أكثر من ناحية . إن المطر عندما يسقط على الجسم العارى لا يلبث أن ينزلق على الفور دون أن يؤثر ذلك على الصحة ، أما عندما يسقط المطر على الملابس فوق جسد الإنسان فإن ذلك معناه الإصابة بالالتهاب الرئوى إذا لم يبادر بخلع هذه الملابس على الفور وارتداء ملابس جافة غيرها وليس هناك أى سبيل لتجفيف الملابس فى هذه البقاع بسهولة . وقد لاحظنا أن نسبة النظافة بين الذين لا يلبسون أعلى منها بكثير لدى هؤلاء الذين يلبسون قطعة من القماش تظل على أجسادهم لا يخلعونها وتصبح مستودعاً للقذارة وتظل كذلك حتى تتناثر قطعة قطعة محملة بكل الأقذار والأوساخ .

ويختتم صاحبنا حديثه بقوله : إن مسألة إلباس الجنوبيين ، يجب أن ينظر إليها على ضوء الواقع والظروف المحلية . وغنى عن البيان أن هذا الذى يقوله هو ما كان يردده الإنجليز عندما كنا نوجه إليهم الحملات الشديدة لإبقائهم الجنوبيين فى حالة العرى ، بل لقد كانوا يزيدون على ذلك أن الجنوبيين سعداء بما هم عليه من عرى ، وكل هذه سفسطة ، فإذا كانت الأغلبية الساحقة من البشر قد ارتضت الملابس كقاعدة لحياتها ، فإن بقاء نفر قليل بدون ملابس سيظل يحمل معنى غير كريم لهذا النفر ، أما التحدث عن الأمطار وكثرتها وخطر الملابس المبتلة بالماء وشدة الحرارة ، فنحن إذا تحدثنا عن الملابس بالنسبة للجنوبيين فنحن نعنى فى الدرجة الأولى ستر العورة بدون زيادة ، ولسنا نطالب أن يكون سترها بالقماش أو الحرير ، وإنما فليكن سترها بقطعة من الجلد أو نسيج من الحشائش ، وإذا كان النويرى أو الدنكاوى يدرك أن من الاحترام للمرأة المتزوجة أن تستر عورتها ، فلم يبق إلا أن نفهمه أن الاحترام واجب ليس فقط للمرأة المتزوجة ، بل لغير المتزوجة أيضاً ، وهو واجب كذلك للرجل متزوجاً كان أو غير متزوج .



فتاة من الدنكا

امرأة متزوجة من الدنكا
(إلى اليسار) وفتاة لم
تتزوج بعد

فى الطريق للانقراض

وعلى أية حال ، فإن باستطاعتى أن أهدئ غضب المستنكرين لهذه الحالة (وأنا منهم) كما أعزى أصدقاءنا الذين يرون الخير فى استمرار هذه الحالة ، ومن بينهم أصحاب نوادى العراة فى العالم ، بأن هذه الظاهرة فى طريقها حتما إلى الانقراض ، وإذا كان الإنجليز قد استطاعوا أن يحتفظوا بها خمسين سنة ، بدون تطور ، فلن تمضى خمس سنوات فى ظل الاستقلال حتى تكون فى ذمة التاريخ ، على الأقل فى هذا القسم على ضفتى النيل حيث تقف الباخرة من حين لآخر .

فحتى فى خور الجاموس ، بدأ هذا الوباء الحضارى الجديد ، وباء ارتداء الملابس يمتد وينتشر ، فلم يكن كل من فى خور الجاموس عرايا ، بل كان هناك من يلبس « اللاوو » وكانت هناك نساء ترتدى ملابس كاملة ، وكان هناك رجال يرتدون القميص والبنطلون (الشورت) وغير الشورت ، ولا شك أن هؤلاء الأخيرين ، هم من الموظفين ، ومع ذلك فإن الحضارة وباء وعدوى ، ولن يلبث غير الموظف أن يقلد الموظف إذا استطاع إلى ذلك سبيلا ، خصوصاً بعد أن أصبح هذا الموظف — شمالياً أو جنوبياً — من صفوفه ولا يفترق عنه فى قليل أو كثير . فعلى الذين يرغبون فى رؤية هذا المنظر العجيب ، منظر الرجال والنساء وهم يعيشون أطهاراً أبراراً على الفطرة ، أن يسرع بحجز تذكرته من الآن قبل فوات الفرصة واختفائها إلى الأبد ، ويصبح لا سبيل له لرؤية جسد دنكاوية أو نويرية إلا إذا دفع مقابل ذلك أربعين من رؤوس البقر وفوقها خاتم الزواج .

مع السدود أبداً

لا تزال دواليب الرجاف تدور وتدور ، وها هى ذى الشمس تؤذن بالمغيب وها هوذا الشيخ الأمين يدعونا كالعادة لصلاة المغرب ، فأستمهله بضع لحظات

لأتم هذه السطور وأختم خواطر اليوم ، فلا يزال نبات البردى يسحرنى ويأخذ بمجامع قلبى فلا أملّ من التحديق إليه ، وهو يرتفع عن سطح الماء بأربعة أمتار أو خمسة فى بعض الأحيان ، وهو ينمو متلاصقاً متكاثفاً ، وينمو فى ظل الثغرات بين سيقانه أنواع أخرى من الحشائش والطحالب والنباتات المتسلقة بحيث يتكون من الجميع كتلة صماء من المواد النباتية الخضراء . وتمتد هذه الكتلة الخضراء حتى نهاية الأفق شمالا وجنوباً وشرقاً وغرباً ، ويتساءل خيالى عن الثروة من المواد الحية بين هذه المادة النباتية ، كم من الثعابين والسحالى والحشرات والدواب وشتى الديدان والزواحف والحيوانات تعيش وسط هذا الخضم من النباتات . فكل شىء هنا يهيئ أسباب الحياة للحيوانات البدائية وللطفيليات ، ففى ظل الماء والحرارة والأرض تتكاثر كل أصناف الحياة وأنواعها .

الأرضة أو الغونغون

ولكن من بين الحشرات واحدة يعتبر الحديث عنها عجباً من أعجب العجب ، وهو صعب التصديق إلا أن يراه الإنسان رأى العين ، ويسمع بأذنه الإجماع على صدق خبره . وكان أول ما لفت نظرى لهذه الحشرة أكوام كبيَرة من التراب موزعة توزيعاً متسقاً على مساحات كبيرة من الأرض التى نمر عليها من حين لآخر . وحرت فى تفسير هذه الأكوام ، فهى أشبه الأشياء بأكوام (السباخ) السماد الذى يوزعه الفلاح على أرضه ريثما ينشره على كل سطحها ، وليس يوجد هنا فلاحون ولا زرع أو ضرع ، فما هى هذه الأكوام يا ترى ؟ وكان الشيخ الأمين هو الذى أجاب عن هذا السؤال قبل أن أوجهه إليه ، قال لى : أتعرف هذه الأكوام والتلال الصغار ؟ قلت : العلم عند الله ، ومنك نستفيد يا شيخى الجليل ، فقال : هذه هى « الأرضة » قلت : إننى أعرف الأرضة ، أليست هى هذه الحشرة

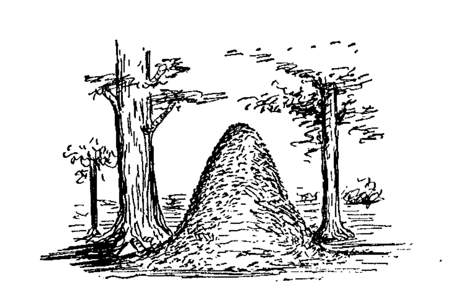
التى تقرض الخشب[1] ؟ قال : هى بذاتها ، وهى التى تشيد هذه التلال وتنشئها إنشاء . ولم أستطع أن أصدق لأول وهلة أن يكون باستطاعة حشرة أن تبنى تلا على هذه الصورة ، فما بالك وليس الأمر أمر تل واحد ، بل إنها ألوف وألوف من التلال ، فحيثما سارت الباخرة وأنى اتجهت وظهرت مساحة مكشوفة من الأرض ، رأينا فوقها هذه التلال الصغيرة أو أكوام السماد .
وأسرعت إلى دائرة المعارف عبد الرحيم العربى وسألته تفصيل الخبر فراح يقص المعجب والمطرب من أمرها . فالأرضة كالنحل تعيش فى مملكة وهذا التل هو مملكتها ، ولكل مملكة ملكة كبيرة الحجم ، وعبثاً يمكن إزالة هذا التل إذا أقيم فى مسكن أحد الناس ، إلا إذا غاص فى أساسه وعثر على الملكة واستأصلها . فما دامت الملكة حية فالأرضة تتوالد والتل يعود للارتفاع من جديد . وقد ذكرنى ذلك الحديث على الفور بملكة النمل وبيوت النمل ومساكنها[2] . ولو أن الحديث وقف عند هذا القدر لكان مقبولا وليس فيه ما يثير كبير دهشة ، فعجائب المخلوقات لا أول لها ولا آخر ، ولن تدهشنى بيوت الأرضة أو ملكتها بأكثر مما أدهشتنى الجوهرة التى تضىء كأنها الكهرباء ، ولكن الحديث سرعان ما جرنا إلى أعجب ما فى هذا الكون طراً وهو سيدنا الإنسان ، سيد الكائنات الذى يأبى إلا أن يأكل هذه الأرضة وأن يتخذ منها طعاماً شهياً . ففى فصل الخريف وهطول الأمطار تسمن حشرات الأرضة بحيث يتطور حجمها من حجم القمحة إلى حجم الفولة ، فيشعل أخونا الإنسان النيران بجوار هذه التلال ، فيهب الدخان على التلال وينفذ إلى ما فيها من ثغرات ، فتهرب الأرضة خوفاً من الاختناق وتطير بجناحيها مغادرة جحورها فتسقط فى النيران ، فلا تكاد تقع فى النار

---

(١) ورد ذكر حشرة الأرضة فى القرآن فى قصة سيدنا سليمان ، وأنها كانت هى التى دلت على موته : «فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين » . (سورة سبأ آية ١٤ جزء ٢٢)

(١) علمت فيما بعد أن الإنجليز يطلقون على هذه الحشرة اسم النمل الأبيض .

حتى تحترق أجنحتها ، وقبل أن تأتى النار على جسدها ، يخرجها الإنسان المهذب المتحضر ويتخذ منها طعاماً شهيّاً ، وقد راح بعض الجالسين يؤكدون أنها لذيذة الطعم جداً لأنها عبارة عن قطع صغيرة من الدهن المشوى ، وهى أفخر ما يقدم أحياناً إلى جوار الخمور كنوع من (المزة) ، والخلاف الوحيد بيننا نحن المتمدينين من سكان الشمال وإخواننا الجنوبيين ، أننا نأكلها مشوية ، والجنوبيون يأكلونها بغير شئ ، ونحن نسميها الأرضة وهم يسمونها الغونغون ، ولن يستطيع إنسان أن يستطيل علينا أو يتهمنا بأكل مالا يليق ، فهناك أناس تحج لتأكل فى مطاعم باريس : شوربة الضفادع وتتمتع بأكل أرجل الضفادع وعيونها أيضاً .



٧

السبت ٧ أبريل

... إن هذا الذى نسير فيه هو مستنقعات بالفعل، وكل هذه النباتات الكثيفة تجرى من تحتها الأنهار ... ولو خيل لك أن تنزل لتستمع بالجلوس بينها أو التفيؤ فى ظلالها لوجدت نفسك سابحاً مع الأسماك ومداعباً التمساح أو الجرنتى ...

الساعة ١٠ صباحاً

ما زال المنظر هو الذى وصفت لك من قبل : مجرى من الماء لا يتجاوز عرضه فى أوسع أجزائه خمسين متراً ، وقد ينقص عن هذا القدر ، وعلى الجانبين نبات البردى محروقاً وغير محروق ، وطوال الليل والباخرة تسير ونحن نرى هذه الحرائق المشتعلة ، ونسير إلى جوارها أحياناً ، حتى لقد خشيت فى بعض المرات أن تمتد إلى المركب . وبالأمس صعدت على سطح المركب الأعلى أراقب هذه الحرائق ، فرأيت بعضها على الأفق وبعضها شديد القرب . وفجأة سرت فى نفسى رعدة من الخوف ، عندما تلفت حولى فإذا بى وحيد يلفنى الظلام الرهيب إلا من ضوء اللهب الذى ترسله النيران المشتعلة فى البوص ونبات البردى الجاف . ولأمر ما تمثلت المخاطر التى كانت تحف بالذين يجتازون هذه المنطقة فى القديم ، وتذكرت كم أصبحنا بعيدين عن العالم الخارجى ، فاقشعر جسدى وهممت أن أهرب فأنزل إلى حجرتى ، حيث المدنية تتمثل فى الضوء الكهربائى والمروحة والفراش الوثير ، ولكنى خجلت من نفسى لهذا الشعور المفاجئ الذى لا مبرر له ، وأصررت على ضرورة البقاء والاستمتاع بالوحدة والظلام والنيران المشتعلة عن بعد . وعلى الرغم من أن موضوع حشرة الجوهرة ليس جديداً علىّ ، وقد حدثتك عن النور الذى تحدثه بأجنحتها عندما

تطير ، فقد كان تكرار الظاهرة يأخذ بلبى كالمرة الأولى تماماً ، وهذه الحشرات تضىء كأنها المصابيح ، ولما كان الليل حالكاً وهذه الجواهر تضىء فيه من حين لآخر كأنها نجوم أو شهب تهوى ، فقد ذكرنى ذلك بقول بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسنافنا ليل تهاوى كواكبه



النيل فى منطقة السدود

وشهد أن هذه الصورة ، صورة الليل الذى تهاوى كواكبه ، أكثر ما تكون انطباقاً على هذا المشهد الذى أرى ، والجواهر من حين لآخر تلمع ثم تنطفئ وتذوب فى لجة الليل ، ريثما تلمع وتضىء من جديد ، لتنطفئ فى لجة الليل من جديد .

نبات مائى لا أرضى

وقد بقى أن أصحح خطأ شنيعاً من الناحية العلمية والواقعية وقعت فيه من

قبل ، ولقد حرصت وسوف أحرص على إبقاء هذه الغلطة فيما لو قدر لهذا الكتاب أن يطبع ، ذلك أنه خطأ أقوى فى الدلالة على واقع الحال من الصواب فإن العقل لا يستطيع أن يتصور بداءة ذى بدء ، إلا أن هذه النباتات المتكاثفة من نبات البردى التى نمر عليها قد نمت وترعرعت على أرض زراعية قوية مليئة بالأغذية والأسمدة الطبيعية ، بحيث استطاعت أن تغذى هذه الملايين من أطنان النبات ، وإذا بى أفاجأ عند البحث مع الزملاء ، أن نبات البردى نبات مائى لا ينبت إلا فى الماء ، وأن تحت هذه المساحات اللانهائية من نبات البردى التى نسير خلالها منذ يومين ، ماء ، بل ماء غزير ، وأن لا صلة بين البردى وبين الأرض على الإطلاق . لقد تصورت أن تسمية هذه المناطق بالمستنقعات ، لأن مياه النيل والأمطار تغطيها أيام الخريف ، وتغرق هذه المساحات الشاسعة من الأرض ، فإذا هذا الذى أتصوره ليس إلا آية من آيات « الجهل نورن » لأن هذا الذى نسير فيه هو مستنقعات بالفعل ، وكل هذه النباتات الكثيفة تجرى من تحتها الأنهار ، ولو خيل إليك أن تنزل لتستمتع بالجلوس بينها أو التفيؤ بظلالها لوجدت نفسك سابحاً مع الأسماك ومداعباً التمساح أو الجرنتى ،وشارباً أكثر مما ينبغى من الماء المعطر بجذور زهرة الباشنين .

وإذن فكل هذا الذى يقع عليه البصر ليس إلا كتلا نباتية عائمة فى الماء ، وهذا المجرى المنظم الذى نسير فيه ، ليس من صنع النهر ولا هو بالشىء القديم العهد ، وإنما هو من عمل الكراكات الحديثة التى شقت هذا الطريق بين نباتات البردى ، أما فى القديم فلم يكن لمثل هذا المجرى وجود ، والمستكشفون الأوائل ، كانوا مضطرين لأن يسحبوا مراكبهم فوق جزر البردى أو أن يشقوا طريقهم خلالها متراً متراً ، فإذا تصورت أن سمك هذه الكتلة النباتية قد يبلغ خمسة أمتار أو ستة ، وأنها مندمجة حتى لكأنها كتلة صماء ، استطعت أن تتصور ماذا يعنى شق هذه الكتلة ، ولذلك فقد عجز كثير من المستكشفين عن فعل ذلك خلال ألوف من السنين ، فوقفت هذه المنطقة حائلا بينهم وبين

الوصول إلى منابع النيل من هذا الطريق[١].

وإلى عهد قريب جداً ، إلى بضعة عشر عاماً ، كان هذا المجرى المائى الذى نسير فيه الآن يسد بهذه النباتات التى تطغى عليه ، فتتعطل الملاحة أمداً طويلا ، وتبذل جهود مضنية حتى يمكن شق هذا المجرى من جديد .

ويحدث ذلك الآن من حين لآخر خلال مدة الفيضان ، حيث تكتسح مياه النهر كميات ضخمة من هذه النباتات فلا تلبث أن يزحم بعضها بعضاً ويختنق مجرى النهر ، ولكن الكراكات الحديثة القوية تشرع لإزالة هذه العوائق وإبقاء مجرى النهر بين جزر البردى العائمة مفتوحاً للملاحة . ولما كانت هذه الجزر العائمة سميكة جداً وكبيرة قد يصل طول بعضها ميلا وعرضها بعض ذلك ، وليس هناك تيار ماء قوى فى هذه المنطقة فإنها تبقى فى الغالب ثابتة فى مكانها لا تتحرك ، وبخاصة أن هناك مرتفعات من الأرض من حين لآخر تنمو عليها الحشائش والبوص ، وهذه تتشابك مع نبات البردى المجاور لها ، وهكذا ترتبط هذه الجزر العائمة بالأرض ، وقد تبلغ طبقات البردى المتراكمة بعضها فوق بعض حداً كثيفاً يمكن الإنسان من المرور عليه فى طرقات معينة ، بل إن بعض الحيوانات الثقيلة ومن بينها الفيل قد ترى فوق هذه الطرق عبر جزر البردى وهى تنتقل من مكان إلى مكان .

وهكذا ازداد إيمانى بأن الخطأ دائماً هو طريق الصواب ، وأنه لكى يتعلم الإنسان يجب أن يخطئ أولا ، فلولا تصورى فى بادئ الأمر ، أن هذا الذى نسير إلى جواره هو أرض مزروعة ، لما توصلت إلى هذه المعلومات عن طريق السؤال والاستيضاح .

ولما كانت بعض جزر من الأرض تظهر من حين لآخر ، فقد سألت السيد عبد الرحيم العربى كيف نفرق بين الأرض وحيث لا توجد الأرض ، فقال لى :

(١) توصل قدماء المصريين على الأرجح والعرب فى القديم إلى الوصول إلى منابع النيل عن طريق شرق أفريقيا .

حيثما وقع بصرك على نبات البردى وحده فليست هناك أرض بل ماء لأنه كما قلت لك لا ينمو إلا فى الماء ، إما إذا وجدت هذا القش الذى يشبه نبات الذرة فهذه الأرض ،لأنه لا ينمو إلا على الأرض ، فإذا وجد الاثنان معاً : قش أو بوص مختلط بنبات البردى ، فهذا معناه أرض كثيرة الأخاديد والشقوق فينمو البردى فى الأخاديد حيث الماء ، وينمو القش فى الأرض . ألستم ترون معى أن وجود السيد عبد الرحيم معى كان فرصة ذهبية لأتعلم منه الكثير ولأنقل لكم معلوماته .

وليس لهذا الفهم الجديد لحقيقة هذه المنطقة وطبيعة نبات البردى المائية ، أى تأثير على ما ذكرته قبلا خاصاً بمشروع قناة السدود ، وأن إنشاء هذه القناة من شأنه أن يخفف الماء عن بضعة عشر مليوناً صالحة للزراعة ، بل إن هذه الحقائق الجديدة ، تظهر عظمة هذه الأرض المغطاة بالمياه العذبة هذه الألوف من السنين ، والتى يترسب فيها كل عام كميات ضخمة من الطمى ، فعلينا أن ندرك أى أرض حلوة ستكون هذه الأرض عندما تحول عنها مياه النيل لتجف ! وكم ستكون غنية بالمواد العضوية والحيوية التى ترسبت فوقها خلال الأجيال والقرون !...

أفيال !...

وقد حالفنى اليوم سوء الحظ فقد اكتشفت بالأمس لدهشتى أننى مصاب ببرد خفيف لعدم إغلاق أبواب قمرتى فى الليل ، وعدم التدثر بالغطاء الكافى ، بل إن استيقاظى كل يوم قبيل الفجر وجلوسى عقب الصلاة على سطح المركب فى انتظار طلوع النهار وبزوغ الشمس دون أن أكون مرتديا ملابس ثقيلة ، كل ذلك قد تعاون على إصابتى بالبرد الذى لم أكتشفه إلا بعد أن تفاقمت أعراضه ، فقررت أن أتخذ عدة إجراءات وقائية ومن بينها أن أحكم إغلاق نوافذ القمرة وأن أتغطى جيداً ، ولا أصعد على ظهر المركب هذا الفجر ، وقد نفذت هذا البرنامج بدقة فأحسست على الفور بالتحسن فى

صحتى ولكن هذه الإجراءات أضاعت على فرصة كنت أتوق إليها وهى رؤية الأفيال .

ولم أكد أظهر على مائدة الطعام لتناول الإفطار حتى كان جميع الزملاء يهتفون فى وجهى متسائلين : أين كنت ؟ وهل هذا وقت النوم ، لقد ناديناك فقيل لنا : إنك نائم ، ورفض الفراشون أن يوقظوك من النوم فضاعت عليك الفرصة ، فرصة مشاهدة الأفيال وأطفالها الصغار وهى تسير بين أرجلها . وأحسست فعلا بخيبة الأمل ، فمنذ سبعة أيام وأنا أراقب طلوع الشمس يومياً ، فلا أرى سوى الزرازير والطيور ، والمرة الوحيدة التى أستجم فيها ، تكون هى المرة التى تظهر فيها الأفيال ؟!

وليس منظر الفيل غريباً علىّ ولكن رؤيته على الطبيعة حرًّا طليقاً وحشياً له طعم آخر ومذاق جديد ، بل إننى أريد إذا عدت لأولادى الصغار ، أن أحدثهم عن رحلتى بين الغابات ورؤيتى الأسود والأفيال ، وإن خيالى ليستمتع بمجرد استحضار هذه الصورة ، وألوف الأسئلة التى ستنهال علىّ من هذه الأفواه البريئة : هل حقًّا رأيت الأفيال ، وعلى بعد كم من الأمتار ؟ أوَ لم أخف منها ؟ وهل تأكل الناس ؟ وأرد على هذه الأسئلة باعتزاز وفخار باعتبارى رجلا مهمًّا فى نظر هؤلاء الأطفال ، أوَلم أر الأفيال والأسود وجهاً لوجه دون أن يكونوا داخل الأقفاص الحديدية! وسأحاول طبعاً أن لا أبرز الحقيقة الواضحة وهى أننى محصن داخل هذه الباخرة ، يفصلنى عن هذه الوحوش ماء النيل وجدران الباخرة ، وكثرة عددنا التى تجعل الوحوش تفر منا مذعورة . ولكن وا أسفاه لقد ضاعت منى هذه الفرصة ، فلن أستطيع أن أحدث أولادى كذباً أننى رأيت الفيلة أو الأسود دون أن أراها بالفعل ، ولن أستمتع بالزهو والخيلاء وأنا أدهشهم بهذا الحديث . . . ومع ذلك ففيم التشاؤم والرحلة لم تتم بعد ولا يزال أمامنا أيام وأيام نرى فيها الأفيال وآباء الأفيال وأمهاتها أيضاً .

ولأول مرة جلس إلى جوارى بعض الركاب وهم ينظفون بنادق الصيد

ويتحدثون عن صيد الفيل ، فشعرت أن المسألة دخلت فى الجد ، وأننا بالفعل أصبحنا فى منطقة الوحوش والأفيال .

الساعة ٦ مساء

الجو الجميل

ما زلنا نسير خلال هذا الممر الذى شق بين نباتات البردى . ولعل القارئ العزيز يذكر أننى تحفظت منذ أيام فى التحدث عن الحر ، انتظاراً وتوقعاً لما هو أشد عندما نقترب أكثر وأكثر من خط الاستواء ، وها نحن أولاء قد أصبحنا على خط عرض ٦ فى صميم منطقة السدود ، فإذا بالجو ألطف مما كان عليه منذ اليوم الأول لرحلتنا ، فالنسيم عليل حتى فى ساعة الظهيرة . وقمرة السفينة التى كانت لا تطاق أثناء النهار أصبحت أحرص على أن لا أجعل تيار الهواء يمر خلالها ، والماء الذى كان يغلى فى الصنابير ، أصبح منعشاً ، وبينما كانت فكرة الحمام تملؤنى رعباً لأنها كانت تعنى أن أغطس فى ماء مغلى ، قد حل محلها التساؤل عما إذا كان هناك ماء ساخن فى الحمام . وهكذا لا يمكن للكتب أن تعلمنا شيئاً بالقياس إلى ما تعلمنا إياه الأسفار والتجربة الشخصية . إن الصورة التى ترتسم فى أذهاننا جميعاً كلما سمعنا عن منطقة خط الأستواء أن الحرارة بها لا تطاق ، وهأنذا قد خلفت ورائى الحرارة فى الخرطوم وشمال الخرطوم التى تعتبر من أشد مناطق الدنيا حرارة ، أما هنا فالجو معتدل كأننى فى أحد المصايف .

الصيف فى الجنوب

وقد كان لطيفاً جداً ومفاجئاً عندما أخبرنى أحد شيوخ الجنوب مستر « ماتيو » أنه لا يوجد صيف تشتد فيه الحرارة فى المديرية الاستوائية ، إلا فى

شهرين اثنين فقط فى العام . أفتعرف ماهما هذان الشهران ؟ حذار أن تخطىء فتقول يوليو أو أغسطس ، إنهما يناير وفبراير ، أى عندما ترتعد أنت من البرد إذا كنت فى المنطقة المعتدلة ، ولا تستطيع الحياة بدون التدفئة الصناعية إذا كنت إلى الشمال من ذلك ، ففى المديرية الاستوائية يكون هذان الشهران هما أكثر الشهور حرارة ، لأنه بعد ذلك تسقط الأمطار ، ومع سقوط الأمطار يعتدل الجو .

التواءات

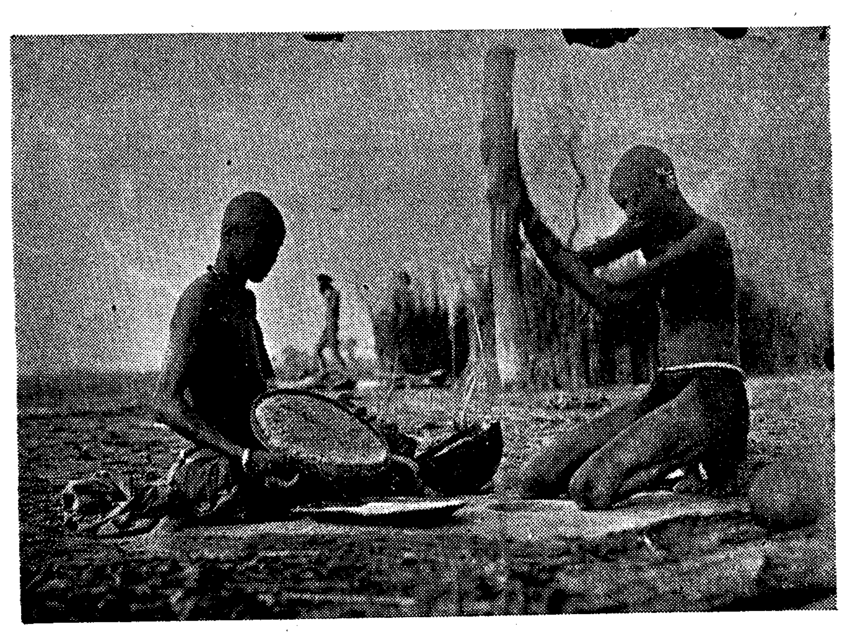
وتواصل الرجاف سيرها فى طريق ملتو متعرج كأشد ما يكون الالتواء ، وليس هناك ما يدلنا على تغيير اتجاه السفينة وانثناءاتها الحادة ، إلا قرص الشمس فتارة نراه فى مقدمة السفينة ، وتارة نراه فى مؤخرتها ، وأحياناً إلى اليمين وأحياناً على الشمال ، وأراد مهندس السفينة السيد « عبد الوهاب عثمان » أن يلفت نظرى لهذه الملاحظة ، فأشار إلى دخان سفينة على البعد منا وهى فى طريقها إلينا ، ثم طلب منى أن أراقب دخان السفينة ، وأرى كيف تتقترب منا ، ثم لا تلبث أن تبتعد ، وكيف سنراها حيناً فى الشرق وحيناً آخر فى الغرب ، وهكذا يتعرج مجرى النيل فى هذه المنطقة تعرجاً شديداً وقد يدور حول نفسه أحياناً[1] ، وليس أمام السفينة سوى هذا الطريق ، الذى أمكن شقه والمحافظة عليه مفتوحاً بين جزر البردى التى لاتنتهى .

تحية لقائد السفينة

ولقد حانت الساعة لكى أسجل إعجابى وأبعث بتحيتى ، إلى قائدى السفينة السودانيين ، فهما عندى من الأعاجيب البشرية ، وهما يقودان السفينة وسط هذا المجرى الضيق ، فلا تقف منهما لحظة بسبب ارتطامها فى هذا الجانب

(١) ويعرف هذا المكان الملتوى باسم « سبع دورات » أى الدورات السبع .

أو ذاك ، ولو كان السير دائماً فى منتصف المجرى المائى لقلنا إن مهمة الربان هى أن يتوسط بالسفينة مجرى النهر دائماً ، ولكن خط السير لا يسير على هذه القاعدة ، فهو تارة يجاور الشاطئ الأيمن ، وتارة يجاور الشاطئ الأيسر ، ويوشك أحياناً أن يحتك بالجوانب احتكاكاً شديداً ولقد جعلنى ذلك أتساءل : على أى أساس يتحسس الرجل طريقه ، فقيل لى إنه يعرف الطريق معرفة تامة ، ويكاد يعرف كل شبر فيه ، قلت : ولكن المنظر متشابه جداً ، وليس هناك علامات مميزة ، وإذا تصورنا إمكان التعرف على الطريق بالنهار ، وسبر أغوار الماء ومعرفة المكان الذى يصلح لسير الباخرة ، فما هو الشأن بالليل ، وهو لا يضىء مصباحاً كشافاً ، بل يسير فى الظلام ، فكيف يدرك أنه يتعين عليه أن ينحرف إلى اليمين أو إلى اليسار أو يظل وسط النهر ؟ ! الحق أن هذه ظاهرة من البراعة الإنسانية لن تجدها إلا فى الشرق ، حيث لا يزال



دق الذرة لإعدادها لعمل العصيدة أو المريسة

باستطاعة الفرد أن يقوم بأعمال هى اليوم من اختصاص الآلات فى عالم الغرب . إن الربابنة فى المراكب الأوربية ، سواء كانوا فى البحار أم الأنهار أصبحوا يسترشدون فى سيرهم بآلات دقيقة ، وعلى خرط وافية تبين لهم عمق كل جزء من النهر ، والأنهار نفسها قسمت ونظمت وركبت فيها علامات ، ووضعت على سطوحها العلامات والطوافات التى تقود الربابنة وترشدهم إلى الطريق السوى ، أما هنا فلا شىء من ذلك على الإطلاق ، لا معالم للطريق ولا خرط ، ولا أجهزة خاصة لسبر غور الماء ، وإنما هى مهارة شخصية « للريس الحاج محمود محمد على » الذى يقوم بقيادة هذه السفن منذ عشرين سنة ، فأصبح يعرف الطريق عن ظهر قلب ، أصبح يعرفه بغريزته وإلهامه ، ويكفى أن ينظر بعينه إلى الماء ليعرف من لونه ومن حركته أى أجزاء النهر قادر على تحمل الرجاف بكل حمولتها ومقطوراتها ، بل إن نظره أصبح ثاقباً مميزاً لألوان المياه ومعرفة غزارتها لا فى النهار فحسب ، بل فى حلكة الليل وسواده . دعونا نحيى هذا الريس وأمثاله ممن يجوبون النيل من الشمال إلى الجنوب وبالعكس ، وندعو لهم بطول العمر والصحة والعافية ، فهم ذخيرة من ذخائر هذا الشعب الكريم .

٨

الأحد ٨ أبريل

. . . لقد اعتادوا أن تكون صلواتهم بكاء وعويلا وأنينا وتمثيلا للفزع والاستجداء والتذلل . فإذا بإخناتون يقول لهم فلتكن صلاتكم . غناء وترتيلا و إشراقاً . ولتقفوا بين يدى الرب آتون فرحين مستبشرين . . .

الساعة ١٠ صباحاً

عبادة الشمس

ما من كائن من الكائنات قد استرعى أنظار الإنسان مذ عرف نفسه على هذه الأرض أكبر من الشمس ، وما من رب جعله الإنسان البدائى فوق الأرباب كلها إلا أن يكون الشمس . لقد عبدت الإنسانية شتى صنوف الآلهة والمقدسات : عبد البشر الأمومة وعبدوا الأبوة والأجداد وأرواح الموتى ، وعبدوا الملوك والأبطال ، وعبدوا الكواكب والنجوم ، وعبدوا الأنهار والأشجار والجبال والرعد والبرق ، ولكن الشمس ظلت دائماً تحتل مركزاً سامياً وممتازاً وتجد مكانها دائماً فى الصدر من مجمع الآلهة .

وعبادة رع أى الشمس هى أقدم الديانات المصرية وأعرقها . وفراعنة مصر القدامى كانوا منحدرين من الشمس فهم أبناؤها ولذلك كانوا آلهة وظهر اسم رع كجزء من أسمائهم دائماً « كخفرع ومنقرع » .

وعبادة الشمس باعتبارها خالقة هذا الكون ، أمر طبيعى وبدهى جدًّا بالنسبة لإنسان فطرى ، وحسبك أن تقف كما اعتدت أن أقف كل صباح فوق ظهر السفينة بعد صلاة الفجر ، ولا يزال الظلام يلف الكون ، حيث كل شىء موحش ومقبض للنفس وباعث للخوف والهلع . . . كل شىء ساكن هادئ لا دبيب ولا حسيس ، إلا أن يكون حفيف الأشجار أو خرير الماء كأنها أصوات

الأشباح أو الأرواح الهائمة . ثم يتنفس الصباح ، ويبيض وجه الكون تحت تأثير بواكير أشعة الشمس ، فإذا بالغابة تمور بالحياة موراً ، وإذا بقلبها يخفق وأنفاسها تتردد ، وتبعث من جديد كائناً حياً .

فالعصافير تزقزق ، والبلابل تغرد ، والطيور تخفق الهواء بأجنحتها فرحة طروبة لطلوع النهار ، وتنهض الحيوانات الكواسر تتثاءب وتتمطى نافضة عنها ثوب الخمول استعداداً للانطلاق فى معركة الحياة ، وأسراب الظباء وشتى الحيوانات الصغيرة تهرع إلى النهر قبل مجىء الحيوانات الضارية ، والزواحف والتماسيح وكل حشرة وكل دابة ودويبة ، الكل يبعثون فقد طلعت الشمس ، ومع الشمس السعى والحياة . ويستيقظ بنو البشر قبل الحيوانات أو بعدها ، شلكاً كانوا أو دنكاً أو نويراً أو كائنة ما كانت جنسيتهم ورعويتهم ، لقد انصرم الليل وجاء النهار وبدأت معركة الحياة . ويخلع الضوء أرديته وأكسيته على كل شىء فى هذه الأرض وفى السماء فيكسبها ألوانها ويظهر مفاتنها ، فالسماء بزرقتها ، والزهور والطيور والمياه والأشجار والأسماك والطواويس والفراشات ، كلها . . . كلها يلبسها الضوء أبهى حللها وزخرفها . ولا يكاد قرص الشمس يتعالى فى كبد السماء حتى تكون الحياة قد تدفقت كأعنف ما يكون التدفق . وينمو الصغير ويكبر ، إنساناً كان أو حيواناً ، كل شىء ينمو وينضج تحت حرارة الشمس وأشعة الشمس .

فإذا تصور الإنسان الأول أن هذه الشمس العالية المشرقة هى رب الأرباب ، وسبب الأسباب ، وهى خالقة الكون وباعثة الحياة ، فلا لوم عليه ولا تثريب ، ما دامت الهداية الكبرى لم تأته بعد من الله . وعبادة الشمس هى مظهر الرحلة الكبرى التى قطعها العقل البشرى من النضج والتطور حتى وصل إلى هذه المرتبة وارتفع بالألوهية من الأرض إلى السماء .

ولقد صور لنا القرآن الكريم هذا التدرج والتطور فى العقل البشرى فى قصة إبراهيم وهو يبحث بعقله عن سبب الأسباب ، عندما لفتت النجوم

أنظاره ثم صرفه عنها القمر ، ولم تلبث أن محت آية الشمس آية القمر ، ثم وقف إبراهيم حائراً مبهوتاً بعد أن وصل إلى هذه المرحلة فلم يجد فى كل هذه الكائنات التى تحيط به ما يمكن أن يرتقى منها بعد الشمس .

« وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين — فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين — فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين — فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون — إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين [١] » .

إخناتون

وإذا كان إبراهيم قد هدى بعد ذلك بنعمة من الله ، إلى من هو أكبر من الشمس ، إلى رب الشمس وخالقها وسيدها ، إلى الروح الكبرى التى تهيمن على الشمس والذى ليست الشمس إلا أحد مظاهر قدرتها ، فمن قبل إبراهيم كان إخناتون فرعون مصر قد وصل إلى هذه النتيجة نفسها على الرغم من أنه كان يسبق إبراهيم ببضعة قرون ، وعلى الرغم من أن البيئة والعقل البشرى لم يكن مستعداً فى ذلك الوقت لقبول تعاليمه السامية . فرع أى الشمس فى كبد النهار لا يمكن أن تكون هى الإله المعبود بنفسه ، وليس هذا القرص الملتهب هو صورة الله ، وإنما هذه الشمس شعاره وإشارة له ، فالمعبود بحق هو آتون سيد الشمس . وسرعان ما استبدل الفرعون باسمه الذى كان يشير إلى انتمائه إلى آمون ، اسماً يربطه بآتون ، فأطلق على نفسه إخناتون أى حبيب الرب « آتون » .

ولقد شقى إختانون وهو يحاول صرف الناس عن معبودهم الوثنى القديم آمون إلى إله الحب والرحمة آتون ، عبثاً حاول أن يرتقى بعقول الناس درجة

(١) الجزء السابع — سورة الأنعام — الآيات من ٧٥ — ٧٩ .

من المحسوس إلى المعقول . فقد ألفوا أن يعبدوا أصناماً مجسدة تقول عنها الكهنة إنها الآلهة أو مساكن الآلهة . لقد كان إخناتون يبشر بدين جديد وفلسفة جديدة لم تتهيأ لها بعد أذهان الجماهير .

لقد ألفوا أن عبادة الآلهة لا تعنى شيئاً سوى الخوف منهم ، فإذا بإخناتون يقول لهم بل أحبوا آتون ولا تخافوا منه ، فهو أحنى عليكم من أمهاتكم ، وهو بكم رؤوف رحيم . لقد ألفوا أن تكون المعابد والهياكل التى تقام لآمون أو أوزوريس أو غيرها من الآلهة ، هياكل سوداء قاتمة توحى فى النفس الرعب والكآبة ، فإذا بإخناتون يقول لهم هذه الهياكل يجب أن تحطم ، وإنما الهيكل الوحيد الذى يقام للرب لا ينبغى أن يكون مخيفاً أو يسوده الظلام بحيث يبعث الرعب فى القلوب ،وإنما الهيكل حديقة غناء وسط ساحة مكشوفة للسماء يغمرها الضوء ويحف بها الجمال والهواء والنسمات . لقد ألفوا أن يتقربوا إلى الآلهة بالذبائح يذبحونها فالآلهة لا ترضى ولا يطمئن خاطرها إلا من خلال الدم المسفوك ، فجاء إخناتون يقول لهم بل الرب آتون لا يحب الدم المسفوك ومن أراد أن يتقرب له فليتقرب له بالزهور والعطور والطيب ، فأن نعيش وسط الجمال ، ونتنشق الروائح الكريمة والزهور هو ما تقر له عين آتون .

ولقد اعتادوا أن تكون صلواتهم بكاء وعويلا وأنينا وتمثيلا للفزع والاستجداء والتذلل ، فإذا بإخناتون يقول لهم فلتكن صلاتكم ، غناء وترتيلا وإشراقا ولتقفوا بين يدى الرب آتون فرحين مستبشرين ، إنكم عياله وهو من فوقكم حنان منان يبسط الرزق ويغمركم بالنعم والآلاء .

ولقد اعتادوا أن يتصوروا أن الإنسان وحده هو الذى يسبح بحمد خالقه ، وهو الذى يعبده فإذا بإخناتون يقول لهم بل السمك والطيور والحشرات ودواب الأرض كلها تعبد الخالق ، ولذلك فقد أنشأ فى حديقة المعبد ، بركاً لتسبح فيها الأسماك ، وملأ الحديقة أوزاً وطيوراً لتشارك الإنسان فى عبادة آتون سيد الكائنات .

ولقد اعتادوا أن يتصوروا المصريين فقط هم سادة البشر وأنهم الشعب المختار من دون العالمين ، وأن الرب آمون وباقى الآلهة لا تنظر إلا إليهم ، ولا تعترف بأحد فى الكون إلا هم ، فإذا بإخناتون يقول لهم ليس المصريون إلا أبناء الله كباقى أفراد البشرية ، إن الأشوريين والحيثيين والنوبيين وكل من على ظهر الأرض هو أخ للمصرى ، ولا يعرف آتون شعباً مختاراً ، وإنما البشر جميعاً إخوة متساوون يتفاضلون بالتقوى وبصالح الأعمال .

ولقد كانت البشرية فى ذلك الوقت والأديان كلها لا تقوم إلا على الحقد والبغض والانتقام ، فجاء إخناتون يبشر بالمحبة وأن الله محبة ، وأن الحب كفيل بحل كل مشاكل البشر .

وفى النهاية ليس آتون سوى الحق ، وعبادته هى التمسك بالحق والذود عنه ، والموت فى سبيل الحق ولذلك فقد وصف إخناتون نفسه بأنه « العائش فى الحق » .

ودعوة مثل هذه الدعوة فى هذا العهد السحيق ، كان جديراً بها أن تؤلب جيوش القساوسة والكهنة الذين يعيشون من الاتجار بالدين ، ويقومون بدور الوساطة بين الناس وبين الأرباب ، ويستمدون سلطانهم من تملكهم مقاليد السماء ، ونطقهم باسم الآلهة وإعرابهم عن مشيئتهم ، ولذلك فقد ثاروا فى وجه إخناتون وقاوموه ، وعملوا على تأليب العامة عليه وهم فى كل زمان ومكان عبيد للأوهام والتقاليد ، ولكن إخناتون استطاع فى بادئ الأمر أن يتغلب على هذه المقاومة ، بأن يترك طيبة لآمون وكهنتها ، وينشئ عاصمة جديدة لملكه ودينه فى تل العمارنة[1] إلى الشمال من طيبة بأكثر من ثلثمائة كيلومتر . وجاء وقت تصور فيه إخناتون أنه أصبح سيد الموقف ، وفاته أن القديسين وأصحاب المبادئ والدعوات ، ليس لهم فى هذه الدنيا ، إلا أن يبتلوا وأن يعذبوا ، وأن تمنى دعواتهم

(١) كان يطلق على هذه المدينة أيام إخناتون اسم « آخت آتون » ، وقد جعل الأراضى المحيطة بها حرماً مقدساً .

بالإخفاق الظاهرى ولو إلى حين . فقد انتهزت بلاذ الشام وباقى ممتلكات مصر فى ذلك الوقت ، فرصة هذا الفرعون الرحيم ، الذى يدعو بدين الحب والسلام ، والتآخى بين البشر ، فثارت فى كل مكان وانتقضت على حكامها من المصريين ، وبدلا من أن يرسل لهم إخناتون عجلات حربية ، وكتائب مدججة بالسلاح الكثيف ، كما فعل من قبله تحتمس وخلفاؤه الذين شادوا هذه الإمبراطورية ، إذا بإخناتون يبعث لهم بهداة ومرشدين يطلبون منهم أن يعيشوا مع مصر فى سلام متعاونين ، ولكن هذه اللغة لم تكن لغة التخاطب بين الأمم فى هذه العصور السحيقة ، فانفصلت أجزاء الإمبراطوربة المصرية وتفككت ، وجاءت الأخبار والنذر أنها تجيش الجيوش للانقضاض على مصر نفسها . وطلب من إخناتون أن يعبئ قوى الشعب المصرى للحرب ليس فقط للدفاع عن ملكه ، بل لاسترداد إمبراطورية الأجداد وفرض سلطان الشعب المصرى على باقى شعوب الأرض ، فرفض إخناتون أن يأمر بالتعبئة ورفض أن يقوم بعمل يكون من شأنه إراقة الدماء . وكانت هذه فرصة كهنة آمون فألبوا الشعب على هذا الفرعون المجنون ، الذى يوشك أن يجعل مصر مسرحاً للغزاة الأجانب ، وهو ينادى بالحب والأخوة وعدم إراقة الدماء . . .

وتم للكهنة ما أرادوا وسقط إخناتون صريعاً ، وأسرع خلفه توت عنخ آتون إلى تغيير اسمه فأصبح توت عنخ آمون ، وعاد من جديد إلى طيبة وأعاد لآمون الإله الرهيب كل سطوته وجاهه وسلطانه ، وخربت عاصمة آتون وهياكله ومعابده وعفى على آثاره ، وقتل كل من اجترأ على التبشير بدين آتون دين المحبة والسلام والجمال[١].

وهكذا طويت صفحة من أزهى صفحات الإيمان المصرى القديم ، وهكذا

(١) قدمت هوليوود عاصمة السينما الأمريكية فيلماً رائعاً يمثل قصة جهاد إخناتون ودعوته السامية وذلك فى رواية عنوانها (المصرى) وقد تكلف إخراجها عدة ملايين من الدولارات ونجحت نجاحاً منقطع النظير. كما أخرجت الفرقة المصرية بعد ظهور الطبعة الأولى من هذا الكتاب رواية بعنوان «سقوط فرعون» وهى تدور حول هذا الموضوع .



انتهت حياة ملك سبق المسيح فى دعوته إلى الحب بأكثر من ألفى عام ، وسبق تولستوى وسبق غاندى بأربعة آلاف من السنين ، ولقد ذهب فى دعوته إلى حد الزهد فى إمبراطورية شيدت بالعرق والدم ، فتركها تتداعى ، ثم دفع فى النهاية حياته نفسها ثمناً لإيمانه ، ومات وعلى فمه ابتسامة ، وفى قلبه أمل ورجاء : فقد دعا إلى الحق وعاش فى الحق ومات من أجل الحق .

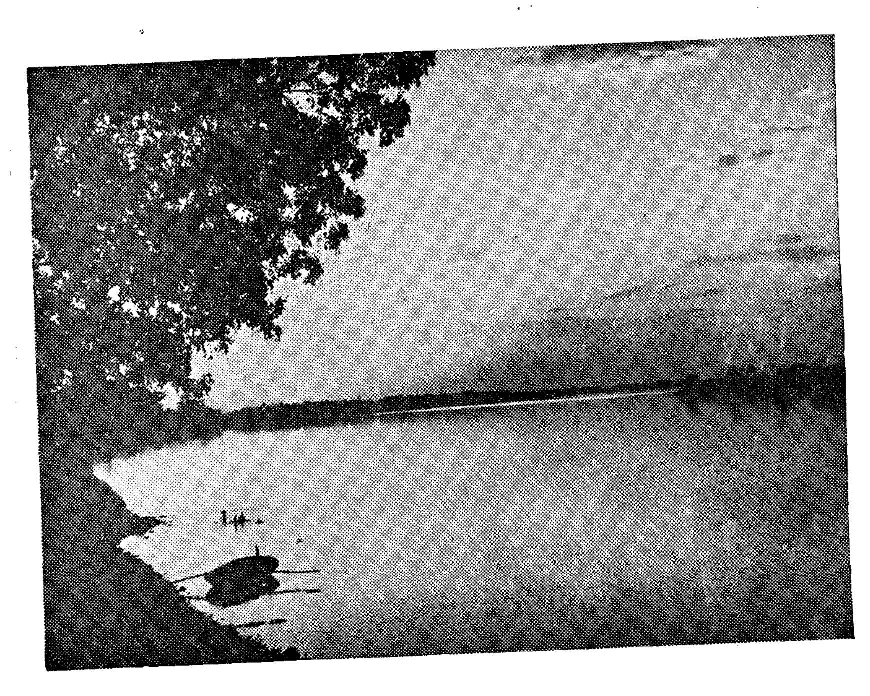
لقد استطاع الأنبياء من بعده على مر العصور ، أن يبينوا للناس ما أغلق عليهم فهمه أيام إخناتون ، ولقد ساعد تطور الزمن ، ونضوج العقل البشرى على تقبل الأديان السماوية التى تدعو إلى التوحيد ، وإلى تجريد الله وتنزيهه عن الصورة والمكان والحيز ، وإلى ربط البشر برباط المحبة والتعاون .

ولكن دعوة إخناتون ستظل فريدة فى بابها من حيث إنها من ملك يجلس فوق عرش ، ولم يزعزع من إيمانه أن وجد ملكه يتهاوى من حوله ، وأن ذلك كان منذ أربعة آلاف من السنين .

ولقد احتل إخناتون من نفسى مكاناً رفيعاً ، ككل الذين دعوا إلى الحب



شرق



غرب

والسلام كسبيل لحل مشاكل البشر ، وهو ما أصبحت اليوم أومن به وأدعو إليه ، ولذلك فما رأيت الشمس تشرق إلا وذكرت إخناتون ودعوته إلى الحب .

وهأنذا على ظهر الرجاف فى أعالى النيل ، والشمس تشرق على الكائنات أسبح الله كما سبح إخناتون آتون . وليس آتون سوى اسم آخر بلغة العصر للرب الخالق ، فالله الذى نعبد هو سبب الأسباب ، هو الأول وهو الآخر وهو الظاهر وهو الباطن وهو بكل شىء عليم ، وكل هذه الصفات قد وصف بها إخناتون ربه آتون ، فالاسم قد اختلف ، ولكن المعنى واحد فى الحالين .

يغنى إخناتون لسيده فيقول له : « عندما تشرق بنور وجهك فالدنيا كلها فرح وسرور ، السماء والأرض والكواكب والنجوم والوحوش والطيور والحشرات والهوام ، وبنو الإنسان البيض والسود والحمر ، السائرون فى أحشاء الصحراء ، والضاربون فى بيداء الأرض ، والسابحون على صفحات الماء ، الجميع يسبحون بحمدك ويمجدونك فى علائك وبهاك . عندما تبسط أشعة رحمتك على كل من فى هذا الكون حتى العصاة والبغاة والمذنبين ، فأى الكائنات لا تصفق طرباً ، حتى الأسماك فى البحار تترنح من فرط السرور لأنك أشرقت بنور وجهك ، إن الكتكوت الصغير عندما يكسر البيضة ويخرج للحياة خافقاً بجناحيه ، إنما يشهد بعظمتك وقدرتك ، أنت خالق الجنين فى أمه . أنت خالق نطفة الإنسان . أنت واهب الحياة للجنين فى رحم أمه وملطفه حتى لا يتكدر ويبكى ، كيف لا وأنت المربى فى الرحم . أنت معطى الحياة لكل مخلوقاتك . أنت فاتح فم الجنين بالكلام ومعطيه حاجاته يوم تلده أمه . أنت الإله الأحد لا شريك لك فى الملك .

أنت مبدع الجمال من نفسك .

فالمدن والبلاد والقرى والطرق والأنهار كلها عيون تبصرك أمامها .

كيف لا وأنت آتون النهار فوق الأرض .

أنت آتون سيد الكائنات ، وأنا عبدك ، حبك فى قلبى ، أنت دائماً فى قلبى ،

أنت ، أنت لا إله إلا أنت ، ليس فى الوجود شىء إلا أنت ، تباركت وتعاليت[١] » .

تأملات

كل هذه الذكريات عن إخناتون وجهاده فى سبيل الدعوة إلى الله الحق ، جاشت فى نفسى هذا الصباح ، وأنا أشهد جيوش الظلام تولى أمام نور الشمس الذى ينساب إلى كل مكان ، متسللا فى بادئ الأمر فى رقة وهدوء بين الأوراق والأشجار ، وأنا أرى الألوان تتعاقب على لوحة السماء ، فالسحب يخف لونها الأسود القاتم ويرق من لحظة إلى أخرى ، ثم تتمزق وتتهلهل وتكتسى كلها بحواشٍ بيضاء ، ثم لا تلبث هذه الحواشى أن تصبح بنفسجية ، والأجزاء القاتمة تتحول بدورها إلى بيضاء ، والبنفسج يتحول إلى أحمر ، والأبيض إلى بنفسج ، وتتراقص الألوان وتتمازج وتتمازج ، ويومض الكون ومضة خفيفة ، ويرتعش الجسد من الداخل مع هذه الومضة ، وينظر الإنسان إلى الأفق فإذا بهذه الخفقة كانت من أثر بزوغ قرص الشمس .

من خالق الشمس ؟

وأسندت رأسى على حافة النافذة ورحت أفكر فى خالق الشمس ، كما فكر بنو البشر مذ طلعت عليهم هذه الشمس . لقد انقضى قرابة أربعة عشر قرناً على آخر نبى قال لنا فى بساطة ، كما قال الأنبياء من قبله : إن خالق هذه الشمس هو سيد الكائنات . ولكن هذه الحقيقة البسيطة البديهية ، التى كانت من الوضوح فى قلوب البشر كضوء هذه الشمس ، قد أصبحت اليوم محل

---

(١) ليست هذه سوى بعض المعانى التى لا تزال عالقة فى ذهنى ولكن من يريد الاطلاع على هذه النصوص وعلى قصة إخناتون بالتفصيل ، فليرجع إلى كتاب (مصر القديمة) لهنرى بريستيد الأمريكى ، ترجمة الدكتور حسن كمال – صفحة ٢٤٥ .

قيل وقال ، فقد نشأت دعوات ومذاهب مادية ، تنكر وجود الله الخالق ، وتعتبر أن ذلك كله ليس إلا ترهات ، وليس إلا أثراً من الأوهام والأساطير القديمة ، عندما كان الإنسان عاجزاً قاصراً عن فهم قوانين الطبيعة ونواميسها ، فعزا ذلك كله إلى وجود رب أعلى يهمين على هذا الكون ، وقد وجد الملوك والأمراء والأقوياء والإقطاعيون والرأسماليون ورجال الدين فائدتهم فى هذه العقيدة فتمسكوا بها ، وعمقوها فى نفوس الجماهير لتكون أفيوناً للشعوب يحول بينها وبين الثورة على أسيادها . أجل هكذا قيل وهكذا صورت الأديان . وهكذا يدعو اليوم بهذه الدعاية نفر غير قليل . ولعل قصة إخناتون التى سقناها تهدم هذا التصور من أساسه ، فهاهو ذا ملك فرعون قد آثر أن يضحى بملكه وأن يحطم الإمبراطورية التى ورثها عن أجداده وآبائه ، على مذبح الإيمان بالله والدعوة إلى الحب ، وعندما دعا عيسى ومحمد لعبادة الله ، لم يكونا ملكين ولم يكونا من الرأسماليين أو الإقطاعيين ، ولم يعملا على تخدير الشعوب ، وإنما على العكس من ذلك كله كانت دعوتهما ثورة على الملوك وعلى الإقطاع وعلى الرأسمالية ، وهم يدعون إلى التساوى بين البشر فى ظل إله واحد خالق لا يعرف أميراً ولا صعلوكاً ولا يميز بين ملك وفلاح وإنما يجازى الناس على ما يقدمون فى هذه الدنيا من صالح الأعمال ، من عمل وإنتاج وبر ورحمة بالناس .

ولكن فلندع ذلك كله جانباً ، لندع التاريخ وعبره وأقاصيصه ، لندع إخناتون وعيسى وموسى ومحمداً ولنبدأ منذ البداية ، لنستعمل هذه الآلة المركبة فى رؤوسنا ، لنفكر ، ولنفكر تفكيراً حرًّا طليقاً لا يقيده أى قيد ولا يحده حد ، لنضع جانباً الكتب السماوية وما حوت ، ولا نخضعن إلا لسلطان العقل والبديهات ، وما يقرره هذا العقل من حقائق وماديات . لنردد كل ما يقوله العلم المادى التجريبى وكل ما يردده الماديون الملحدون الذى ينددون بفكرة وجود الله ، ولنعرض هذه الأقوال على العقل ونسمع حكمه عليها .

الله لا يدرك بالحواس

يقولون : إن أحداً لم ير الله ، ولم يكلمه أحد ، وهو لا يحس ولا يشم ولا يلمس وإذن فهو غير موجود ، ولكن هذه لا يمكن أن تكون حجة علمية ، والعقل المجرد لا يستطيع أن يقبلها فمجرد عدم رؤية الإنسان لشيء أو إدراكه بحاسة من الحواس لا يمكن أن يكفى دليلا على عدم وجوده .

فإن فى الإنسان طاقة أخرى غير طاقة الحواس ، وهى طاقة الفكر الذى يخلق وجوداً خاصًّا به ، ويخلق معانى ومفهومات لا وجود لها إلا فيه ، وبهذه المعانى والمفهومات ، استطاع العقل أن يقطع هذه المرحلة الطويلة التى قطعها فى عالم الكشف والاختراع ، فقبل أن تكتشف قارة أمريكا كانت هناك عقول تتحدث عن وجودها ، وقبل أن تخترع الطائرة والغواصة ، والتليفون والتلفزيون ، كان البشر يحلمون بها ويتخيلونها ، ويتمنونها ، ولم يصعد أحد إلى القمر بعد ، ولم يبن المركب الذى سيحملنا إليه[١] ومع ذلك فقد بدأت شركات تبيع أرض القمر ، وتبيعها على ضوء خريطة مقسمة[٢] ، وتقدم الكثيرون ليشتروا أرضاً فى القمر . فالعقل البشرى إذن لا يقف عند حد ما يرى أو يسمع أو يلمس أو يشم ، وإنما هو يتدرج دائماً من هذه المحسوسات إلى المفهومات ، يؤلف بين الأجزاء المتناثرة ، خالقـًا منها كلا لا سبيل إلى إدراكه إلا بالعقل والعقل المجرد . وفى كل يوم نكتشف حقائق ومجاهيل كانت محجوبة عنا إلى الأمس القريب ، بل فى كل يوم تنقلب النظريات العلمية رأساً على عقب ، فمثلا عاش القرن التاسع عشر كله يبنى علمه على أساس أن الذرة هى الجزء

(١) نجح الروس بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى إطلاق قمرين صناعيين لا يزال أحدهما يطوف حول الأرض حتى كتابة هذه السطور ، وليس ذلك إلا مقدمة للصعود إلى القمر .

(١) هذا الموضوع محل قضية معروضة على القضاء الأمريكى ، ليحكم إذا كان هذا عملا تجاريا مشروعاً ، أم من أعمال النصب .

الصغير الذى لا يمكن تجزئته بعد ذلك ، وأحصيت عناصر هذا الكون الأساسية فى كشوف وقوائم ، وقيل إن كل عنصر منها يتألف من ذرة تخالف ذرة العنصر الآخر ، وها هو ذا القرن العشرون لا يكاد ينتصف ، حتى ينهار ذلك كله فإذا الذرة تنقسم فيخرج منها أقوى طاقة عرفها البشر ، وإذا بالعناصر التى كان يظن أنها مستقلة عن بعضها ليست فى حقيقتها إلا عنصراً واحداً . فمن الذى كان يصدق منذ مائة سنة فقط أن هذه الذرة الصغيرة التى لا تكاد ترى بالعين المجردة إذا انشطرت انبعثت منها هذه القوة المدمرة . ومع ذلك فقد استطاع العقل أن يصل إلى هذا السر الكامن فى الذرة ، والذى لم يكن يرى ولم يكن يحس أو يلمس أو يشم ، وقبل أن يكون من المستطاع أن تقسم الذرة بالفعل داخل المعامل ، كان العقل البشرى قد توصل إلى تصور إمكان ذلك ، بل لقد استطاع العقل البشرى عن طريق الحساب والرياضة والمعادلات الجبرية ، أن يعرف سلفاً مقدار القوى التى ستنبثق من هذه الذرة عندما تحطم ، وقد أيدت الوقائع المادية ، كل ما ظل العقل غافلا عنه ألوفاً وألوفاً من السنين ، وكل ما تصوره بعد ذلك وأدركه عند ما وصل إلى درجة معينة من النضج والتطور .

فالحجة التى تقول إن الله غير موجود ، لأن أحداً لم يره ، أو لأن أحداً لم يكلمه ، أو لأننا لا ندركه بالحواس ، هى حجة ساقطة لا يقبلها العقل ، الذى يرتاد فى كل يوم مجاهيل جديدة لم يسبق ارتيادها من قبل ، وبالتالى كانت خارج نطاق حواس الإنسان .

قانون السبب والنتيجة

ولنتساءل الآن على الأساس الذى يقوم عليه الفكر البشرى كله ، إنه يقوم على قانون السبب والنتيجة . فالعقل البشرى لا يستطيع أن يتصور أى حادث يراه دون أن يبحث وراء هذا الحادث عن علته ، والعقل البشرى لايمكن أن يهدأ أو أن يخلد للراحة أبداً إلا إذا اكتشف العلل والأسباب لكل ما يرى

أو يقع تحت سمعه وبصره وحواسه كلها ، واكتشاف هذه العلل — فى رأيه — هو العلم ، والعجز عن معرفة العلة ، هو الجهل ، وإذا كنا اليوم أكثر علماً ممن سبقونا من البشر ، فلأننا ندرك من علل الأشياء أكثر مما يعرفون ، ولأن هذا الإدراك قد جعلنا أكثر قدرة منهم على السيطرة على عناصر الحياة . فنحن اليوم أكثر قدرة على معالجة الأمراض ، لأننا بحثنا خلف علة هذه الأمراض ، ونحن اليوم نطير لأننا بحثنا خلف العلة التى مكنت الطير من الطيران ، وبمجرد أن عرفناها استطعنا أن نفيد منها فنطير ، فالبحث عن العلل هو جبلة العقل البشرى، وهو بالتالى سبيل التطور والارتقاء .

فإحدى بديهيات العقل وملكاته، أن لكل شىء فى هذه الدنيا سبباً وعلة؛ ما من متحرك إلا وله محرك ، ما من حادث إلا وله محدث ، ما من ورقة شجرة تنمو وتخضر وتتحرك ثم تسقط على الأرض إلا وخلف ذلك كله سبب وعلة ، ما من قطرة فى هذا الكون كله تتكون إلا ووراء ذلك سبب وعلة . هذا هو قاموس العقل وهذا هو قانونه الذى يعمل على أساسه ، إذا رأى مائدة سأل عن صانعها ، وإذا أعجبه ثوب سأل عن حائكه ، وإذا وجد إنساناً مقتولا سأل عن قاتله، وإذا وجد فى حديقته غصناً مكسوراً سأل عمن كسره، ولا يمكن أن يهدأ إلا إذا عرف جواب سؤاله .

ليس باستطاعة العقل أن يرى إنساناً مقتولا ، فيقول هكذا قتل ، وليس باستطاعته أن يرى بيتاً مهدوماً فيقول هكذا هدم ، إنه لا يمكن إلا أن يسأل ويتوقع جواباً مرضياً لسؤاله ، وقد لا يتلقى هذا الجواب ، وقد يظل الجواب مجهولا منه ، ولكن العقل يظل متأكداً أن هناك جواباً لسؤاله ، وأن هناك علة لما يرى .

لكل شىء سبب

وإذا كان الإنسان يسأل دائماً عن السبب ، فمن المحال أن يصده صاد

عن أن يسأل السؤال الأكبر ، أو بالأحرى السؤال الأول : لماذا خلق هذا الكون ، ومن الذى خلقه ، من الذى خلق هذه الشمس والقمر ، ولماذا خلقت ، من الذى خلقنا ، ولماذا خلقنا ، لماذا جئنا فى هذه الدنيا ، ولماذا نخرج منها ، ومن الذى جاء بنا ، ولماذا يذهب بنا ؟ هذه كلها أسئلة تدور فى النفس ويرسلها العقل ويتطلب عنها جواباً ، وسيظل يسألها وسيظل يتطلب الجواب ، وحسبك أن تراقب ابنك الصغير وهو يدخل لأول وهلة فى عالم الإدراك ، وهو يسألك عن كل شىء « ليه ، ليه » أى لماذا ، لماذا ؟ وهو فى هذا يردد سؤال البشرية الخالد ، ولا بد أن يجيب العقل عن هذه الأسئلة وعبثاً يستطيع أن يفر من الجواب . واللطيف أن إخواننا المغرقين فى العلم يتصورون أن منتهى العلم هو أن يتفادوا الجواب عن هذا السؤال ليغرقوا فى تفاصيل مما أوتوا من العلم .

فالإنسان فى أصله قد تطور من الحيوان ، والحيوان أصله من الأسماك ، والأسماك تطورت من نباتات البحر ، ونباتات البحر أصلها من الماء ، والماء أصله غاز ، والكرة الأرضية كلها بمائها وأرضها كانت كتلة ملتهبة انفصلت من الشمس ، ولم تكن الشمس بدورها إلا كتلة غازية كبرى تناثرت من كتلة الكون كله الذى كان جسماً غازياً واحداً . وكل مرحلة من هذه المراحل فيها كتب وكتب وعلوم وعلوم ، فثمة علم الحياة ، بفروعه من علوم النبات والحيوان والإنسان ، وعلم الطبيعة ، بفروعها من حرارة وبرودة وكهرباء ومغناطيسية وجاذبية ، وعلم الكيمياء ، وعلم الجيولوجيا ، وعلم الفلك ، كل هذه ليست سوى تفسيرات وتعديلات ، لتطور الكون والأحياء وكيفية نشوئه وتسلسل أطواره منذ كان كتلة غازية ، إلى أن أصبح بهذا التنوع وهذا الإبداع ، وهذه العوالم وهذا الإنسان الحى المفكر . ولكن هذا العلم المستفيض لا يغنى عن الرد على سؤالنا الخالد الذى لا يزال بغير جواب : « من الذى أوجد هذا الكون ؟ ولماذا أوجده ؟ » .

من الذى حرك الكتلة الغازية الأولى فجعلها تتحرك ، ولماذا حركها ، لماذا

جعل الغازات تنقسم ، لماذا جعلها تلتهب ، لماذا جعلها شموساً وكواكب ونجوماً ، لماذا كانت أرضاً وكانت عليها حيوانات وكان عليها إنسان ؟

وهنا يضيق البعض بهذا السؤال ويقولون : وما هو جدوى هذا السؤال ، ولماذا نشغل أنفسنا به ، والمهم أننا نعيش ، وها نحن أولاء على ظهر الحياة فلنستمتع بها ولننظمها ، ولنكف عن التساؤل مما لا طائل تحته ولا جدوى منه .

وهذا شأن الذين يضيق ذرعهم بالتفكير ، ولكن سيبقى هناك دائماً هؤلاء الذين يريدون أن يعملوا أفكارهم ، ولولا هؤلاء لظل الإنسان فى لجة الغابة يعيش كالحيوان ، وما التطور إلا نتيجة الفكر ، ونتيجة هذا السؤال الذى ما فتئ المفكرون والفلاسفة والأنبياء يسألونه منذ أقدم العصور : « من الذى خلق الكون ، من الذى حركه الحركة الأولى ، من الذى وجهه هذا التوجيه ، من الذى أبدعه هذا الإبداع ؟ » .

الطبيعة والمادة والصدفة والنواميس

ووجد أقوام أنه من العبث أن يتجاهلوا السؤال بحجه صعوبة الرد عليه ، فجاءونا بجواب ، فقال بعضهم : الطبيعة هى خالقة هذا الكون ، فلما قيل ما هى الطبيعة ؟ قالوا هى المادة التى نراها وتحيط بنا ، والنواميس المبثوثة فى هذه المادة والتى تجعلها متطورة دائماً . ولكن من هذه النواميس أن كل جسم ساكن يبقى ساكناً ما لم يطرأ عليه طارئ فيحركه ، فما هو هذا الطارئ الذى حرك المادة الأولى ؟ فيقولون لك الصدفة ، وبهذا نرى أنفسنا أمام أربع كلمات غامضة وهى الطبيعة والنواميس والمادة والصدفة ، وهى كلها تنتهى إلى نتيجة واحدة وهى القول بأن واحداً من هذه الأسماء هو السبب الأول الذى حرك هذا الكون وانتهى به إلى ما هو عليه الآن وما سيكون عليه فى المستقبل . ونقول آمنا وصدقنا فليكن اسم هذا السبب الأول الطبيعة ، أو فليكن المادة ، أو فليكن النواميس المركبة فى المادة ، أو فلتكن الصدفة المجردة ، والمهم أن هذا

الكون هو نتيجة لسبب معين . ولا يمكن إلا أن يتابع العقل رحلته فيبحث كنه هذا السبب الأول .

فاقد الشيء لا يعطيه

إن بديهية أخرى من بديهيات العقل التى لا يستطيع أن يمارى فيها أو أن يناقشها ، هى أن فاقد الشيء لا يعطيه ، أو بالأحرى أن الموجود لا يمكن أن ينشأ من المعدوم ، والكل لا يمكن أن ينشأ من الجزء ، فالسبب الأول الذى حرك هذا الكون لا يمكن إلا أن يكون قادراً على تحريك هذا الكون ، ولا بد أن يكون كبيراً كبر هذا الكون ، قديماً قدم هذا الكون ، ولا بد أن يكون قائماً ما بقى هذا الكون ، فإذا كان رجال العلم يقولون إن هذا الكون لا أول له ولا آخر فى الزمان أو المكان ، فلا بد أن هذه العلة الأولى كذلك لا أول لها ولا آخر فى الزمان أو المكان . وإذا كانت الحياة ترى مبثوثة فى هذا الكون ، فلا بد أن هذه العلة الأولى تنطوى على نواميس الحياة ، وإذا كنا نرى فى أنفسنا عقلا وتفكيراً وحكمة وإدراكاً ، فإن هذه العلة الأولى التى انبثق منها الكون لا يمكن إلا أن تكون منطوية على نواميس العقل والتفكير ، وذلك كله تطبيقاً لبديهية أن فاقد الشيء لا يعطيه ، والموجود لا يمكن أن ينشأ من المعدوم .

وهكذا نرى أنفسنا أمام حقيقة لا يمكن إلا أن يقربها العقل بحكم نواميسه وبديهياته ، وهو أن هذا الكون لا يمكن إلا أن يكون قد نشأ عن علة وسبب أول ، وهذه العلة أو هذا السبب الأول ، لا يمكن إلا أن يكون قديماً ، لا أول له ولا آخر ، عظيماً عظم هذا الكون ، مهيمناً ومسيطراً على هذا الكون ، منطوياً على كل ما فى هذا الكون من نواميس ، الحياة والإرادة والفاعلية والحكمة والتدبير . وعند هذا القدر نكون قد انتهينا إلى ما انتهى إليه المؤمنون بالله مع فارق فى الأسماء ، فالمؤمنون يطلقون على هذه العلة الأولى الموصوفة بهذه الأوصاف السابقة ، كلمة الله والرب والخالق ، والماديون يسمون هذه العلة الأولى

الطبيعة أو النواميس أو المادة أو الصدفة ، وقد رأينا أن إخناتون قد عزا صفات الربوبية كلها إلى كائن وراء الشمس سماه آتون ، ومع ذلك فآتون هذا هو الرب كما يعبده المسلمون أو المسيحيون ، وليس هناك مانع عقلي يحول دون قبول أسماء جديدة لله . فأسماء الله تختلف من لغة إلى لغة ، ومن شعب إلى شعب ولكن المسمى كان وسيبقى شيئاً واحداً وهو أن لهذا الكون خالقاً قديماً قادرًا حكيماً ، فليسمه الطبيعيون طبيعة وليسمه الماديون مادة، فهم لم يخرجوا عن الاعتراف بقيام هذا السبب الأول . ومتى كان وجود هذا السبب الأول هو حقيقة لا يمكن للعقل البشرى إلا أن يصدع بها ، فإن باستطاعتنا أن ننتقل بعد ذلك خطوة أخرى أو بالأحرى خطوة أقرب ، فإننا لم نخلق بعقول فقط ، بل إننا ننطوى على إحساسات ومشاعر ، والعقل لا يمكن أن يغفل عن دلالة هذه الإحساسات والمشاعر أو أن يسقطها من حسابه .

الإيمان فطرة فى النفوس

وما دام العقل لا يستطيع إلا أن يقرر ويعترف بوجود سبب أول لهذا الكون ، مما دعا بعض الفلاسفة إلى القول بأن الله ضرورة عقلية ، فقد بقى أن نضيف أن المشاهد والمحسوس الذى يدركه كل إنسان من أمر نفسه ، أن معارفنا فى هذا الكون لا تنبثق من العقل وحده . بل إن بعض هذه المعارف قد ركبت فى طباعنا وفطرتنا فهى غرائز ، فالطفل المولود يصيح ويبكى طلباً للغذاء، دون أن يدرك بعقله أنه فى حاجة إلى الغذاء لكى يعيش، والطفل — أى طفل، ابتداء من طفل الإنسان حتى مولود الحيوان — يدرك بمجرد خروجه إلى هذه الحياة ثدى أمه . فالإدراك إذن ليس مقصوراً على العقل، والكائن الحى يولد وقد ركب فى طبعه كل المعارف التى تساعده على المحافظة على حياته ، بل فيه شىء فوق الغرائز ، فيه إلهام لا صلة بينه وبين العقل والتفكير ، وإنما ينبع هذا الإلهام من ملكة أخرى وحاسة خفية لا تمت إلى العقل والفكر بسبب ، بهذا

الإلهام يؤلف الموسيقار قطعة من الموسيقى فتخلد على مر الزمن وتبعث بالسعادة فى نفوس الملايين ، وليس للعقل أى دخل فى تركيب هذه النغمات وإنما هى تنبثق انبثاقاً من معين مجهول هو إلى الشعور والإحساس والعاطفة أقرب منه إلى العقل والإدراك . . .

وبهذه الملكة وهذه الطاقة ، يؤلف الشعراء قصائدهم ، ويكتب الأدباء قصصهم ، وينحت المثالون تماثيلهم ، ويرسم الفنانون صورهم ، وتقف الناس مشدوهة دائماً أمام آثار الفن ، إنها تشعر بالأثر العميق للصورة ، وتتساءل لماذا اختار الفنان هذا الموضوع ، لماذا اختار هذه الألوان ، لماذا سجل هذه الحركة ؟ كل هذه أسئلة لا يستطيع الفنان نفسه أن يجيب عنها ، هكذا كانت الصورة ، وهكذا كانت القصيدة ، وهكذا صدر عنه الغناء .

ففى الإنسان طاقات خفية غير طاقة العقل والفكر ، وبهذه الطاقة يحب فيفقد صوابه ، وعبثاً تستطيع أن تخاطب عقله ، وبهذه الطاقة يقوم بجلائل الأعمال التى تبدو فى أول أمرها جنوناً بمقاييس العقل العادية ، ولكنها لا تلبث أن تتحول بعد أن تتم إلى أعمال باهرة .

فلا بد من التسليم بوجود هذه الظاهرة ، ظاهرة الوجدان والشعور وأثرهما فى حياة الإنسان ، ومن العبث أن يتنكر العقل لهذا الشعور والوجدان وإلا كان متنكراً للوجود الإنسانى نفسه .

ومنذ عرف الإنسان نفسه ، وهو يميل بفطرته وشعوره ووجدانه نحو التسليم بوجود خالق خلقه ، وهو مستعد دائماً أبداً للاستماع لنداء هذا الخالق والنزول عند كل ما يقال له إنه أوامر هذا الخالق ونواهيه . بل هو مستعد دائماً أن ينزل عن الكثير مما يملك فى سبيل مرضاة هذا الخالق ، وقد ذهب إلى أبعد من ذلك كله فيضحى من أجل هذا الخالق الذى لم يره ولم يسمع صوته ولم يكلمه . وقد افترقت الإنسانية مذ وجدت فى هذه الدنيا فى كل شىء إلا بالنسبة لهذا الشعور وهذا الإحساس . هناك أقوام عاشوا ويعيشون فى الغابات

وأقوام يعيشون اليوم فى ناطحات السحاب ، وهناك أقوام عاشوا على ضفاف النيل منذ خمسة آلاف سنة ، وآخرون عاشوا فى المكسيك ، منذ ألوف من السنين كذلك . وهناك أقوام عاشوا ويعيشون عند القطب الشمالى أو الجنوبى ، وآخرون يعيشون فوق قمم الجبال فى هضبة التبت فى أحشاء آسيا ، وهناك أقوام مبعثرة فى جزر متناثرة فى المحيط الهادى ، ومع ذلك فهؤلاء جميعاً يعبدون الله ويقدسونه ، ويصدعون بما يقوله لهم كهانهم أو قساوستهم أو سحرتهم من أن هذه هى مشيئة الله .

إجماع البشر على التدين

وقد تباينت معتقدات البشر تبايناً غريباً فى هذا الموضوع ، فابتداء من التمساح حتى القطط والكلاب والخيل والعجل والقرد والأشجار والنباتات والأنهار والبحار والجبال حتى أرواح الأجداد ، والعناصر والرعد والبرق والكواكب والنجوم — هــذه كلها أو بعضها مجتمعة ومنفردة كانت محلا للعبادة . واختلفت الطقوس بحسب كل عصر ومكان وبحسب كل شعب وكل أمة ، ومع ذلك فإن هذا التنوع هو آية الإجماع . . . الإجماع على أن البشر لا يستطيعون أن يعيشوا بغير دين ، أو بالأحرى بغير إيمان بالله . ودعك بأنه قد وجد فى كل عصر وزمان عدد قليل أو كثير قد شذ عن هذه القاعدة واستغنى عن هذا الإيمان ، فإن الاستثناء دائماً يؤكد القاعدة ، والقاعدة هى أن البشرية دائماً أبداً تميل بفطرتها إلى العبادة ، تميل إلى التسليم لهذا الخالق وترتاح إلى كل من يحدثها عنه . وتقوم من حين لآخر ثورات عاصفة على رجال الدين لما يرتكبونه من أخطاء ، وقد يستبدل الإنسان أو الجماعة ديناً بدين ، ولكن الأمور تستقر فى النهاية ، وينتصر الإيمان والشعور بوجود الله ، هل أنا فى حاجة لضرب بعض الأمثلة ، فلأضربها من العصر الحديث الذى وصلت إلينا أخباره بالتفصيل ، فعندما قامت الثورة الفرنسية كان غضب الشعب على الكنيسة وعلى المسيحية عظيماً لكثرة

ما عانوا من رجال الدين ، فألغيت الكنيسة ونودى بعبادة العقل وتوج روبسبيير كاهناً أعظم لعبادة العقل والحكمة ، وعلى الرغم من أن ذلك هو اعتراف بوجوب التدين وبوجوب عبادة العقل أو الحكمة ، فإن نابليون بعد الثورة الفرنسية قد غزا قلوب الفرنسيين وجعلهم يرضون عن تنصيبه قنصلا فإمبراطوراً لأنه أعاد فتح الكنيسة وأعاد للدين سلطانه .

وفى العصر القريب قامت ثورة عاتية على الدين فى روسيا السوفيتية وقام حزب الدولة بمحاربة الفكرة الدينية . وبعد ثلاثين سنة من استتباب النظام الشيوعى فى روسيا ، وبعد أن نشأ جيل كامل بل أكثر من جيل وهو يتلقى التعاليم المادية ، بل بعد أن خرجت روسيا من الحرب فائزة منتصرة مما برهن على صلاحية نظامها وقوة حكومتها ، إذا بها تفتح الكنائس من جديد ، وإذا بها تجعل دعايتها للعالم كله أنها لا تتعرض للأديان وتدعو القساوسة من أنحاء الدنيا ليشهدوا بأعين رؤوسهم الكنائس المفتوحة فى روسيا ، وإذا بها ترسل شيوخ المسلمين إلى العالم الإسلامى ليبشروا بأن المساجد مفتوحة وأن المسلمين يمارسون شعائر دينهم . ويكون معنى ذلك أن زعماء الشيوعية أدركوا بالتجربة العمليه أن قوة الدين لا تغلب ، وأنهم إذا أرادوا للشيوعية نجاحاً أو انتشاراً فيجب أن لايجعلوها عدوة الدين أو بالأحرى عدوة الإيمان بالله ، وهكذا ينتصر الإيمان أبداً ويعلو دائماً فوق النظم وفوق المذاهب ويسرى خلال القرون والأجيال عبر الإنسانية كلها .

فالإيمان حاجة طبيعية يحس بها كل إنسان ، ويتقوى بها كل إنسان فى معركة الحياة ، لأنه يستمد من هذا الشعور بوجود الله الخالق ، أملا فى ساعة الضيق ، وعوناً فى ساعة الشدة ، ورجاء فى الإنصاف والعدل إن هو حاق به ظلم وادلهمت عليه الخطوب . يحس الإنسان من نفسه وهو يتجه إلى هذه القوة الخفية بالدعاء والرجاء أو الشكر والثناء ، بقوة وسعادة وراحة . فإذا كان هذا هو ما تحس به الجمهرة الغالبة التى تصل إلى درجة الإجماع من البشر ،

فبأى منطق وبأى حجة يمكن أن يجحد العقل حقيقة واقعة ؟ ! وبقى علينا أن نتساءل : من أين تولد هذا الشعور بوجود الله فى النفس البشرية إذا لم يكن يعبر عن حقيقة واقعة وموجودة ؟ إن الأصل أن أحداً لم ير الله . والأصل أن الله لا يدرك بالحواس ، فإذا لم يكن لله وجود بالفعل فى هذا الكون فما هو تفسير قيام هذه الحقيقة وثبوتها فى وجدان البشر ، ولماذا أجمعوا عليها كل هذا الإجماع ، ولماذا زالت الإمبراطوريات ودالت ، ودرست أخبار الملوك والغزاة والفاتحين ، فى حين خلدت البشرية بضعة نفر ، لاتزال تسير خلفهم ، ولا تزال تقيم الهياكل والكنائس والمساجد طبقاً لتعاليمهم ، ولم يكن هؤلاء النفر ملوكاً ولا أباطرة ، ولم يكونوا علماء أو فلاسفة ، وإنما كانوا أفراداً من عامة الشعب فقراء أيتاما ، ومع ذلك فهذا الطراز من البشر هو الذى طبع البشرية ولا يزال يطبعها بطابعه ، لمجرد أنه دعا إلى سبيل الله وقال للناس اعبدوا الله . وهذا يجرنا إلى التحدث عن هذا الدليل الثالث وهو شهادة الرسل . وحسبنا الآن أن نقرر أن العقل لا يستطيع أن يفر من التسليم بأن إجماع البشر فى كل زمان ومكان على الاحساس بوجود الله هو آية على وجود الله بالفعل ويكون الوجدان المطلق قد التقى مع التفكير العقلى البحت بحيث يكمل أحدهما الآخر ، فالعقل يقول إن لهذا الكون سبباً أول أبدعه ، والوجدان يذهب إلى أبعد من ذلك فيقدس هذا السبب ويعبده ، ثم يجىء هذا النفر من البشر ليعرفوا الطريق إلى الله وقد أطلقوا على أنفسهم اسم الأنبياء والرسل ، فلنبحث أمرهم ولنستجل حقيقتهم .

الأنبياء والرسل

لقد كانوا أفراداً من البشر كسائر ما فى هذا الكون من بشر ، لم يكونوا من أكابر القوم ، بل لم يكونوا من أصحاب النفوذ والسلطان ، لم يشتهروا بأنهم علماء ، ولم يكونوا قبل دعوتهم من قادة الرأى . بل إن بعض هذا النفر قد

خرج من مجتمعات بدائية لم تشتهر بعلم أو حضارة ، بل لم يكن لها مقومات الدولة أو المجتمع المتمدين . وفجأة أعلن للناس أن الحقيقة الخالدة قد أشرقت فى نفسه وأنه تلقى وحياً من رب العالمين خالق هذا الكون ، ليعرف الناس طريق الرب ، ويدعوهم لصالح الأعمال والتحلى بمكارم الأخلاق ونشر العدل والإحسان والمحبة بين الناس .

وكان من طبيعة هذه الدعوات أن تسوى بين الناس جميعاً كبيرهم وصغيرهم لأنها تجعلهم جميعاً مخلوقين لرب فوق الجميع ، وكانت هذه الدعوة تسفه أحلام الملوك الذين يقولون للناس إنهم هم الآلهة أو أبناء الآلهة ، وكانت تقوض سلطان الكهنة الذين يتجرون بالدين الرسمى والمعتقدات المتوارثة ، فكان طبيعيًّا أن تقوم هذه السلطات لمقاومة هذا النفر من البشر ، وكان طبيعيًّا أن يجردوا عليهم كل صنوف التمحيص والنقد والامتحان ، فيتصورونهم مجانين حيناً وسحرة حيناً آخر أو شعراء حيناً ثالثاً ، ولكن ذلك لم يثن هؤلاء الأفراد عن المضى فى دعوتهم ، وفى كل يوم يكسبون أنصاراً جدداً ، ويلتف حولهم الفقراء والمستضعفون ، فينظر لهم بمنظار جديد ، وهو أنهم عصاة متمردون على السلطة الحاكمة ، فيضطهدون ويضطهد أتباعهم ، فإذا بهؤلاء الدعاة ومن تبعهم من الأنصار يثبتون فى وجه المحنة ، وإذا بهم يستهينون بالعذاب فى سبيل هذا الإيمان الجديد ، وإذا بالضعفاء يصبحون عمالقة بأرواحهم ، وإذا بالحصون تتداعى أمام هذا الطراز العجيب من البشر ، فقد فطرت النفوس على خوف الموت ، فإذا بالإيمان الجديد يطرد الخوف من قلوب المؤمنين ، وإذا بالرجل يلاقى الأسد الذى سيفتك به وهو يسبح ويرفع عقيرته بالغناء تمجيداً للرب ، رفع المسيحيون على الصلبان وسمرت أيديهم وأرجلهم ، وتركوا لتأكل العقبان والنسور لحومهم ، ولكن ذلك لم يزد الإيمان الجديد إلا انتشاراً وتغلغلا فى النفوس ، وكلما زاد الاضطهاد زاد تسابق الناس إلى الدين الجديد ، وكلما تضاعف عدد الشهداء أصبح الأنصار يعدون بالملايين ،ولم تلبث الإمبراطورية

القاسية العنيدة ، لم تلبث دولة القياصرة أن استسلمت فاعتنقت الدين الجديد وتحول بطرس الصياد وتلامذة المسيح الآخرون ، الذين كانوا نجارين أو فلاحين أو صيادين إلى نجوم وشموس تستضيء بها روما وبيزنطة ، ثم أوربا كلها ذات الفلاسفة والعلماء والكتاب والملوك والفرسان والأبطال .

إيمان المسلمين

وتكررت الرواية بنفس الأسلوب عند ما قام محمد بن عبد الله فى قريش يدعو إلى التوحيد ، لقد صبوا جام غضبهم على أتباعه وأنصاره ، فكانت الأحجار توضع على صدورهم ، وكانت السياط تمزق لحومهم ، وهم لا يزيدون عن قولهم : «أحد ، أحد » ، وعندما قدر لواحد منهم أن يقع فى قبضة المشركين فراحوا يعذبونه ويقطعون أعضاءه إرباً إرباً ، لم يسمعوا منه أنيناً أو شكوى ، بل قال شعراً خالداً :

ولست أبالى حين أقتل مسلماً   على أى جنب كان فى الله مصرعى

ويرسل هذا النبى العربى الداعى فى أحشاء الصحراء بدعوة التوحيد ، يرسل رسائله إلى ملوك الأرض ، إلى كسرى الفرس وقيصر الروم ورئيس مصر ، فيمزق بعضهم رسالته فيدعو الله أن يمزق ملكه ، كما مزق رسالته ، ويسخر البعض من دعوته ، ويتربص البعض الآخر فى انتظار ما تسفر عنه التطورات ، وإن هى إلا سنوات تعد على الأصابع ، حتى كان أتباع هذا النبى الأمى يمزقون ملك كسرى ، ويطردون قيصر من آسيا ويفتحون مصر ، ويبلغون بجيوشهم من المحيط إلى المحيط ، وتقف أوربا مرتجفة مرتعدة فى انتظار انهيار آخر حصونها .

ويقف العلم مبهوتاً مشدوهاً غير قادر على تعليل هذه الظاهرة أو تفسيرها ، فالعلم يقرر إن البطل أى بطل ، هو ثمرة البيئة التى يعيش فيها ، وهو انعكاس للعوامل والعناصر المختلفة التى تجيش بها هذه البيئة ، فنابليون مثلا هو حاصل

جمع عظمة فرنسا العسكرية فى عهد لويس الرابع عشر ، وثمرة الثورة الفرنسية التى فجرت حيوية الشعب الفرنسى ، وأثر العديد من العلماء والكتاب والفلاسفة الذين ظهروا فى هذا القرن . لقد تفاعلت كل هذه العناصر فكانت نابليون .

والاسكندر المقدونى ، هو ابن أبيه فيليب الذى وحد الاغريق وقهرهم بقوة جيوشه ، وهو تلميذ أرسطو أعظم فلاسفة العالم . وهكذا يحلل العلم كل كاتب وكل شاعر وكل بطل ويرده إلى أصوله الأولى فى بيئته[١] . ولكن شيئاً من ذلك لا يمكن أن يقال بالنسبة لعيسى الذى لم يحصل علماً ولم يكن شيئاً ، وكذلك محمد الذى لم يحصل علماً ولم يكن شيئاً ، ولم يكن فى بيئة كل من الرجلين ما يمكن أن يصدر للعالم . وليس باستطاعة العلم أن يصف هذا الطراز من البشر ، فهم ليسوا ملوكاً ، وليسا فلاسفة ، وليسوا شعراء ، وليسوا عسكريين ، إنهم طراز خاص من البشر لا يمكن للعلم إلا أن يعترف بأن فيهم سرًّا يستعصى على التفسير ، ولم يبق أمامنا إلا أن نقبل التفسير الذى قال به أصحاب الشأن من أنهم رسل رب العالمين ، وأنهم قالوا ما قالوا وفعلوا ما فعلوا لا عن أمرهم ولكن بوحى استضاءت به نفوسهم واطمأنت قلوبهم إلى أنه ينبع من المعين الأزلى الخالد لهذا الكون . وها هوذ القرآن بين أيدينا تغيرت الدنيا ولم يتغير ، فهو لا يمكن أن يكون من صنع البشر ، لأن كتب البشر إذا مر عليها جيلان أو جيل فقط فقدت جدتها وأهميتها ، وطرأ على العالم من التطورات والأحداث ، ما يقلب نظرياتها ، ولكن القرآن باق كالطود الراسخ ، لا يزيده العلم إلا جلاء لآياته وإظهاراً لمكنونات أسراره التى جهلها الأقدمون ، لا ، إن هذا الكتاب وأمثاله لا يمكن أن يكون من صنع البشر ، فإن كتب البشر لا يمكن أن يكون لها كل هذا السلطان .

(١) لا يشذ كارل ماركس خالق الشيوعية عن هذه القاعدة ، فإن آراءه وأفكاره ، ليست سوى رد فعل طبيعى لما أحدثته الثورة الصناعية من آثار ونتائج على التفكير والحياة الأوربية فى مستهل القرن التاسع عشر .

ولقد قال لنا أصحاب هذه الكتب إنها وحى من أمر الله ، وليس أمامنا إلا أن نصدقهم ، لأنه لا يمكن أن ترمى أعظم نماذج عرفتها البشرية ، وأقربها للكمال الإنسانى بالكذب . والعقل لا يتصور أن هذا البناء الشامخ، ونعنى به الإيمان الإسلامى والحضارة الإسلامية ، قد شيد على الكذب .

إن الكذب إذا راج فى فترة من الفترات فلا يمكن أن يقوى على تمحيص الزمن ، لا يمكن أن يغالب الدهور والأيام ليصل إلينا نحن الذين استضأنا بنور العلم والعرفان ، فنرى عقولنا مبهورة بالمعجزة العقلية التى بهرت أجدادنا من قبل ، ألا وهى معجزة القرآن .

إن العقل، عقل أى جاحد أو مكابر، يأبى أن يتصور أن يكون الرسل كاذبين فيما قالوه من أنهم يتكلمون بوحى من رب العالمين ، بعد أن أيدتهم الحوادث وانتصرت دعواتهم على العالمين وخلدت كتبهم دون سائر كتب الناس أجمعين ، فلم يبق إلا أن نصدقهم وأن نصدق كتبهم ، ونسير على نهجهم ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، ونتخذ منهم قدرة ومثلا أعلى نستضىء به ونسترشد فى كل تصرفاتنا . وأن نستمد من وجودهم ومن دعوتهم وانتصارهم دليلا عقلياً جديداً على وجود الله نضمه إلى الأدلة السابقة .

والحق أن هذه الأدلة يأخذ بعضها برقاب بعض ، فوجداننا يأبى إلا أن يتبع الرسل ويصدقهم فى دعوتهم إلى الله ، وعقولنا لا تستطيع أن تعمل بغير التسليم بوجود الله ، وهكذا يلتقى العقل والعاطفة وقلما يفعلان ، وليس وراء ذلك شهادة ناطقة بوجود الله .

تسامح

ويبقى بعد ذلك أننى وأنت قد نختلف حول الدين الذى نتبع أو نختار ، بل قد نختلف حتى لو كنا فى دين واحد ، حول هذا النسك من العبادة ، أو حول تصور من التصورات . وقد تكون عقولنا فى العصر الحديث قد أصبحت

أكثر ميلا إلى النقد والتمحيص وعدم التسليم بسهولة ، وقد يسرع إنسان إلى تصديق كل ما يقال عن المعجزات والخوارق والأعاجيب ، وقد يرفض عقل التصديق بكل ذلك ، وهذا كله مفهوم ومتصور ، وقد وجد فى كل عصر وزمان ، وهو لا يطعن فى جوهر الإيمان بوجود الله الخالق وبالكتب السماوية وبقية الرسل . وعلى كل إنسان أن يؤول ما لا يرتاح له عقله إلى الصورة والكيفية التى يرتاح إليها ، وهو آمن مطمئن إلى أنه لم يخرج عن نطاق الدين ، الذى هو إدراك بالعقل وتصديق وسكينة بالقلب ، فمرد الأعمال كلها إلى النيات ، وما العبادات كلها ، بل ما الإيمان بالله من أساسه إلا وسيلة لنفعنا فى حياتنا أفراداً أو جماعات ، ولمدنا بالقوة والرضا والسكينة والعزاء ، فعلى كل إنسان أن يلتمس سكينة نفسه ، وما يطمئن به قلبه ، وعليه أن يدرك أن الإيمان بالله هو علاقة بين الإنسان وخالقه ، فلا يشركن أحداً معه فى تكييف إيمانه ، وحسبه أن يخلص نيته ويحسن طويته ، كى يكون ناجحاً فى هذه الدنيا وآمناً فى الدنيا الآخرة .

ربنا آمنا

وعلى هذه الصورة قضيت الصباح فى هذه التأملات ، فأحسست أن واجبى يحتم على أن أكتبها وأسجلها ، ما دامت من وحى الجنوب ، وما دامت هذه المذكرات قد أعدت لتسجيل كل ما يدور فى نفسى من خواطر وتأملات. وقد أكون قد أثقلت على بعض القراء بهذا الحديث الذى قد يراه معقداً وفلسفياً ، وقد يراه البعض لا فائدة منه ، لأنه يرى أن الإيمان بالله مسألة فطرية كما قلت ، وهى فى كل نفس وفى كل قلب ليست فى حاجة إلى كل هذه الأقوال ، ومع ذلك فهذه الأفكار والتأملات هى جزء لا يتجزأ من هذه الرحلة ، فمنذ أيام وأيام ونحن نعيش مع الطبيعة ، مع كل ما يذكرنا بعظمة الكون واتساعه وبالتالى عظمة خالقه .

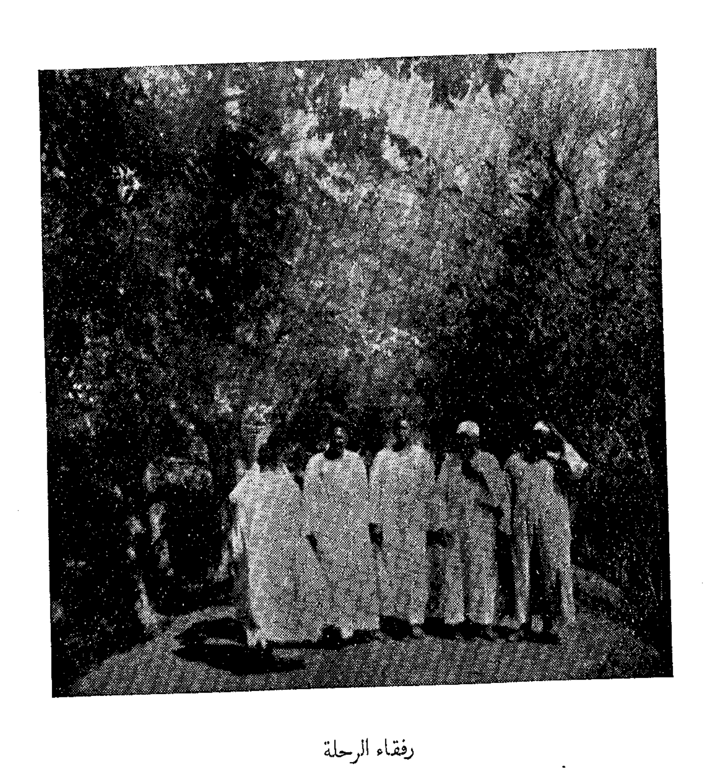
هذه الأرضة التى تبنى بيوتها ، وهذه الجوهرة التى تضىء بالليل ، وهذه الزرازير ، وهذا الجرنتى ، وهذه التماسيح وهذه الأسماك ، وهذه الحشائش والقش والبوص، وهذه الشمس، وهذه النجوم، وهذا القمر، أليست كلها، ونحن نعيش معها ، تذكرنا فى كل لحظة بعظمة الخالق الذى نظم الكون هذا النظام وأبدعه ، فكيف لا يحتل التفكير فى هذا الخالق ، عقولنا ونفوسنا ويملأ علينا خواطرنا .

قد ينسى العائشون فى المدينة العصرية الذين خلقوا لأنفسهم عالماً ميكانيكياً آلياً ، التفكير فى الله ، وهم يفعلون كل شىء عن طريق الضغط على أزرار هنا أو هناك ، وهم يركبون السيارات ، ويصعدون بالمصاعد ، ويتكلمون فى التليفون ويسمعون الراديو ويتسلون فى السينمات ، لهؤلاء أن ينسوا وسط هذا الخضم أنهم هم وكل ما يخلقون لايعدون أن يكونوا ذرة فى هذا الكون... أما نحن الذين نعيش وسط الطبيعة ومع الطبيعة منذ ثمانية أيام ، فكل ما حولنا يذكرنا بتفاهتنا وضآلتنا لو أننا نظرنا للحياة نظرة مادية بحتة ، وليس سوى الإيمان بانطواء الكون على سر أعمق من المادة هو الذى يرتفع بنا على ما يحيط بنا من كائنات ، وليس هذا الشىء سوى العقل والروح والفكر . وإذا كان للعقل والفكر أو الروح كل هذه المكانة فى قيمة الإنسان ، وإذا كنا لا نستطيع أن نتخيل هذا العالم الصغير وهو الإنسان بغير عقل ، فما أعجب أن يتصور إنسان أن يكون هذا الكون كله يسير بغير عقل أو فكر ، لا وألف مرة لا ، آمنت أن لهذا الكون عقلا مدبراً حكيماً لا يقوم الكون إلا به .

ودورى يا دواليب الرجاف دورى . . . دورى واقطعى بنا بحر الجبل متراً بعد متر وميلا بعد ميل ، وسط نباتات البردى التى لا تنقطع ، فهذه الرحلة مهما طالت فسوف تنتهى ، وحياتنا كلها ، مهما طالت فبدورها سوف تنتهى ، وكل ما على الأرض — على ما يقول العلم الحديث — سوف ينتهى ، ويبقى الخلود

والأزل للوجود ، للذى خلق الكون أول مرة ، والذى يعرف وحده دون غيره ، لماذا خلقه ؟ وكيف خلقه ؟ وما الذى سيفعله به مرة أخرى ؟

ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين .



رفقاء الرحلة

٩

الاثنين ٩ أبريل

. . . إن هؤلاء القوم الذين يتجلون أمامنا بهذا العرى ، أقوام لهم عقائدهم الدينية ، ولهم تقاليدهم ، ولهم مقوماتهم وأخلاقهم . . . فهم لا يسرقون (إلا شذوذاً عند الجوع) ، وهم لا يكذبون ، وهم يفون إذا تعاهدوا ، وهم يحترمون نساءهم ، وهم بالجملة لا يزنون ...

الساعة ١٠ صباحاً

شامبى [١]

واصلت الرجاف سيرها ، وسط الطريق المفتوح بين بحار البردى التى لا تنتهى ، ومع ذلك فإن السأم لم يدب إلى نفسى ، ولم يأخذ منها الملل ، فما دامت الطبيعة هى التى تحيط بنا فلا سبيل لهذا الشعور ، الذى هو مظهر من مظاهر حياتنا الآلية الحديثة ، التى أصبح طابعها السرعة والإثارة بالتغيير المستمر ، والمفاجآت .

ويزداد الجورقة واعتدالا وحنواً ، والانحناءات فى مجرى النهر حدة وعنفاً ، حتى لنمضى بضع ساعات ونحن ندور فيما لو قطع على خط مستقيم لما احتاج إلا لساعة أو بعض ساعة . ومع ذلك فلست آسفاً إلا على أن الرحلة توشك أن تنتهى ، فلم يبق إلا اليوم وغداً ثم بعد الغد ، ويوم الخميس نصل إلى غايتنا فتنتهى هذه الفترة التى نسيت فيها العالم ، بما يدور فيه من أحداث صاخبة سواء فى الشرق الأوسط ، أم فى شمال أفريقيا ، أم فى طول العالم وعرضه . بعد أيام ستنتهى هذه الخلوة الروحية ونعود لنربط بالخيوط التى تشدنا إلى حوادث العالم

(١) تبعد شامبى ١٠٦٠ كيلومتراً جنوبى كوستى .

الجارية والتى تنسى الكثيرين منا فى زحمة الحياة واجبهم نحو الله ، والذى يتلخص فى الدرجة الأولى فى البر والرحمة والحب للناس . . عيال الله .

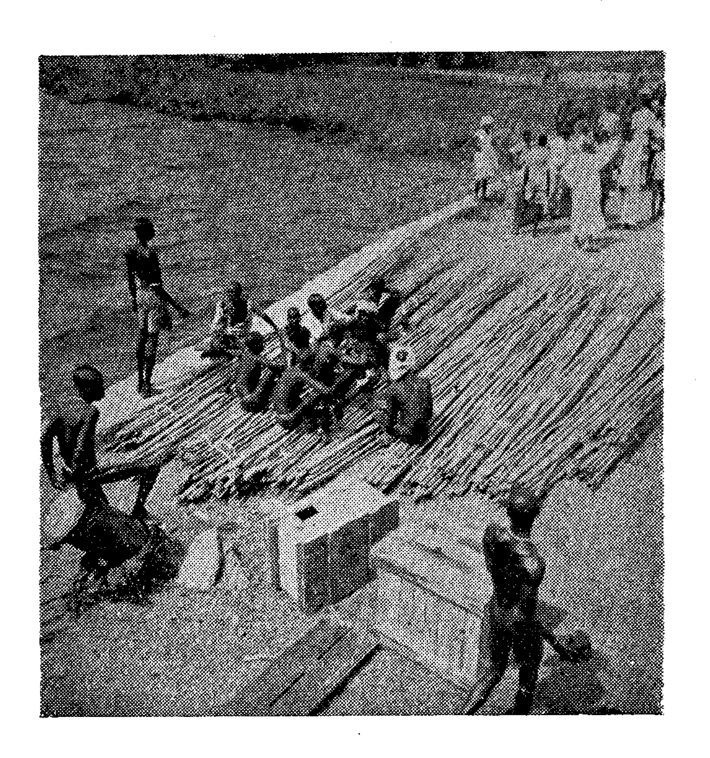
وقفت بنا الرجاف فى شامبى وهى مركز كهذه المراكز التى مررنا بها ، حيث توجد استراحة للحكومة ، وممثلون للسلطة المركزية فى البوليس والقضاء .

ومن جديد قابلنى منظر العرايا من الرجال دون النساء هذه المرة إلا أن يكن طفلات صغيرات . ولما سألت عن السبب قيل لى إن النساء قلما يجدن الوقت لإضاعته فى الحضور لمشاهدة الباخرة ، فالنساء هن اللواتى يقمن بالعمل سواء فى البيت أم فى الحقل ، إن النساء هن اللواتى يجلبن الماء لبيوتهن ، وهن اللواتى يعددن الحبوب للأكل أو لصنع المريسة التى هى غذاء وخمر ، والنساء هن اللواتى يزرعن ، أى أنهن يقمن بأغلب الأعمال ، فى حين يجلس الذكور فى سكون وراحة ودعة . ومن هنا كان حرص كل رجل على أن يتزوج ليس فقط بزوجة واحدة بل بأكثر من زوجة ، لأن زوجاته هن عناصر الإنتاج فى الدرجة الأولى . والمرأة هنا معززة مكرمة لذلك السبب ، ومكانتها لا تقل عن مكانة الرجل ، بل إن هناك كثيراً من المظاهر التى تدل على أنها قد ترجح ، فعلى خلاف الأغلبية الساحقة من البشر ، يفرح الوالد الذى يرزق بنتاً أضعاف أضعاف ذلك الذى يرزق ولداً .

هذا العرى يجب أن يزول

ولقد بدأ منظر العرى يثير نفورى ، بعد أن زالت عنى الصدمة الأولى التى يحدثها هذا المنظر العجيب . لقد كان همى فى المراحل الأولى من الطريق أن أتثبت من وجود هذه الظاهرة وأن أحيط بها ، أما الآن وقد أصبحت الظاهرة شيئاً مؤكداً ومكرراً ومألوفاً ، فقد وجدتنى مغموراً بالحزن والأسف العميق لقيام هذه الحالة واستمرارها حتى الآن ، وشعرت بنداء يملأ نفسى ، يجب . . . يجب أن يقضى على هذا التخلف الإنسانى بأسرع مما يتصور أى

إنسان . أى اعتداء على كرامة هذا الفريق من إخواننا إذا تسامحنا فى استمرارهم عراة باعتبارهم من طبقة دون طبقتنا ، أو باعتبارهم قوماً غير متحضرين يعيشون



على الفطرة . إن هؤلاء القو م الذين يتجلون أمامنا بهذا العرى ، أقوام لهم عقائدهم الدينية التى تنطوى على جوهر التدين ، ولهم تقاليدهم ولهم مقوماتهم وأخلاقهم ، فهم لا يسرقون (إلا شذوذاً عند الجوع) وهم لا يكذبون، وهم يفون إذا تعاهدوا ، وهم يحترمون نساءهم ، وهم بالجملة لا يزنون كما ذكرت من قبل . فهم مجتمع له تقاليده وقيمه الخلقية التى قد تنطوى على الكثير مما ينقص مجتمعنا ، ولذلك فمن الظلم أن نقيسهم ونقيس مكانتهم فى السلم البشرى بهذا العرى ، ومع ذلك فنحن مضطرون أن نحكم عليهم بهذا العرى وأن يكون حكمنا قاسياً وغير مطابق للحقيقة . إن بعض هؤلاء العراة يملك عشرات بل مئات

من البقر ، وبعضهم من أرباب الأسر وزعماء العشائر ومن أرباب الحل والعقد .

وقد جعلتني بعض الأحاديث السابقة على رحلتي والتي أشرت إلى بعضها ، أتصور أن القوم ينكرون اللباس أساساً ويعتبرونه ضد تقاليدهم أو ضد معتقداتهم فإذا بهذا الزعم ينهار أمام الواقع ، فقد رأيت منهم أشخاصاً يلبسون (فنلة) أو قميصاً لا يستر عورتهم ولا يفيدهم فى كثير أو قليل ، ومع ذلك فهم يلبسونه باعتباره الشيء الوحيد الذى وصل إلى أيديهم والذى يمثل المدنية والحضارة . ووجدت فتاة شابة تحيط جسدها بقطعة من القماش ، وتعمد من حين لآخر لتغطية ما انكشف من جسدها بإصلاح وضع هذه القطعة ، وقد حملني ذلك على سؤال الزملاء الذين خالطوا هؤلاء القوم طويلا فى الجنوب ، هل الدنكا أو النوير ينكرون اللباس ، فقالوا لى بالعكس إنهم يتوقون إلى اللبس ولكن الكثرة الغالبة منهم لا تجد ما تلبسه . وقص على الشيخ الأمين ، أنه عندما نزل بالأمس إلى إحدى المحطات التى وقفنا عليها سأله أحد الواقفين على الشاطئ قميصاً أو جلباباً ليرتديه ، فقلت لهم هل أفهم من ذلك أنهم لو أعطوا ملابس على سبيل الهبة يرتدونها ، فأجمع الكل على ذلك ، وتحفظ البعض فقال سيلبسونها إذا ما جاءوا إلى النقطة أو المركز أو لمقابلة الباخرة ، ولكنهم سيخلعونها بمجرد عودتهم إلى قريتهم . فقلت ونحن لا نريد أكثر من ذلك فى المرحلة الأولى من مراحل التطور . ومن جديد أحسست بالسخط على سياسة الإنجليز الذين حرصوا طوال العهود الماضية على الحيلولة دون تطور هذه القبائل تطوراً طبيعيًّا ، ولو أن الشماليين تركوا منذ اليوم الأول يتابعون اختلاطهم بالجنوبيين ، لسرت إليهم العدوى عدوى الحضارة والمدنية التى تنتقل بالمحاكاة ، ولقطعت هذه القبائل شوطاً طويلا خلال هذه الخمسين سنة نحو التطور والارتقاء .

وأحسب أن الحكومة الوطنية مطالبة بإصلاح ما أفسد الإنجليز فى هذه الناحية ، وأحسب أن التطور لا ينبغى أن يترك وشأنه بحيث يسير ببطء وإنما هو فى حاجة إلى دفعة. ويمكن أن تكون هذه الدفعة على صورة منظمة اجتماعية (جمعية) تأخذ

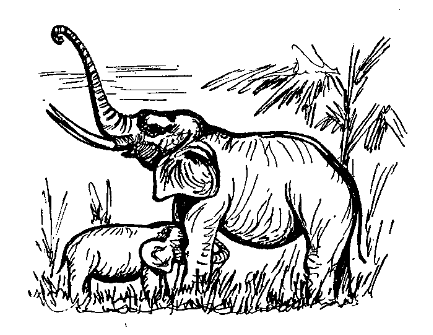
على عاتقها إصلاح هذه الحال ، وتجعل همها فى الدرجة الأولى دراسة أصلح الملابس التى تناسب بيئة إخواننا الجنوبيين والمادة التى تصنع منها ، وهل تكون جلداً أو تكون قماشاً من نوع معين وما هو الحد الأدنى اللازم لستر العورة والذى يلبس فى وقت العمل وفى القرية وفى حظائر البقر ، والملابس التى تلبس فى المناسبات الرسمية وفى الأعياد وعند الاختلاف إلى المدن والمراكز ؟ ويجب أن يراعى فى تصميم هذه الملابس ما يتفق وأمزجة إخواننا وعاداتهم وتقاليدهم ، فالألوان الزاهية ، المحلاة بالرسوم ، والتزين بالخرز والمعادن البراقة كل هذه يجب أن يحسب حسابها ، وبعد ذلك تبدأ حملة واسعة النطاق لجمع تبرعات مالية وعينية لتوفير ما يستقر القرار على صلاحيته كملابس لهذه القبائل . وعلى بلاد الجامعة العربية كلها — شعوباً وحكومات — أن تساهم فى تغطية النفقات اللازمة لحملة التمدين ، وينتشر الدعاة والمبشرون وسط هذه القبائل داعين إياها للقضاء على هذا التقليد القديم الذى يغض من مكانتهم بين البشر ، وموزعين عليهم الملابس بالمجان على سبيل الهدية أو المكافأة حيناً وفى مقابل شيء تافه حيناً آخر . وليس هذا الذى أقول سوى مجرد اقتراح ، وقد لا يكون هو الاقتراح السديد ، وقد تكون هناك اقتراحات أصلح منه ، والمهم أن شيئاً ما يجب أن يعمل فى هذا السبيل ، ويجب أن يعمل بسرعة لوضع حد لهذه الحالة التى كان يجب أن تنتهى منذ أمد بعيد .

الساعة ٦ مساء

الفيل أبو زلومة

أخيراً رأيناه ، رأينا الصديق اللطيف الذى نتوق للقائه منذ اليوم الأول لرحلتنا ، رأينا الفيل (أبو زلومة) فهكذا تعلمنا اسمه فى مصر ، وعندما نهرع إلى حديقة الحيوان سواء كنا أطفالا أم كباراً فنحن نسأل دائماً عن مكان الفيل (أبو زلومة) ونبادر برؤيته أو بالأحرى رؤية (زلومته) . وقد صدق المصريون

وهم يعرفون الفيل (بزلومته) أو خرطومه ، فإن هذا الخرطوم هو ما ينفرد به الفيل عن سائر الحيوانات طرًّا ، حقًّا إنه يفوق باقى الحيوانات فى ضخامته ، ولكن الحجم فى حد ذاته ليس إلا مسألة كم يؤدى اختلافها إلى تباين فى الطبيعة ، وقد يكون منظر نابى الفيل بدورهما يلفت النظر ، ولكن ضخامة النابين ليس غريباً ، وإنما الغريب حقًّا هو هذا الخرطوم ، الذى يحارب به الفيل ، فإذا لفه حول فريسته أو خصمه استطاع أن يحطمه تحطيما ، استطاع أن يكسر عظامه ، واستطاع أن يجلد به الأرض جلداً ، واستطاع أن يسحقه تحت قدميه ، وهذا الخرطوم هو الذى يقوم بأضخم الأعمال ورفع الأثقال ، فهو قادر فى نفس الوقت على التقاط إبرة من الأرض ، هذا هو موضع الدهشة التى لا تنقضى والتى تتجدد كلما شاهد الإنسان الفيل . . . الفيل أبو زلومة .



ولقد كان منظر الفيل الذى دعينا لرؤيته جديراً بالاهتمام الذى كنت أعلقه على رؤيته ، فشتان بين رؤية الفيل فى حديقة الحيوان وقد تحول إلى حيوان وديع أليف يحيي الزائرين ويلتقط قروشهم ليقدمها لحارسه ، وبين هذا الفيل الأسود الذى يقف أمامنا على بعد من السفينة رابضاً وسط الحشائش يحدق للرجاف فى استنكار وسخط لتعكيرها صفو هدوئه وراحته وأمنه . لقد أجمع الكل على أن هذا الفيل هو فى الحقيقة فيلة ، وأن الذى جعلها تقف جامدة هكذا مكشرة عن أنيابها متحفزة للهجوم أو الصراع هو أنها تقف الآن فوق طفلها الذى يرضع ثديها ، وهو ما جعلها عاجزة عن الحركة

السريعة بهذه الصورة فأتاحت لنا فرصة رؤيتها وتأملها والخوف من منظرها المفترس .

والأفيال لا تسير إلا فى قطيع ، أما هذه فقد كانت تقف بمفردها ، وعبثاً رحنا نتلفت فى المكان بحثاً عن باقى القطيع فلم نجد هناك إلا إياها . ومع ذلك فقد كان سرورى برؤيتها عظيما ، فسوف أستطيع منذ الآن أن أحدث أولادى فى زهو وافتخار أننى رأيت الفيل فى الغابة ، وسينظر الأولاد إلى أبيهم نظرة الإجلال والإكبار ، كيف لا وقد رأى الفيل المفترس ، الفيل أبو زلومة ، وسط الغابات . ولن يكون أولادى هم وحدهم الذين سأحاول أن أنال إعجابهم بهذا القول ، بل إن كثيراً من الأوربيين والأمريكان الذين قد يتاح لى أن أقابلهم بعد اليوم سيكونون أكثر دهشة من أولادى الصغار ، وسينهالون على بالأسئلة عما إذا كنت قد اصطحبت معى إلى البيت بعض التماسيح لأربيها فى حديقة الدار ، وعما إذا كانت عودتى إلى القاهرة على ظهر فيل أو على ظهر بقرة من الأبقار ، فكثيرون من الأوربيين يتصورون التماسيح تتنزه فى شوارع القاهرة فضلا عن الخرطوم ، وكثيرون غيرهم يتصوروننا نركب الأفيال ، ونحتفظ فى بيوتنا بأربعين من الجوارى والزوجات . ولقد اعتدنا ونحن شبان متحمسون أن ننفعل عندما نسمع هذه الأقوال من الأوربيين ، وتحمر وجوهنا خجلا ونروح نؤكد لهم أن بلادنا فيها عمارات ذات عشرة طوابق ، وأن الترام والسيارات تسد الطرقات ، وأن نساءنا تلبس جوارب النيلون ، متصورين أننا بذلك قد أحسنا الدعاية لبلادنا ناسين أننا بذلك حرمناها أحد موارد رزقها وهو السياحة .

أما اليوم فلو سألنى أمريكى عن التماسيح فى شـــوارع القاهرة ، فقد لا أحاول نفى هذه الحقيقة ، بل لزدت عليها مداعباً أننى أفطر وأتغدى بلحومها وبيضها ، ولو سألنى عن طرق المواصلات فى بلادنا لقلت له الفيل والجاموس ، وبمثل هذا الرد أسدى خدمة لبلادى ، فإن ألوفاً ومئات من الأمريكان والأوربيين

سيهرعون إلى مصر والسودان لرؤية هذه المناظر ، أما الحديث عن بيوتنا ذات الطوابق العشرة فلن يأتى أمريكى من نيويورك وفيها (الأمباير ستيت بلدنج) ذات المائه والعشرين طابقاً ليشهد طوابق القاهرة العشرة ، وجوارب النيلون التى ترتديها سيداتنا والتى صنعت فى أمريكا ، ولن يترك غانيات برودواى وكبارياتها من أجل رؤية الترام والسيارات ، فهم صانعو السيارات ، وهم الذين أصبحت لديهم المواصلات معلقة فوق الأرض وعلى ظهر الأرض وتحت الأرض . لا أيها الشبان المتحمسون لا تظنوا أن الحديث عن الشوارع فى بلادكم وعن التليفون والعمارات هو الذى يجتذب السياح إلى بلادكم ، وإنما الحديث عن الجمل الذى نركبه ، وسيد قشطة الذى يعوم فى النيل ، والتمساح الذى نأكل بيضه ، والفيل الأسود الذى نعيش معه ، هى المغريات التى تدفعه لزيارتنا . فإذا أردتم أن ترتفعوا وتمتازوا فى نظره فحدثوه عن آداب مجتمعنا ، عن تقاليدنا وعاداتنا التى تثبت عراقة أصلنا والتى تجلعنا نؤمن بالسلام ونكره العنف ، حدثوه عن أن المدنية والحضارة ليست فى الطوابق وعددها ، وليست فى ازدحام الشوارع بالسيارات وانطلاق الناس كأنها مسعورة ، ما دام أن آخر ما يحلمون به جميعاً هو صنع أكبر عدد ممكن من القنابل الإيدروجينية لكى يكون باستطاعتهم إبادة النصف الآخر من البشر ، الذى يفكر بدوره فى إبادتهم . . . قولوا لهم إذا كانت هذه هى المدنية والحضارة ، فما أسعدنا بوحشيتنا وبتخلفنا فى عالم الحضارة ، ما أسعدنا بأفيالنا وتماسيحنا وحياتنا فى الغابات ، حقاً قد يقتل واحد من الدنكا آخر من النوير ، وقد ترعى أبقار عائلة من الشلك أرضاً خاصة بالدنكا فيقوم نزاع ، ولكن لا الدنكا فكرت أو يمكن أن تفكر فى إبادة الشلك ، ولا الشلك تتصور إبادة الدنكا ، فإنهم لم يبلغوا بعد هذه المرتبة من التفكير السامى النبيل الذى سيبقى امتيازاً واحتكاراً للشعوب المتمدينة والمتحضرة ، الشعوب المثقفة المتعلمة ذات العبقرية التى صنعت وتصنع القنابل الإيدروجينية ، وتأبى أن تكف عن إنتاجها ، لأن هذا القدر الذى أنتج حتى الآن لا يكفى تماماً لنسف الكرة

الأرضية . . . لا ، لا ، إننا لسنا متمدينين ، إن التماسيح فى شوارعنا ، والجرنتى يرعى فى حدائقنا ، إننا همج ووحوش فليس عندنا قنبلة إيدروجينية !

جونجلى

ومنذ ساعات ونحن نسير فى منطقة بلدة جونجلى بالذات . وقد أصبح مجرى الماء ضيقاً لا يزيد على عشرين متراً تنقص أحياناً وتزيد أحياناً . وهذا المجرى ليس هو المجرى الرئيسى لبحر الجبل ، بل إنه طريق آخر شقه رجال الرى المصرى ، وهو يقصر المسافة إلى النصف ، فبدلا من عشر ساعات تسيرها الباخرة فى المجرى الرئيسى ، تقطع هذا المجرى فى خمس ساعات. ولا عجب إذا كان مهندسو الرى المصرى قد وفقوا لهذا الاكتشاف الضئيل ، بل إن العجب أن لم يوفقوا لأكثر من ذلك ، والعجب أن لا يشقوا طرقات أخرى تختزل هذه الانحناءات والالتواءات الكثيرة فى مجرى النهر ، وقد مضى عليهم سنوات وسنوات وهم يخوضون هذه المنطقة ويمسحونها شبراً شبراً ، وتحت أيديهم كل الإمكانيات والاعتمادات اللازمة لإتمام هذه الأعمال .

على أية حال ، لقد آليت على نفسى — بعد أن عشت خمسة أيام كاملة فى منطقة السدود ، وبعد أن رأيت بعينى رأسى كيف تتبدد مياه النيل وسط هذه الأراضى المنبسطة فتكون طعاماً للبردى من ناحية ، وللشمس من ناحية أخرى ولامتصاص الأرض لها من ناحية ثالثة — أن أجعل السعى لتحقيق هذا المشروع واجباً قومياً لمصر والسودان معاً ، ليس فقط لفوائده الاقتصادية ، بل لفوائده الاجتماعية والحضارية بالنسبة لأبناء الجنوب من الدنكا والشلك والنوير .

الأستاذ

ولقد قابلنا أستاذاً ، رأيناه يقف على البعد وسط نبات البردى ، وكنت أول من اكتشفه ، وقد وقف بكل وقار وجلال مرتدياً جبته السوداء ، ولم أكن أعرف

طبعاً أنه أستاذ ، حتى سألت صديقنا عبد الرحيم عربى عنه ، فقال لى هذا هو الأستاذ . وقد بقى أن تعرف أن هذا الأستاذ ليس إلا طائراً كبيراً إذا وقف خلته على البعد أستاذاً بجبته السوداء وعمامته البيضاء . وهكذا لم يخطئ الشماليون الذين أطلقوا عليه هذا الاسم ما دام هذا هو الشعور الذى يولده فى النفس . ولقد طار فضيلته عندما اقتربت منه السفينة ورأيناه محلقاً فى الفضاء جسما ضخماً ذا أجنحة من الريش الأسود وجسد مغطى بالريش الأبيض .

نبات البردى فى يدى

وكم يكون من الظلم والقسوة على ، وأنا أقضى هذه الأيام وسط نبات البردى ، لو أننى لم أستطع أن أمسكه بيدى ، وأشمه لو كان يشم ، وآكله لو كان يؤكل . ولذلك فلم يكد المركب يقف أثناء سيره وسط هذه النباتات ، حتى أسرعت لاقتلاع واحد منها وأخذته معى على ظهر المركب فرحاً مسروراً كأى طفل أو صبى يحمل غصن شجرة ، ولقد أحسست بشىء من الخجل وبعض العيون ترمقنى وأنا أحاول قطع النبات وأنا أحمله بعد ذلك فى يدى ، ولكنى قاومت ذلك الشعور ، وعلى ظهر المركب جلست وحيداً أتحسس هذه الشجرة التى قدسها المصريون القدامى على ما يظهر . إنها تتألف من ساق خضراء طويلة رفيعة ناعمة وقطرها بوصة أو يزيد ولكن هذا القطر يزداد عند الجذور ويدق بالتدريج عند القمة. وفى القمة تنبثق هذه الأشعة من الأوراق مؤلفة هالة . ولا بد أن قدماء المصريين كانوا يصنعون الورق من لباب هذه الساق فقد كان هذا اللباب هشاً أجوف أبعد ما يكون عن الطبيعة الخشبية . ولا شك أن هذه الملايين من الأطنان لا تزال صالحة لإنتاج أجود أصناف الورق الذى تحتاج إليه البشرية ، ولقد كان الألمان وليس الإنجليز هم الذين فكروا فى تقديم هذه الخدمة للحضارة البشرية ، فشرعوا فى إنشاء مصنع فى هذه الجهات قبل الحرب العالمية

الأولى. ولكن الحرب قامت فقضى على المشروع ، ولم يحاول الإنجليز – سامحهم الله – أن يمضوا فيه .

وأمسكت بالجوهرة

وكما أمسكت بنبات البردى فقد كان لا بد أن أمسك بالجوهرة، أو بالأحرى أصبح قريباً منها حتى لكأننى أمسكها ، وإلا لظلت شيئاً غامضاً أو سحريًّا على كثرة ما عشت معها كل ليلة ، ولذلك فقد تفضلت الجوهرة وشرفتنى بمعرفتها عن كثب ، ففى الليل رأيتها ملتصقة بشبكة السلك الدقيقة التى تحيط بالصندل الذى نسكن فيه ، والذى وضع ليحول كالناموسية بيننا وبين الحشرات والناموس ، فإذا أضيئت صالونات اللنش بالليل اجتذب النور الكهربائى الحشرات كما هى العادة . ووسط هذه الحشرات العديدة التى تقف على هذا السلك من الخارج كانت بعض أفراد من الجوهرة . وهى حشرة تجمع بين صفة الذبابة الكبيرة الحجم وبين الفراشة وفى وسطها أتون ملتهب من الفوسفور بحجم رأس عود الكبريت . ولا تقل دهشة الإنسان وهو يرى هذه البوتقة المشعة ، عن دهشته والجوهرة تومض فى طيرانها ، ولقد وجدتنى مسحوراً بهذا الضوء فلا أستطيع أن أحول بصرى عنه[1].

(١) أتيح لى فيما بعد أن أمسك الجوهرة فى يدى .

١٠

الثلاثاء ١٠ أبريل

... إنه من الواضح أن البقرة تمثل للقوم شيئاً أكثر مما يمثله الزرع لزارعه ، فهل للبقرة علاقة بمعتقدات القوم الدينية ... أيمكن أن تكون البقرة معبودة ؟!

الساعة ١٠ صباحاً

نحن من جديد فى بحر الجبل ، عاد النيل إلى اتساعه بعض الشيء ، واختفى أخيراً نبات البردى ، وعاد الشاطئ مستوياً مترامى الأطراف وهو مغطى كله بالحشائش والقش ، وليس هناك شك الآن فى أن هذه الشواطئ أرض يابسة ، فقد خلفنا وراءنا المستنقعات وفرغنا منها . وعاد الجرنتى صاحبنا القديم للظهور بكثرة لم يسبق لها مثيل من قبل، فالجرنتى لا يعيش إلا بين الماء والأرض ، فإذا اختفى أحدهما ، اختفى معه الجرنتى .

وإذا كنا بالأمس رأينا فيلا واحداً ، فقد بدأنا هذا الصباح برؤية ثلاثة أفيال ، وهى ترعى وسط هذه الحشائش والتى يطلق عليها بالذات « حشائش الفيل » ولكنها لم تكن كفيلة الأمس قريبة تبعث الرهبة فى النفس ، وعندما رفعت خراطيمها فى الهواء لتنشق الجو وتتحسس مصدر الخطر ، كانت تؤكد لنا أنها أفيال ذات (زلومة) .

الدنكا مرة أخرى

فأما وقد تركنا منطقة السدود والمستنقعات ، فقد عدنا إلى دائرة الحياة إلى حيث تسكن قبائلنا النيلية ، وقد انتهت منطقة النوير ، وعادت منطقة

الدنكا للظهور ، و بدأت القرى تتوالى ، وحظائر (زرايب) البقر تغص بمئات الرؤوس منها ، وإذ تسير السفينة بالقرب من الشاطئ ، فالقوم يرحبون بنا ويهزجون الأهازيج التى لاتنكرها آذاننا ، بل إن بعضها كأنه أغانى مصرية ريفية مما يردده أهل الصعيد عندنا ، و بدأوا يشيرون لنا طالبين أن نقذف لهم بعض ماينفعهم فى حياتهم ، وبدأت تنهال عليهم القذائف : علب فارغة ، وزجاجات وأمواس وخبز ، وكل ما تصل إليه الأيدى ويستغنى عنه ويمكن أن يقذف . وتعمد بعض الركاب أن يقذف بهداياه إلى الماء ، فينقض خلفها بعض الشبان لالتقاطها ، ولكن بين نزولهم إلى الماء وخروجهم منه كانت تحدث معجزة أو قل يتم انقلاب شديد ، فقد كانوا ينزلون إلى الماء بيضاً ويخرجون منه سوداً ، أو فلنقل « زرقاً أو خضراً ». أما كيف يكون الدنكا بيض البشرة ، فهذه مسألة فى غاية البساطة فالدنكا قوم عراة كما تعرف ، وأجسادهم يمكن أن تكون نهبة للناموس يمتصها امتصاصاً، إن لم يمزقها تمزيقاً ، وأبقارهم المسكينة بدورها فى حاجة إلى ما يقيها شر الناموس ، وقد ذكرنا من قبل طريقة حمايتهم للأبقار عن طريق إشعال النيران فيطرد دخانها جموع الناموس ، ولكن ما يكفى لحماية الأبقار لا يكفى لحماية الإنسان ، فهم يعمدون إلى وقاية أخرى ، وهو أن يعجنوا مخلوطاً من الرماد المتخلف عن عمليات الإحراق ، مع بول البقر ، ومن هذا المخلوط يدهنون أجسادهم ، فلا يستطيع الناموس الاقتراب من أجسادهم لوجود الطبقة الواقية من عجينة الرماد من ناحية ، ولمرارة بول البقر من ناحية ثانية ، وهكذا يرتدى إخواننا الدنكاويون هذا (الناموس بروف) فيضفى عليهم هذا اللون الأبيض ، فإذا وثبوا إلى الماء جرياً خلف الهدايا زال هذا الطلاء فى لمح البصر ، وتجلت أجسادهم وقد عادت إلى نضارتها ولمعانها وبريقها .

هل يعبدون البقر ؟

ولعل القارئ قد لاحظ حتى الآن أننا مذ بدأنا رحلتنا فى الجنوب ، ونحن

نتحدث عن البقر ، لا يكاد حديث الشلك يبدأ حتى يرد على الفور الحديث عن البقر ، ولا نكاد نذكر اسم الدنكا أو النوير ، حتى يثب على الفور الحديث عن البقر ، حقاً إن هذه القبائل الثلاث ، قبائل تعيش على الرعى ، ومع ذلك فإنه من الواضح أن البقرة تمثل للقوم شيئاً أكثر مما يمثله الزرع لزارعه ، فهل للبقرة علاقة بمعتقدات القوم الدينية ، أيمكن أن تكون البقرة معبودة ؟ إن بعض الشماليين يتصور ذلك عن الجنوبيين ، وعدم إقدام القوم على ذبح البقرة وأكل لحمها إلا فى مناسبات معينة ، وهى مناسبات مقدسة ، قد يوحى أن البقرة معبودة أو مقدسة عند القوم كما هو شأنها عند الهنود ، ولكن بعض التعمق فى البحث ، ومناقشة دقيقة مع السيد جوردون آيوم الذى هو من الدنكا قد أقنعتنى بخطأ هذا التصور من كون البقرة مقدسة فى نظر القبائل النيلية ، فضلا عن أن تكون معبودة أو رمزاً للرب[1] .

البقرة لإشباع الحاجات ودفع الديات

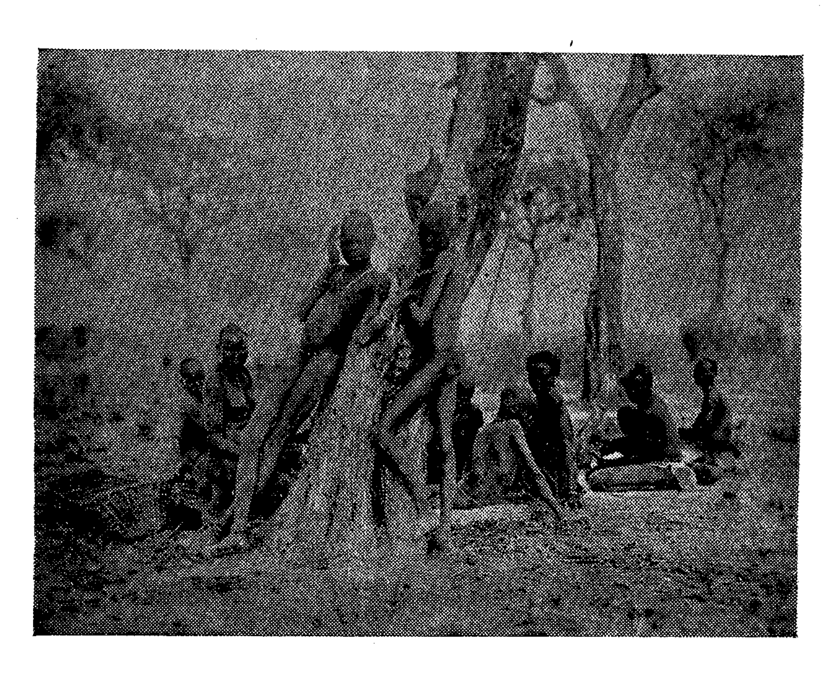
قد لا تكون البقرة مقدسة فى حياة القبائل النيلية ، ولكن الذى لا شك فيه ، أنها محور اقتصادهم ، واجتماعهم . هى الوسيلة الوحيدة لإشباع حاجياتهم الأساسية ، وهى الوسيلة الوحيدة لدفع الأذى والعقوبات عن أجسادهم سواء من أرواح الموتى من آبائهم وأجدادهم ، أم من إخوانهم الأحياء وزملائهم .

ما هى حاجيات هؤلاء القوم ؟ إنهم مجردون من الثياب ، فلا يشغلهم الحصول على الثياب ، وهى ما ينفق عليها الرجل الكادح ثلث دخله . وهم يبنون بيوتهم بأيديهم من القش والبوص المتوافر حولهم بلا ثمن ، فهم لا ينفقون شيئاً من أجل إعداد مساكنهم . فلم يبق من حاجيات الإنسان إلا أن يأكل ، وهنا يبدأ دور البقرة ، فهى التى تمده باللبن والدهن الذى يؤلف الجزء الأكبر من طعامه ، واللبن بالإضافة إلى ما ينتجه الدنكاوى أو النويرى أو الشلكى من

(١) جميع المعلومات الآتية صحيحة ودقيقة كما اتضح لى ذلك بعد عودتى ومراجعة لكتب العلمية.



دنكا – الأجساد يكسوها مخلوط الرماد . . .



دنكا – حياة كل يوم ...

الذرة التى يتناولها فى أكثر الأحوال على شكل « المريسة » التى هى خمر فى حقيقتها ، هما كل غذاء هذه القبائل ، فالبقرة إذن تؤلف العمود الفقرى لحاجة الجنوبى للغذاء .

والإنسان بعد ذلك فى حاجة إلى الزواج والتناسل ، وهنا تحتل البقرة المقام الوحيد ، فإذا كانت الذرة تسد جانباً فى إشباع حاجة الجنوبى إلى الغذاء ، فإن الزواج والتناسل لا سبيل لإشباعه إلا عن طريق البقر ، فلا زواج ولا أبناء شرعيين ، إلا إذا دفع للعروس المهر عدداً من رؤوس البقر .

والإنسان فى حياته معرض للوقوع فى أخطاء بعضها جسيم ، وبعضها هين ، ولا بد للإنسان فى كل الأحوال من أن يدفع ثمن خطئه ، فالإنسان قد يسب شخصاً آخر أو يهينه ، وقد يعتدى عليه ويضربه ، وقد يؤدى الضرب إلى جرح المعتدى عليه ، أو إفقاده عضواً ، بل قد يفضى الضرب إلى الموت نفسه .

وفى خارج نطاق الاعتداء بالضرب والقتل ، فقد تضعف النفس البشرية ، فيكون الاعتداء على المال ، فتمتد اليد إلى ما ليس من حقها ، وقد يكون الاعتداء على العرض فيزنى الإنسان بامرأة جاره أو بابنة هذا الجار أو أخته . وكل هذه أخطاء لا بد من التكفير عنها ، إما بالقصاص والضرب والإيذاء الذى يصل إلى حد القتل فى مقابل القتل ، وإما أن يدفع عن نفسه بتسليم قدر معين من البقر ، فليس هناك خطأ لا يجبر بدفع تعويض من البقر ، ومهما كان المقتول عزيزاً فى قومه فإن ذلك ليس من شأنه إلا أن يرفع مقدار البقر الذى يجب أن يدفع لتهدئة غضب قومه وعشيرته . والزوج لا يحق له أن يغضب إذا زنى بزوجته ، ما دام قد دفع له القدر المعين من البقر[1] . وهكذا نرى أن البقر ضرورى لأى إنسان يخطئ وينبغى عليه أن يدفع ثمن خطئه .

وأخيراً ، فإن الآلهة قد تغضب على الإنسان فتسلط عليه مرضاً أو داء

(١) راجع كتاب : A Manual of Nuer Law P. P. Howell

عضالا ، أو قد تمسك المطر فى ببعض الأوقات مما يهدد العشيرة بالفناء ، ففى هذه الأحوال أيضاً لا بد من أن يضحى ببعض البقر للآلهة وأرواح الأجداد ، حتى يهطل المطر .

ومن هنا نرى أن البقرة أساسية فى حياة القوم ، أو هى محور حياتهم ونشاطهم الاجتماعى والاقتصادى ، ومن هنا كان الرجل — أى رجل من الدنكا أو النوير أو الشلك أو القبائل الأخرى المتفرعة من هذه القبائل الرئيسية الثلاث — ليس له مطمع فى الحياة أكثر من أن يمتلك أكبر عدد من الأبقار . ومكانة الرجل فى قومه تقاس بمقدار ما يملك من الأبقار ، ولذلك فهو حريص أن يعرف الجميع مقدار ما عنده من البقر ليكون أهلا للاحترام الواجب نحو شخصه . ومن المتفق عليه أن يلبس من يملك عدداً معيناً من الأبقار عقداً من الخرز حول رأسه ، وكلما تضاعف عدد الأبقـــار تضاعفت هذه العقود ، حتى إذا وصل إلى قدر معين أصبح التعبير عنه برشق ريشة فى شعر الإنسان ، فمن كانت على رأسه هذه الريشة فمعنى ذلك أنه من كبار الأغنياء الذين يشار إليهم بالبنان .

والعجيب أننا فى مصر نستخدم هذا التعبير ، فإذا حاول أحد أن يختال أو يتعالى على الناس ، تساءلنا فى استنكار : « لماذا يفعل فلان هكذا ؟ أيظن أن على رأسه ريشة ؟ » ونحن نكرر هذا القول دون أن نعرف له سبباً وهذا هو تفسيره نراه بين الدنكا والنوير ، حيث لا يضع على رأسه الريشة . . . إلا الأغنياء الذين يقابلون « أحمد عبود فى مصر ، أو روكفلر فى أمريكا » ! وكثيراً ما وقع بصرى فى المحطات التى وقفت عليها الباخرة على هؤلاء القوم الذين يضعون على رأسهم ريشة ، وقد شغلنى منظر عريهم عن أن أؤدى الاحترام اللائق لمقامهم الكريم[١] .

(١) يظهر أن هذا التقليد الخاص بوضع الريشة كعلامة على الغنى لم يعد محترماً أو متبعاً فى الوقت الحاضر .

لا ملكية فردية للأبقار

وإذا كان حب جمع المال أو الثروة من أى نوع كان ، هو غريزة فى النفس فلا عجب إذا كانت هوية أى جنوبى أن يجمع تحت يده أكبر عدد من الأبقار ، ونقول يجمع تحت يده ، ولا نقول يملك ، لأن الملكية الفردية بمعناها فى مجتمعنا المتحضر ! ! لا وجود لها وسط إخواننا الجنوبيين ، الذين يحققون مثل كارل ماركس الأعلى وصديقه إنجلز وتلميذهما لينين وحفدتهما من أمثال بوجانين وخروشتشوف ، والعزيز ماوتسى تونج .

فقبائل الجنوب النيلية تعيش فى حالة شيوع مطلق ، فلا أحد يملك الأرض ، وإنما القبيلة كلها صاحبة الحق فى الانتفاع برقعة الأرض التى تسيطر عليها ، ولا أحد يملك المراعى وإنما هى ملك القبيلة فى مجموعها ، وإذا كانت الأبقار هى العنصر الأساسى فى حياة القوم فإن أحداً لا يدعى ملكيتها فهى ملك للمجموع ، ولكنها فى حيازة البعض ، ولهذا البعض حق استعمالها بشرب لبنها ، ولكن ليس من حقه أن يتصرف فيها تصرف المالك بالبيع أو الذبح ، فهذه مسألة خاضعة للتقاليد والعادات المرعية ، وهذه مسائل خاضعة لقرارات الأسرة وأحياناً القبيلة . ولنستعرض الآن هذه الظاهرة من خلال كيفية جمع مهر العروس وتوزيعه ، ومدى سلطة الحائز عليه .

زواج الشبح

الزواج فى حياة أى جنوبى يؤلف أحد الأحداث الثلاثة الكبرى فى حياته ، أو بالأحرى الحدثين الهامين فى حياته ، لأن الحادث الثالث هو موته فهو ليس من أحداث الحياة إلا باعتباره نهايتها . ويكون الزواج هو ثانى الحدثين المهمين فى حياة أى فرد ، وأما الحدث الأول فهو حادث ميلاده فبين الميلاد والزواج لا يوجد فى حياة أى جنوبى شىء يستحق الاعتبار ، بل إنه بغير زواج لايكون

قد استكمل رسالته الإنسانية ، فهو غير موجود ، لأنه لا يكون قد حقق دوره فى الحياة ، وليس باستطاعته أن يهز كتفيه لهذا الدور فى الحياة لأن عدم القيام به معناه إحلال اللعنة على آله وعشيرته ، وانقطاع جذوره وفروعه فى هذه الحياة . فإذا مات قبل أن يتزوج ، فإن أخاه يجب أن يتزوج نيابة عنه ، بحيث تنسب الزوجة لهذا الميت والأولاد الذين ينشأون عن هذا الزواج ينسبون إلى الميت ، وبدون هذا فإن اللعنة تحل على الأسرة والقبيلة كلها ، ويسمى هذا الزواج « زواج الشبح » .

المهر وجمعه وتوزيعه

ولذلك فإن شغل كل جنوبى الشاغل هو أن يتزوج ، والبقر هو المهر الذى لا يتم زواج إلا به . ويختلف المهر بحسب اختلاف القبائل ، والبعض كالنوير يعلون من قدره فلا يقبلون أقل من ٤٠ بقرة لتكون مهراً لبناتهم ، ولكن الدنكاويين والشلك يرضون بعشرين بقرة ، بل قد ينزل المهر عن هذا القدر ، وقد نزل أخيراً وذلك للتيسير على الشباب للزواج . فمن أين يجىء أى عريس بهذا القدر من المهر ، سواء كان عشرين أم أربعين ، أو أقل أو أكثر . إن أسرته تجمع له هذا القدر من البقر ، وإذا قلنا أسرته فنحن لا نعنى بها مجرد أبيه أو أمه ، وإنما نعنى بالأسرة كل امتدادها وفروعها والأسر الأخرى المرتبطة معها برباط المصاهرة ، فالتقاليد والعادات المرعية تفرض واجبات والتزامات يجب أن تؤدى فى مثل حالات جمع المهر لزواج أحد أفراد الأسرة . ثم يقدم المهر لعائلة العريس ، فتتقاسمه عائلة الأب وعائلة الأم ، فيبقى الأب تحت يده نصف حصته من البقر ، ويوزع النصف الآخر على أفراد الأسرة بنسب معلومة ومقررة ، وكذلك الأم تفعل مثل ذلك تحتفظ بحصة لها ، ويوزع الباقى على أفراد أسرتها . فهل يستطيع كل من وصلت إلى يده بقرة أن يتصرف فيها ؟ الجواب على ذلك بالنفى ، فإن هذه البقرة قد تسترد منه فى أى وقت ، وقد

يكون مطالباً بأن يقدم بقرة فى بعض الظروف والأحوال . قد تسترد منه البقرة ، فيما لو طلق الزوج زوجته ، ولم تكن قد أنجبت له أولاداً ، فإن من حقه أن يسترد مهره ، وكذلك لو ماتت دون أن تنجب له أولاداً ، فإنه يسترد مهره ، لتوزيعه على من جمعه منهم ، وهكذا .

ومثل ذلك يحدث فى حالة وقوع الجناية أو الخطأ ، فمن تفرض عليه عقوبة لجريمة ارتكبها ، فإن عشيرته تجمع الأبقار ، والأسرة التى تأخذ الأبقار توزعها على أفرادها .

بل إن الزوج الذى أخذ أبقاراً كفارة عن جريمة الزنا بزوجته ، مطالب أن يرد هذه الأبقار ثانية ، فيما لو حملت زوجته من جراء هذا الزنا وأنجبت مولوداً ذكراً أو أنثى ، فإن ميلاد ابن له يعوض عليه ما خسره من استمتاع رجل آخر بجسد زوجته ، وهكذا نرى أن يد أى إنسان على الأبقار هى يد مؤقته ومقيدة . ولذلك فمن الأصح أن نقول إن أفراد القبائل النيلية يملكون حق استعمال البقر دون ملكية البقر ، لأن الملكية شائعة فى الأسرة والعشيرة والقبيلة .

عادات

وإذا كان الزواج فى حياة أى فرد فى هذه القبيلة النيلية يمثل الحادث الأكبر فى حياته ، فلا عجب أن كان للزواج عندهم طقوس ومراسيم وإجراءات طويلة ومعقدة ، تستغرق شهوراً فى حياة أسرة العروسين ، ويترتب على المصاهرة بين أسرتين التزامات كثيرة لكلتا الأسرتين قبل الأخرى ، وتبدأ المعاشرة الزوجية لدى النوير بأن يضرب العريس عروسه « علقة ساخنة » كرمز على سلطان الرجل على زوجته[١].

(١) راجع كتاب : A Manual of Nuer P. P. Howell

على أنه من القواعد الأساسية فى المجتمع أن لا تجبر فتاة على الزواج بمن لا تحب أو تختار ، أجل قد يحاول أبوها أو أخوها إقناعها بالزواج بالفتى الذى يقدم أبقاراً كثيرة ، ولكن الكلمة النهائية ستبقى للفتاة فلا تتزوج إلا من تختار وتحب ، ولا يمكن إكراهها أو الإساءة إليها إذا هى رفضت من يرشحه لها أبوها أو أخوها أو كل أسرتها ، وليس وراء ذلك تكريم للمرأة وإظهار لمكانتها العالية .

الوشم

ولقد أشرت من قبل إلى هذه النتوءات البارزة التى يحدثها الشلك فى جباهم ، وقد علمت بالبحث أنهم يستخدمون فى ذلك أعشاباً معينة تحدث هذه الانتفاخات ، فهم يقطعون الجلد ثم يضعون هذا العشب فيحدث هذا النتوء . وتجرى هذه العملية عند ما يشرف الصبى على البلوغ ، وتكون هذه علامة دخوله فى زمرة الرجال . والدنكا والنوير يحدثون فى جباههم ستة خطوط بطول الجبهة ، وهى عملية قاسية ، وتجرى للصبيان فى جماعات ووسط احتفالات صاخبة . يرفع بعدها الصبيان وهم مغشىّ عليهم ويوضعون فى أحد الأكواخ حيث تشرف أمهاتهم على العناية بهم خلال شهرين كاملين ريثما يتم لهم الشفاء ، فتجرى لهم القرية احتفالات إعلاناً لرجولتهم ومنذ ذلك الوقت يصبح بقدرة الشاب أن يذهب إلى الصيد بعد أن يعطى حربة ويدرب على استعمالها .

ومن التجارب القاسية الأخرى التى يتعرض لها كل دنكاوى ، كسر أسنانه الأربع فى فكه الأسفل ، وقد لاحظت أن جوردون آيوم كامل الأسنان فلما سألته عن ذلك قال لى إنه رفض أن تجرى له هذه العملية ، وهرب محتمياً بالمبشرين ، وهكذا نجت أسنانه من التحطيم . وقد كان ذلك محل انتقاد وتعيير لجوردون ، ولكن إخوانه الذين كانوا ينتقدونه ، أصبحوا يبحثون الآن عن أسنان صناعية ، بعد أن أصبح بعضهم نواباً وشيوخاً أو من كبار الموظفين .

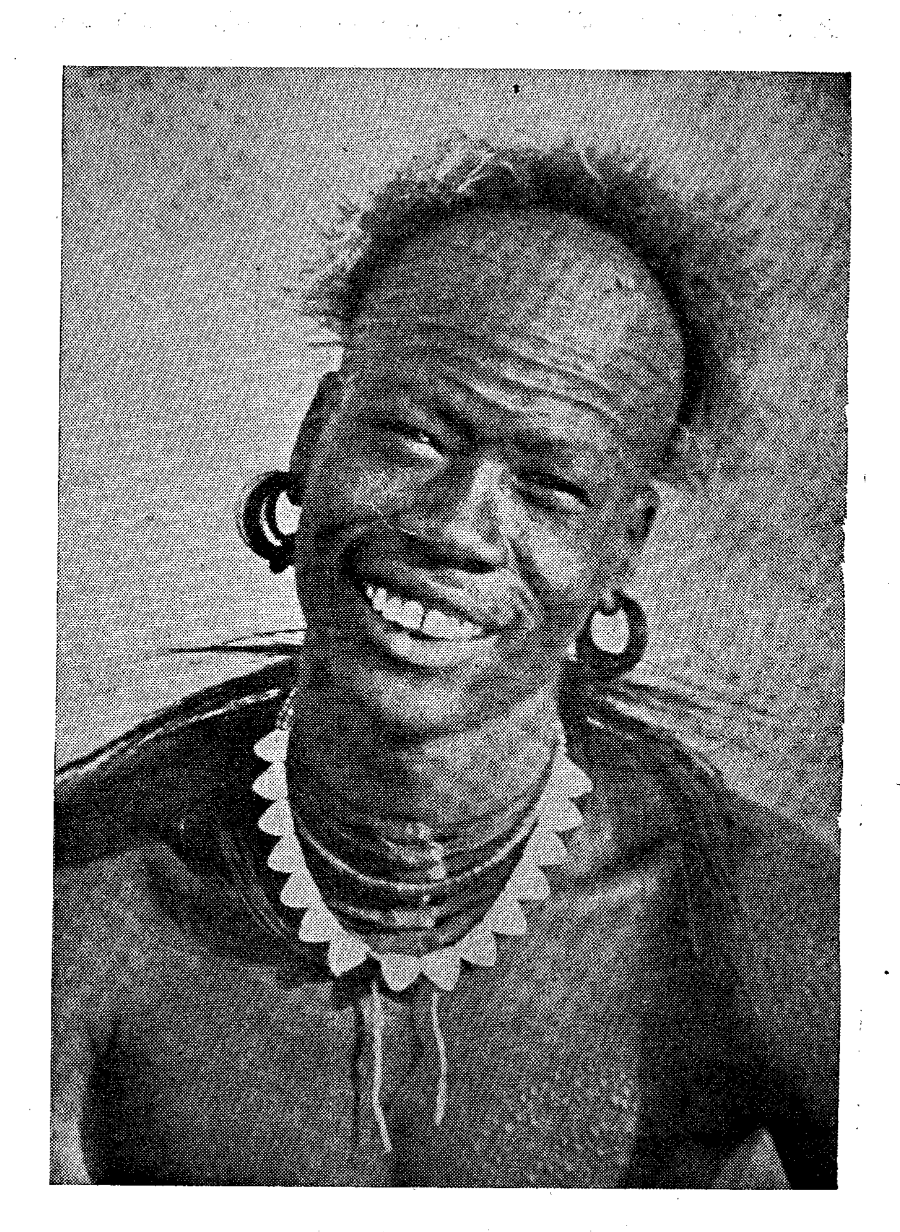
ويجلس الآن حولى أبناء جوردون بأسنان كاملة ، ذلك أن الجيل الجديد ممن بدأ يذهب إلى المدارس ، وحتى بعض الذين لا يذهبون إلى المدارس ، أصبح يعفى من هذه التقاليد القاسية .

ومن عادات القوم أنه إذا ولد المولود حملته الداية إلى كبار الأسرة الذين يكونون منتظرين فى الخارج ، فينظرون إلى المولود ، فإذا وجدوه كامل الخلقة صحيحاً أعادوه إلى أمه ، أما إذا وجدوه مشوهاً ، أو ناقصاً تخلصوا منه ، فإن حياة الغابة القاسية ، وما فيها من وحوش ضارية تحتاج إلى يقظة مستمرة وشجاعة وقوة ، بل إن بيئتهم القاسية ، وما فيها من أمراض وحشرات تجعل من العبث إمكان حياة الضعفاء فضلا عن المشوهين ، فلا حياة إلا للطفل القوى الصحيح البدن الكامل الأعضاء ، وهكذا يطبقون نظرية البقاء للأصلح من تلقاء أنفسهم ، قبل أن تطبقها عليهم الطبيعة .

وإذا كان الزواج ومراسيمه يشغل جزءاً كبيراً من نشاط القوم ووقتهم ، فباستطاعتنا أن نتخيل ماذا تحدث الوفاة فى مجتمعهم ، فالقبيلة كلها تشارك فى الأحزان ، أما أسرة الميت ، فتستمر عاماً كاملا فى إظهار مراسيم الموت وشعائر الحزن ، ومن عاداتهم أن يضعوا على قبر الميت قرن ثور أو قرنين فيكونان أشبه بالشاهد الحجرى الذى نضعه نحن على قبور موتانا .

صانع المطر

ولقد رأينا فيما سبق أن الشلك ينفردون بأن لهم ملكاً واحداً يخضعون له جميعهم ، أما باقى القبائل كالدنكا والنوير والزاندى ومشتقاتها ، فهى لا تخضع لملك واحد ، ومع ذلك فإن فى كل قبيلة زعيم روحى يدينون له جميعاً بالسلطان الروحى ، وذلك هو صانع المطر ، أى الرجل الذى يستطيع بسحره وتعاويذه أن يسقط المطر إذا احتيج له فى وقت الجدب ، وهو الذى يوفر البركة والنماء فى



عريس النوير

وتلاحظ الخطوط الجراحية فى جبهته والوشم فى صدره وفى ذراعه ، والنوير فى ذلك كالدنكا

المحصولات . وصانع المطر هذا قد يكون امرأة ، لأن المرأة كما ذكرنا من قبل ليست أقل اعتباراً من الرجل[1] .

قطيع من الأفيال

وأخيراً رأيت المنظر الذى أتوق إليه ، وأخذت له صوراً ، وأعنى به قطيعاً ضخماً من الأفيال ، بذكورها وإناثها ، وأطفالها أيضاً .

رأيتها وهى تقف على بعد كبير منا لاهية تأكل الحشيش بالقرب من شاطئ النهر ، ثم لم يلبث الهواء على ما يظهر أن حمل لها صوت الباخرة ودواليبها ، أو رائحة هذا الجسم الغريب الذى يقترب ، فلم تعر الأمر التفاتاً فى بادئ الأمر ، ولكن من الواضح أن الصوت أو الرائحة الغريبة ، بدأت تتزايد ، فبدأت الأفيال تتحرك فى مكانها فى شىء من القلق والحذر ، ثم رأيناها تتجمع فيما بينها على صورة حلقة وتجمع صغارها بحيث تستطيع أن تسوقها أمامها وتحت حمايتها . وللأفيال دائماً قائد وزعيم هو أبوها الأكبر ، ومنه تستمد النصح والمشورة ، وتحت قيادته تندفع وراءه نحو الاشتباك بأى عدو ، ومن المحقق أنه كان فى ذلك الوقت يعطى الأوامر والتعليمات ، التى كانت تتغير من لحظة لأخرى حسب ازدياد الخطر . فلقد عدلوا عن تكوين الحلقة ، وبدأوا يولون ظهورهم جميعاً لمصدر الصوت ، ثم يتحركون فى الاتجاه المضاد مبتعدين رويداً رويداً عن موطن الخطر ، فلما أصبحنا فى محاذاتهم تقريباً ، زادت حركتهم سرعة ، وهنا رأينا أن نعابث الجماعة ونضحك معها ، فطلبنا من قائد سفينتنا أن يطلق صفارة الباخرة بعنف ، فانطلقت الصفارة تدوى فى صوت مخيف ، وهنا أدرك القطيع وقائده أن الخطر أعظم من أن يتقى بالانسحاب ، ويظهر أن لا مناص من الاشتباك فى المعركة ، ولذلك فقد وقفوا من جديد ،

---
(١) راجع كتاب : Pagan Tribes of the Nilotic Sudan Seligman

ورفعوا خراطيمهم فى الهواء ، تحسساً لهذا الخطر الداهم وإرهاباً للعدو واستعداداً للبطش ، وبدا القطيع على أهبة خوض المعركة ، ولكن صفارة الرجاف لم تكن إلا تحية لهم ، وما كنا فى حقيقة الحال إلا كأصدقاء نداعبهم ، ولذلك فقد ابتعدنا عنهم فى سلام ، ولا بد أنه قد انقضت بعد انصرافنا مدة طويلة قبل أن يعلن قائدهم زوال الخطر ، وأن باستطاعتهم أن يعودوا من جديد لملأ بطونهم من الحشيش الأخضر الريان .

الصيد والصيادون

ولقد تحدث بعض الزملاء عن صبد واحد أو اثنين من هذه الأفيال ، وتحدثوا عن الثروة التى تأتى من أنيابه ، فقد يباع النابان بأكثر من مائة جنيه ، ولكن من حسن الحظ أن الأمر لم يخرج عن دائرة الكلام إلى حيز العمل ، ولو أنهم هموا بقتل الأفيال أمامى لبذلت جهدى فى أن أحولهم عن هذا العمل ، فلست أرى ما هو أبشع من الاعتداء على سرب آمن . وفى اعتقادى أن الإنسان الذى يعطى نفسه الحق فى قتل حيوان لم يعتد عليه ، وإنما لمجرد المتعة واللهو وإظهار قدرته وسلطانه ، قد أباح لأى إنسان آخر أن يقتله هو نفسه لمجرد التسلية كذلك ، أو لإظهار جبروته وبطشه والانتفاع بثروته ، ما دام أن المبرر الوحيد لقتل الفيل هو أخذ أنيابه وبيعها بمائة جنيه أو أكثر أو أقل .

إن صيد الحيوان لكى يقتات الإنسان بلحمه مسألة لا تحتمل جدلا ، لأنهـــا ضرورة ، وعندما يصطاد بعض الدنكا والشلك الجرنتى أو الفيل ويقتاتون بلحمه فلا لوم عليهم ولا تثريب ، فهم يعيشون فى ظل قانون واحد ، فلو أن الأسد جاع فسيأكل واحداً منهم ، فهو قانون مشترك والأسلحة متكافئة بين هذه الحربة التى يحملها رجل الدنكا أو الشلك ، وبين أنياب الأسد أو مخالبة ، أوخرطرم هذا الفيل . فمن أى ناحية فكرنا فيها وجدناها مفهومة ومستساغة .

أما الشيء الذى لا أسيغه وأنكره كل الإنكار ، فهو أن يعمد الإنسان الحديث المتمدين ، بعد أن أصبح مجهزاً بأفتك الأسلحة ، إلى القدوم من بلاد بعيدة ليلهو ويعبث بقتل هذه الحيوانات .

مسكينة هذه الحيوانات ، لقد أصبحت تدرك بغريزتها ، أنها لم تعد نداً لهذا الإنسان ، فهى لا تكاد تراه حتى تفر منه مذعورة ، ابتداء من الأسد ، حتى هذا الفيل العملاق . إن صيد هذه الحيوانات بدم بارد ، لا يدل إلا على رغبة كامنة فى نفس الصياد لسفك الدماء وإزهاق الأرواح ، ولذلك فعند ما رأيت زملائى المتحضرين المثقفين ، وهم يعدون بنادقهم ، ويزيتونها ، ويحشونها بالرصاص تمهيداً لاستعمالها فى الفرصة القادمة ، نظرت إليهم ، كما اعتدت أن أنظر من بدء رحلتنا إلى عجائب المخلوقات .

الساعة ١٠ مساء

يمكن القول إننا اجتزنا منطقة مليئة بالأفيال ، فعن اليمين وعن الشمال ، كنا نرى قطعاناً ضخمه من الأفيال ، ولطالما قيل لى منذ البداية إن من المحقق رؤية الأفيال فى منطقة بور . ولم نعد نعرف أى القطعان أكثر عدداً أقطعان الأفيال على الشاطئ ، أم قطعان الجرنتى فى الماء ، فقد تكاثر عدد الجرنتى كثرة كبيرة فى هذه المنطقة ، والحق أن الجرنتى يمكن أن يكون هو الحيوان النيلى الوحيد الذى رأيناه منذ بدأ الرحلة حتى منتهاها .

بلدة بور (١)

وصلت الرجاف الآن إلى بلدة بور ، وقد كان اسم بور يتردد منذ أمد بعيد لعدة أسباب ، أولها أن الكل يتحدث عن غناها بالغابات ، وكثرة الوحوش الضارية فى أرجائها وبخاصة الأفيال ، وثانياً لأنها بلد صديقنا العزيز

(١) تقع على بعد ١٢٦٩ كيلومتراً جنوبى كوستى .

جوردون أيوم ، حيث ينزل هو وأسرته لقضاء عطلته بها ، ولقد كنت كثير الشغف لرؤية مستقبلى جوردون ، فإذا بسيارة فاخرة من أحدث طراز ، وأقوام يلبسون جميعاً الأقمصة والبنطلونات والأحذية ، ويدعون لتناول الأشربة فى بار الباخرة ، وليس هؤلاء جميعاً إلا من الدنكا الذين تطوروا إلى هذه الدرجة من الرقى فأصبحوا كأى مواطن آخر من أبناء الشمال المثقفين .

الجيش المصرى فى بور

ولقد لفت نظرى عندما وقفت السفينة فى بور ، أن الشاطئ مكسو بالأحجار إلى مسافات بعيدة مؤلفاً بذلك ميناء محترماً ، والأشجار الضخمة نامية على الشاطئ مضفية على البلدة ، حتى فى هذا الليل البهيم ، منظراً جليلا ومهيباً .

وسألت دائرة معارف الجنوب السيد عبد الرحيم عن سبب ذلك ، فإذا به يحدثنى عن بور وأهميتها الماضية ، عندما كانت مركزاً للجيش المصرى حتى عام ١٩٢٤ وهو العام الذى أخرج فيه الإنجليز الجيش المصرى من السودان بمناسبة حادث الاعتداء على السير لى ستاك [1] .

وأنا شديد الحرص على أن لا أناقش فى هذا الكتاب مسائل سياسية ، فليس هناك ما يثير الجدل والشقاق أكثر من هذه الناحية ، وقديماً عندما كان الإنجليز يحتلون مصر والسودان ، كان حديث الجيش والأمجاد العسكرية يهز نفسى ، أما اليوم ، وقد تحرر وادى النيل من الاستعمار الأجنبى ، وقد أصبح الحديث عن الأمجاد العسكرية حديثاً قديماً ، لا يتفق مع روح العصر وتطور البشرية ، التى يجب أن تتفاخر الآن بما قدمت وسوف تقدم للعالم

---

(١) كان السير لى ستاك سرداراً للجيش المصرى وحاكماً عاما للسودان ، وقد اغتيل فى القاهرة خلال فترة النضال بين مصر وإنجلترا من أجل الحرية والاستقلال ، فانتهز الإنجليز فرصة هذا الحادث وفرضوا على مصر شروطاً ثقيلة .

من مدنية وحضارة علمية ، تقوم على الرغبة فى التآخى بين البشر .

أما اليوم وقد أصبحت إنساناً يؤمن بالحب والسلام ، وأعرض عن الكبر والخيلاء والزهو والكراهية والعنف ، وأنا أعترض على مجرد إيذاء فيل من الأفيال ، فلم يعد الحديث عن مرابطة الجيش المصرى يثير فى نفسى أى معنى من معانى الزهو أو الأسف ، لأنه لم يعد يرابط هناك .

بل إن الحديث عن الجيش المصرى فى بور ، قد يحرك بعض مشاعر غير لطيفة فى نفوس بعض إخوانى السودانيين ، الذين يغارون على استقلالهم ، والذين أحرص كل الحرص على مرضاتهم ، ومع ذلك فإن هذا لا يمكن أن يحول بينى وبين أن أسجل للجيش المصرى ، حقيقة تاريخية ثابتة ليس هناك من ينازع فيها ، وهى أنه عندما كان يرابط فى هذه المنطقة كانت تعليماته التى زود بها منذ أكثر من ثمانين سنة ، هو أن يحارب تجارة الرق فى هذه المناطق ويحول دون وقوع فرد من هذه القبائل فى ربقة العبودية ، أى قبل أن يقضى على الرقيق فى الولايات المتحدة الأمريكية نفسها [١] .

إن الجيش المصرى فى هذه المنطقة النائية عن العمران ، لم يكن جيش غزو أو نهب أو فتك أو استعمار ، وإنما كان رسول حضارة وإنسانية ، وليس أدل على ذلك من أن هذا الجيش كانت تتبعه مدارس ملحقة ، يتعلم فيها الجنود وأبناؤهم ، وكل من يشاء ويختار من أبناء قبائل الجنوب . وفى هذه المدارس تعلم الجنوبيون كيف يكونون جنوداً وضباطاً كرماء ، وكيف يكونون أبطالا وشهداء يموتون فى سبيل الشرف وتحرير الوطن من ربقة الاستعمار ، وما على عبد اللطيف رافع الكفاح ضد الإنجليز ، وما عبد الفضيل ألماظ شهيد السودان الخالد ، إلا جنوبيان من أبناء الدنكا ، وليس هذان البطلان إلا بعضاً من كل ، ونموذجاً من عشرات ومئات ، لا يزال

(١) صدر مرسوم تعيين صمويل بيكر على رأس الجيش المصرى بتاريخ أول أبريل سنة ١٨٦٩ وقد نص المرسوم على أن مهمة الجيش المصرى هى القضاء على تجارة الرقيق حتى منابع النيل .



مس بور

ملكة الجمال « إلى يمين الصورة » وقد فازت فى مسابقة أجريت لاختيار ملكة الجمال فى مدينة بور بمناسبة زيارة رئيس الحكومة للجنوب ويرى وهو يصافحها .

بعضهم أحياء ، بل إن منهم مدير إحدى مديريات صعيد مصر فى الوقت الحاضر .

إن المصرى فى بور وفى الملكال وفى التوفيقية وفى منجالا وفى بحر الغزال وفى كل مكان ذهب إليه لم يتعال على الدنكا أو النوير أو الزاندى ، ولم يعتبر نفسه سيداً لهم ، بل لقد تزوج منهم وصاهرهم ورزق منهم بالبنين والبنات[1] . وفى كل بلدة من بلاد جنوب السودان وفى سائر مراكزه ، يقوم كما ذكرت من قبل حى بأكمله يسمى حى الملكية ، وهم الجنود الرديف الذين خدموا فى جيش وادى النيل على قدم المساواة المطلقة مع إخوانهم الشماليين بدون تمييز أو محاباة ، ولن تجد بين هؤلاء الملكية عارياً ، ولن تجد بينهم من يمارس عادة تنكرها ، وإنك لتعرفهم بسيماهم فهم فخورون معتزون بأنهم يوماً من الأيام كانوا حماة لوادى النيل من منبعه حتى مصبه .

أجل ، إن الجيش المصرى عندما أقام فى جنوب السودان ، كان رسول حضارة وعمران ، كان تحية الشمال إلى الجنوب ، وإذا كان الإنجليز قد أسرعوا بطرد الجيش المصرى من هذه البقاع ، فلكى ينفذوا خططهم ومشروعاتهم التى أرى اليوم آثارها ونتائجها ، فى صورة هذه الملايين من البشر الحافية العارية فى سنة ١٩٥٦ .

---

(١) كان من محاسن الصدف أن الفندق الذى أقمت فيه فى الخرطوم يجرى ملك للسيد مصطفى كيشو وهو ابن صديق المجاهد القديم الحاج محمد فريد راشد المصرى الأصل ، وقد رزق بمصطفى من زوجة زاندية .

١١

الأربعاء ١١ أبريل

. . . لقد نويت الصيام . . .

الساعة ١٠ صباحاً

جو جديد

نحن الآن فى ختام رحلتنا وهذا هو يومنا الأخير على ظهر الرجاف، وقد دخلنا إلى منطقة جديدة ، وإلى جو جديد ، حقًّا لا تزال الأراضى على جانبى النيل منبسطة تكسوها الحشائش ، وذلك أمر طبيعى بحت ، فهذه الشواطئ هى جزء من حوض النيل ، ولن تلبث أن تغطى بماء الفيضان بعد قليل ، ولكن هناك . . . هناك على البعد وراء هذا القسم المنخفض من شاطئ النيل تتجلى أشجار كثيفة مرتفعة ، معلنة أننا الآن فى منطقة الغابات بعد أن خلفنا نهائيًّا منطقة الحشائش والأعشاب قصيرها وطويلها .

والسماء فوقنا تقدم لنا منظراً جديداً فى نوعه ، فالشمس مختفية وراء السحب ، والجو قاتم بعض الشىء ، حتى إننى لم أستطع أن أجازف بأخذ بعض الصور بعد أن لم يبق لدى منها إلا القليل .

والهواء بارد إلى حد أننى أفكر الآن فى ارتداء «الجاكتة» وقد قيل لى إن الجو فى جوبا سيكون أبرد من ذلك وقد تمضى أيام دون أن تطلع الشمس !

الساعة ٦ مساء

لم تطلع الشمس طوال النهار على ما ذكرت من قبل . ومظاهر الغنى تتجلى بوضوح فى هذه المنطقة الجديدة التى دخلناها ، حيث تتكاثر القرى

ويبدو من شكلها وشكل سكانها ، أنهم أحسن صحة وأكثر غنى من إخوانهم الشماليين من أبناء الدنكا أو الشلك أو النوير ، إن أجسامهم أكثر امتلاء وقد يكونون أقل طولا ، ولكن الشعور العام الذى يستقر فى النفس أنهم أنظف وأصح وأقوى . إن النساء هنا يستعملن أقمشة ملونة ومزركشة ، والرجال يحلون صدورهم وخصورهم بكمية ضخمة من الخرز « السكسك » حتى لقد تصورت فى بادئ الأمر أنهم يضعون على صدروهم قطعة قماش خضراء أو زرقاء أو صفراء أو حمراء ، فإذا هذا الذى أرى ليس إلا صفوفاً متراصة من الخرز .

وقد استرعى انتباهى أكثر وأكثر ندرة العنصر النسائى فيمن يقتربون من الباخرة فليس سوى الأطفال والرجال ، ذلك أن النساء كالعادة مشغولات بالعمل تاركين اللهو للرجل .

غـــداً

ولست أعرف لماذا جف فكرى ، ونضب معين أفكارى ، هل مرجع ذلك تكرر المناظر وعدم وجود شىء جديد أعلق عليه ؟ لا أظن أن هذا هو السبب ، ففى الأيام الماضية كنت أكتب وأحلق أحياناً فى دنيا الخيال والتأملات ، أو لم أتحدث عن إخناتون وهو شىء لا أراه ، ليست المسألة إذن مسألة عدم وجود مادة للكتابة ، ولكن الصحيح إننى مهتاج وفى حالة عصبية خفية ، فرحلتنا تنتهى غداً ، وبذلك نخرج من هذا الجو الرتيب الهادئ ، ومجرد هذه الفكرة قد عكرت علىّ هدوئى ، بل إننا الليلة نودع شعبان ونستقبل غداً شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، غداً نبدأ الصوم ، ولقد قيل لى إنك مسافر ومن حقك الإفطار ، وإنى أعرف ذلك تمام المعرفة ، ولكن أفلا يحق علىّ أن أشكر الله القدير على ما وفقنى له من القيام بهذه الرحلة ، وما هو طريق الشكر إلا أن يكون صوماً ، فما أتعس أن يكون شكرى لله غداً هو أن أستقبل رمضان بالإفطار .

لا ، لقد نويت الصيام ، وما أجمل الذكرى غداً وأحلاها ، عندما أعود إلى الوراء فأذكر أنني بدأت صيام شهر رمضان من عام ١٣٧٥ هجرية في مدينة جوبا الواقعة على بعد ١٤٣٦ كيلومتراً جنوبي بلدة كوستي ، على خط عرض ٥ بالقرب من خط الاستواء وحدود السودان الجنوبية .

١٢

الخميس ١٢ أبريل

أول رمضان

... ولكن الإنجليز خرجوا ، وتركوا وراءهم هذه البيوت والقصور والفنادق والحدائق ليستمتع بها السودانيون أصحاب البلاد ، وليستمتع بها ضيوفهم من أمثالى ...

الساعة ١٠ صباحاً

وأخيراً هأنذا فى جوبا وقد بلغت الرحلة النيلية أجلها ، ولذلك فقد تركت الرجاف ، وأنا شديد الأسف والحزن ، ولم تستطع الرجاف أن توصلنا لجوبا ، بالرغم من أنها ظلت تقاوم ببسالة لكى تصل إلى بلدة « منجالا » وهى محطتها العادية التى تقف عندها[1] ، ولكن المحاولة أخفقت ، فقد كان ماء بحر الجبل ضحلا لا يقوى على احتمال الرجاف بكل ثقلها وحمولتها ، على الرغم من أن هذه الحمولة كانت قد وصلت إلى النصف ، فقد كانت الرجاف تتخفف على طول هذا الجزء الأخير من الطريق من بعض حمولتها ، فكانت تترك بعض الصنادل فى المحطات .

الشروق الأخير

. ولست أعنى بأنه أخير إلا بالنسبة لى على ظهر الرجاف ، وإلا فستظل الشمس تشرق وتغرب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولقد كان هذا الشروق الأخير هو أفتن شروق شاهدته خلال الرحلة كلها .

(١) كانت آخر محطة وقفت عليها الرجاف قبل مغادرتنا لها هى بلدة تريكاكا التى تبعد ١٣٦٦ كيلومتراً جنوبى كوستى ، وكانت إحدى البلاد التى اشتعلت فيها الفتنة فى الجنوب . وقد راحوا يحدثوننا عن كيفية وقوع الحادث المؤسف الذى قتل فيه بعض التجار الشماليين .

لم تكن السحب كثيفة بحيث تحجب وجه الشمس كما حدث بالأمس ، ولكن كان هناك بعض السحب الكافية لتكون لوحة ترسم عليها الشمس أضواءها وألوانها المختلفة .

وكان ماء بحر الجبل ساكناً راكداً ، فلا تيار يحركه ، ولا هواء يداعبه ، كانت صفحة البحر كأنها مرآة صافية . وتضرجت السحب فى السماء باللون القرمزى ، وانعكس هذا اللون على ماء البحر ،فأصبح منظر السماء والأفق والبحر يؤلف وليمة للعين والقلب ومهرجاناً للروح . فالسماء قرمزية ، والأشجار عسجدية ، والمياة زجاج بعضه أزرق ، وبعضه أحمر ، والرجاف تسير وسط ذلك كله فى هدوء وحذر ، فيتثنى الماء تحت وطأة حركتها ، ويمتد الماء الزجاجى بألوانه الحمراء والزرقاء أمامها ، أما حولها : على جوانبها ووراءها ، فقد تكسر الزجاج وتدغدغ ، فاختلطت الألوان وامتزجت محدثه قعقعة ، فكأنهم يعجنون « قوس قزح » .

وترتفع أشعة الشمس وترتفع قبل أن يبرز قرصها ، فيختفى اللون البنفسجى ، ويحل محله اللون الذهبى ، وتغرد ألوف من الزرازير والبلابل ، ويخفق الهواء بأسراب من طير أبيض ، تسير متعاقبة ، وعلى الرغم من أن هذه الأسراب قليلة العدد لا تقارن بالزرازير ، فقد كان لها من ضخامة حجمها ونصاعة لونها الأبيض ما يعوض التأثير الذى يتركه فى النفس اندفاع طوفان الزرازير .

لقد كانت الطبيعة فى أعالى النيل تختم رحلتنا بأروع ما لديها ، وسيظل تأثير هذه السمفونية الروحية يدوى فى أرجاء نفسى ، وما أشد حزنى لعدم استطاعتى إشراك قرائى الأعزاء ، فى هذا اللحن السماوى الذى عزفته لنا الطبيعة فى صباح أول رمضان لعام ١٣٧٥ على بعد ١٤٠٠ كيلومتر جنوبى كوستى .

خيبة أمل

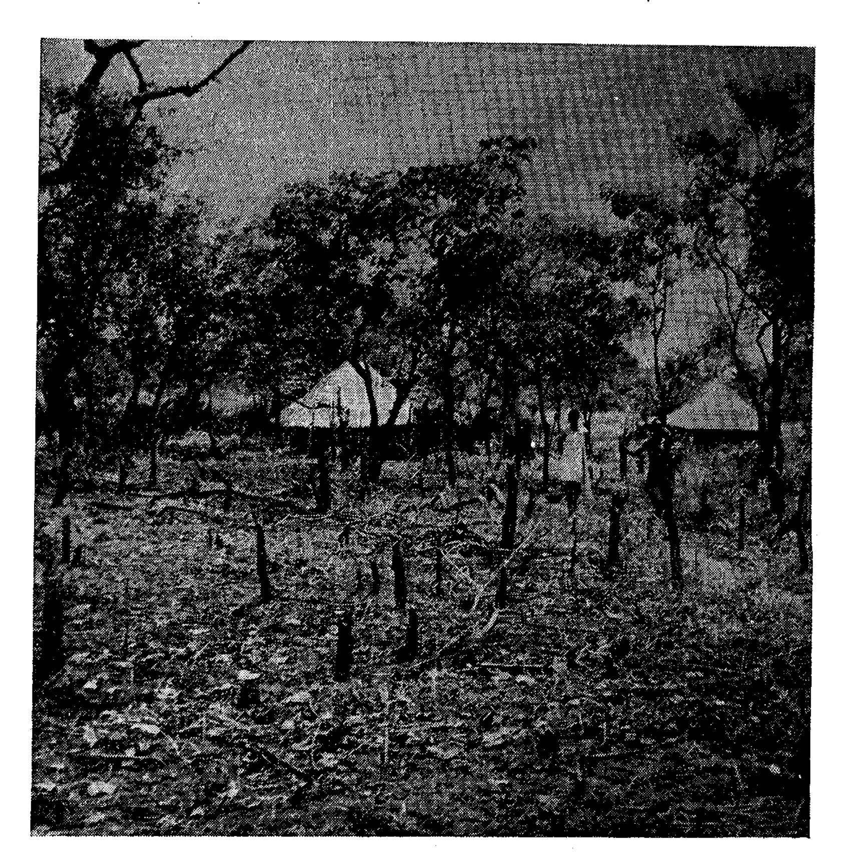
كان علينا أن نستقبل السيارات من مكان ما على الشاطئ لتأخذنا إلى منجالا ، ثم إلى جوبا ، ولقد كنت شديد السعادة بهذه الرحلة وسط الغابات فقد كانت نفسى تتوق أخيراً للسير وسط الغابات الاستوائية الكثيفة الأشجار والضاربة فى كبد السماء ، والمليئة بالطيور والحيوانات المفترسة والزواحف والثعابين ، والقرود . ولكن السيارة لم تكد تنطلق بنا وسط هذه الغابات حتى أحسست بخيبة أمل شديدة ، فلم يكن هذا الذى أرى ، ما أصبو إلى رؤيته ، بل لم يكن كهذا الذى رأيت من قبل فى غابات أوربا الخضراء المزهرة ، ذات الأشجار الفارعة الممشوقة القد ، والتى لا تستطيع الشمس أن تنفذ من خلال أغصانها لتكاثفها وتشابك أوراقها ، ورأيت نوعاً آخر من الغابات فى بورما ، وهى بدورها تبهج النظر وتسر الخاطر ، بألوانها النضرة ، وزهورها الجميلة وتكاثف أشجارها . ولقد كنت أحلم أن الغابات الاستوائية ستكون أشد فتنة من كل هذا الذى رأيت من قبل ، فإذا بى لا أرى إلا أشجاراً عجفاء عقراء تنضح بالشوك ... والشوك أمها وأبوها . كان المنظر فى مجموعه يوحى إلى نفسى وحشة الصحراء لا نضارة الغابة ، وواصلت السيارة سيرها ساعتين وسط هذا المنظر المجدب ، أشجار من السنط والطلح والدوم ، متباعد بعضها عن بعض ، وفروعها جافة أو ذات أوراق شوكية ، وكميات كبيرة من الشوك والعوسج والحشائش والقش الجاف تملأ الفراغ بين هذه الأشجار[١] . ولم نر على هذه الأشجار قروداً كما كنت أتمنى ، ولم نلمح أسداً يعدو هنا أو هناك ، بل لم نصادف أحد هذه الأفيال أو الجواميس التى كنت أتوقع رؤيتها ، وكل الذى رأيت خلال هذه الرحلة الطويلة ، هو بعض الغزلان والوعول وقد وقفت ترعى الحشائش الجافة هنا وهناك .

---

(١) لاحظت فيما بعد أن هذا المنظر كان نتيجة فصل الجفاف الذى لا يكاد ينتهى ، حتى يتغير منظر الغابة كثيراً جداً .

منجالا

ووصلت بنا السيارات إلى منجالا ، ولقد كانت قديماً هى عاصمة المديرية التى سميت باسمها « منجالا » ، ولكن الإنجليز كعادتهم ، ألغوا هذا الاسم كما ذكرت من قبل ، ونقلوا العاصمة إلى جوبا وسموها الاستوائية مع أنها ليست فى الحقيقة استوائية ، وإنما الاستوائية الحقيقية كما كانت تسميها مصر ، هى منطقة البحيرات ومنابع النيل ، وما فصله الإنجليز عن جنوب السودان مطاقين عليه اسم مستعمرة أوغندا .



فإذا بى لا أرى إلا أشجاراً عجفاء عقراء . . .

ومررنا فى منجالا بآثار بيت مهدم فسألنا عنه فقيل لنا إنه ذلك البيت الذى اعتاد المدير أن يسكنه عندما كانت منجالا عاصمة المديرية .

وعندما وقفت بنا السيارات فى سوق المدينة ، جاءنا جنوبى يرتدى القميص والشورت والقبعة ، فسلم على الشيخ الأمين بحرارة ، ثم ظهر أن هذا « الخواجة » هو إمام مسجد منجالا ، ولقد ابتهجت كل الابتهاج بهذا المنظر التقدمى ؟ !

الباريا

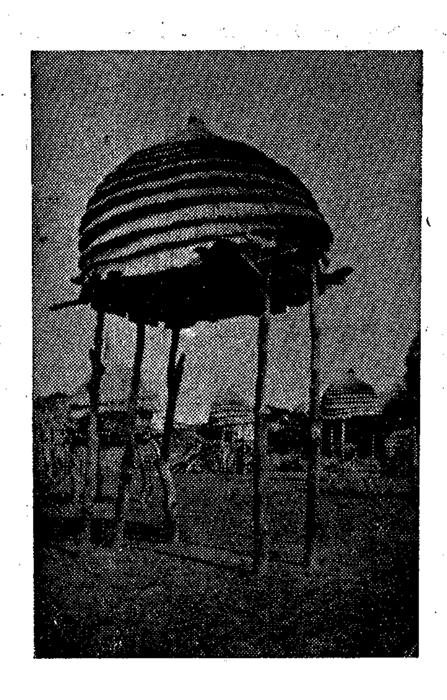
وبدأنا نرى على جانبى الطريق عشرات من القرى الصغيرة و « الحلل » وهى تغص بسكانها من الجنوبيين ، ولكن الأمر الذى لفت نظرى منذ اللحظة الأولى هو الارتقاء النسبى لمستوى هؤلاء السكان وما يبدو عليهم من الصحة ، فحتى الأطفال الصغار كانوا يسترون عورتهم بحزام من الخرز « السكسك » الذى كان يتدلى على صورة مربع كبير كاف لستر عورة الطفل ، أما النساء فكن كاسيات ، ومنظرهن ومنظر قراهن بصفة عامة جميل ومنظم ، والبيوت أو بالأحرى « القطية » لم تعد جدرانها تبنى من القش فقط ، بل من القش الممزوج بالطين لتكون أكثر دقة وإحكاماً ، وإن كان سقفها قد ظل من القش باعتباره الوقاية الوحيدة ضد المطر الغزير . وقد لفت نظرى فى مبانى القرية « قطيات » صغيرة مرتفعة عن الأرض فلما سألت عنها عرفت أنها مخازن الذرة ، وهم يرفعونها عن الأرض خوفاً عليها من الأرضة التى لو أدركتها لم تبق عليها ولم تذر . وأجسام الباريا أقل طولا بصفة عامة من أجسام الشلك أو الدنكا وأكثر بدانة[١].

وكان لون الأرض التى نسير عليها أكثر الطريق هو اللون الأحمر ، مما

---

(١) يرى بعض المؤرخين ، أن الباريا هم فرع من قبيلة التركانا التى جاءت من كينيا ، وتفرعت منها قبائل اللاتوكا ثم قبائل الباريا (كتاب الفاكهة المحرمة) .

يؤكد هذه الحقيقة التى طالعتها فى الكتب ، من احتواء الأرض فى هذه المنطقة على أكسيد الحديد .



مداعبة

ولقد قطعنا الطريق فى مداعبة مع صديقنا الشيخ الأمين داود محاولين تخويفه بما قد نتعرض له من مخاطر بعض المتمردين الذين لم يقبض عليهم بعد ، والذين لا يزالون منتشرين فى الغابة ، فقد كان المتمردون فى توريت ينتمون إلى قبيلة اللاتوكا ، وكان طريقنا إلى جوبا يمر فى منطقة توريت وقبائل اللاتوكا . وكان الشيخ الأمين يرد علينا بأنه لا محل للتخوف بأى حال من الأحوال ، فالحالة عادية جداً ، والحكومة قابضة على ناصية الأمور منذ أمد بعيد ، ولا يمكن لأحد من المتمردين أن يظهر على الطريق العام ، وتنثال

الحجج من فمه انثيالا لإدخال الطمأنينة على نفوسنا ، ولكنه فى الواقع إنما كان يدخل الطمأنينة على نفسه هو ، فقد كان دائم الحديث عن هؤلاء المتمردين متحرياً عن آخر أخبارهم ، حيث لم يكن هناك من يفكر فيهم غيره ، فلقد كان حادث الجنوب مجرد حادث عارض ، ولم تشترك فيه قبائل الدنكا أو الشلك أو النوير ، الذين يؤلفون تسعة أعشار الجنوبيين .

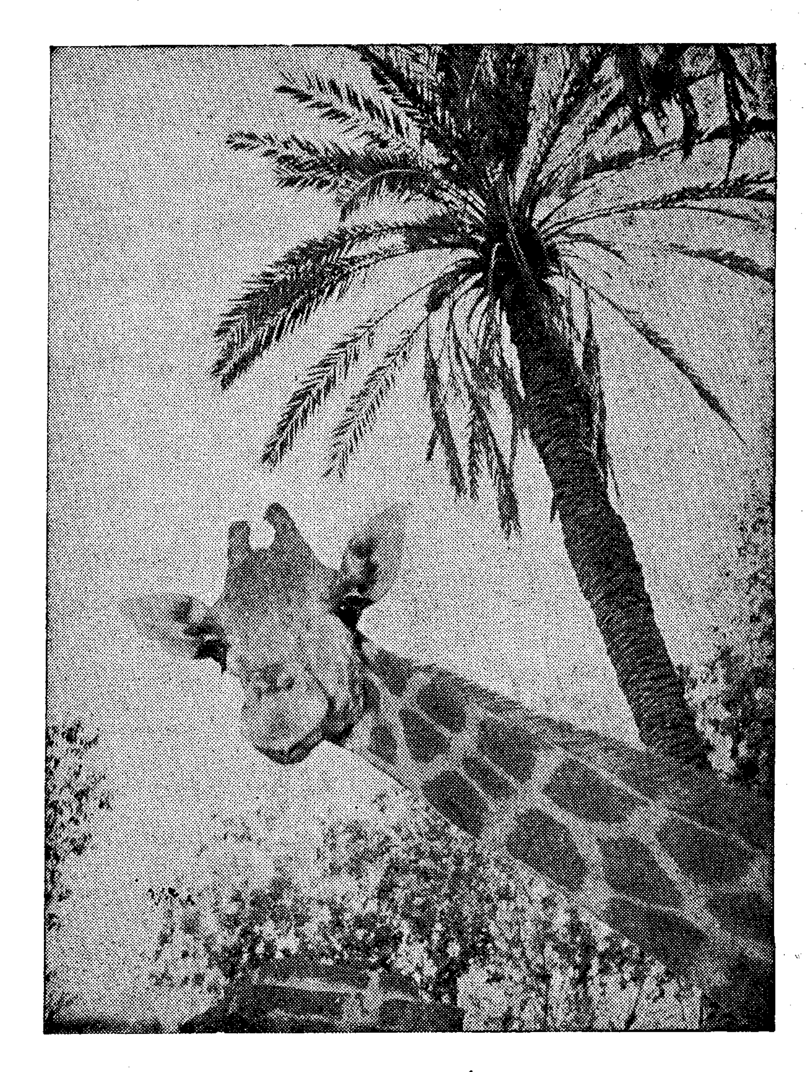
فى جوبا

وأخيراً وصلنا إلى جوبا ، وكان لا بد قبل أن نصل إليها أن نعبر النيل العريض . ومرة أخرى عدنا إلى النيل الحبيب ، أو بالأحرى بحر الجبل . وإذا كنا قد تركناه قبل منجالا ضحلا راكداً ، فهو هنا يفيض بالنشاط والحيوية فتياره جار يرى جريانه لأول وهلة وقد لا يقل عرض النهر عن ستمائة متر أو أكثر ، يعبرها الإنسان فوق مركب بخاري خاص مجهز لنقل الناس والحيوانات والسيارات بين الشاطئين ، ولقد قص علينا السيد عبد الرحيم ، كيف أن جسراً عائماً قد أنشئ بين الشاطئين فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، ولكن التيار لم يلبث أن اجترفه ، مما يدل على قوة التيار فى هذه المنطقة وخاصة أيام الفيضان .

وتجلت لنا جوبا بمنظرها الجميل بمجرد أن وصلنا إلى شاطئ النيل ، وكأنها بلد أوربى فهى مشيدة على هضبة عالية ، وقد بنيت بعض المساكن على سفح الهضبة المدرج ، ولما كانت سقوف هذه الأبنية من القرميد الأحمر ، وجدران المبانى مطلية باللون الأبيض ، تحيط بها الحدائق الخضراء ، فقد كان المنظر – كما قلت – أوربياً بحتاً كأننا فى ريف إيطاليا أو إنجلترا أو فرنسا .

فندق جوبا

وبعد أن عبرنا النيل وامتطينا سياراتنا من جديد ، انطلقت بنا فى شوارع



أهلا وسهلا . . .

عريضة ومرصوفة تحف بها الأشجار من الجانبين ، حتى وصلنا إلى فندق جوبا الغارق بين الحدائق والزهور ، حيث أجلس الآن لأكتب هذه السطور .

إنه ككل بناء أو مؤسسة أنشأها الإنجليز لاستعمالهم الشخصى ، قد حرصوا على أن يوفروا فيها كل وسائل الراحة والرفاهية الأوربية ، فهذه الحجرة رقم ١٥ التى أعطيت لى ليست فى حقيقتها إلا بيتاً صغيراً أو « فيلا » مستقلة وسط حديقة الفندق تحيط بها الزهور من كل جانب ، وتتألف هذه (الفيلا) من حجرة للنوم . وحمام كبير ، وحجرة ثانية يسمونها نملية جدرانها من السلك للنوم فيها إذا اشتد الحر ، بحيث يتمتع الإنسان بالنوم فى الهواء الطلق وسط الزهور ، دون أن تصل إليه الحشرات أو الهوام . وهكذا يتألف هذا البيت الصغير من حجرة للشتاء وأخرى للصيف ، وكل ذلك ليس فى حساب الفندق إلا حجرة واحدة تقدم للزائرين الذين كانوا من الإنجليز « طبعاً » بما لا يتجاوز إيجار سرير فى أى فندق متواضع .

ولكن الإنجليز خرجوا ، وتركوا وراءهم هذه البيوت والقصور والفنادق والحدائق ليستمتع بها السودانيون أصحاب البلاد ، وليستمتع بها ضيوفهم من أمثالى ، وهكذا منذ وطأت أقدامى أرض السودان ، وأنا أجوس خلال الصروح والمنشآت التى شادها الإنجليز لأنفسهم ، وهم يحسبون أنهم خالدون فى الأرض ، ولسان حالى يردد قول العزيز الحكيم :

« كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين ، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » .

١٣

الجمعة ١٣ أبريل

... وكان طبيعياً ، وقد زرت الكنائس ، وما أكثرها ، ان أزور المسجد الفريد فى جوبا ، الذى اعتبر عندما ظفر المسلمون بإنشائه عام ١٩٤٠ فتحاً مبيناً .

الساعة ٩ مساء

أمضينا يوماً كاملا فى جوبا ، طفت فيه خلال أسواقها ومنشئاتها فى صحبة السيد محمد عبد الكريم مفتش البلدة ، وفى خلال هذه الجولة والإقامة استطعت أن أجد تعليلا لكثير مما أغلق علىّ فهمه فى القديم . الآن فقط عرفت لماذا كان الإنجليز يتعلقون بالجنوب ، ولماذا اشتغلوا جاهدين طوال خمسين سنة لفصله عن الشمال . ففى هذا الجزء من السودان يستطيع الإنجليز أن يعيشوا ، فهذه البيئة ليست غريبة عن الرجل الأبيض القادم من الشمال. إن الجو الجميل ، والشمس المحجوبة أكثر الوقت بالسحب ، والأمطار التى تهطل ، والجبال المكسوة بالأشجار ، هذه هى بيئة الأوربى ، وباستطاعته أن يعيش هنا وأن يستوطن وأن يستغل ويستثمر ، كما فعل فى كينيا التى يقولون عنها إنها أروع من ذلك كله . والتى يحاول أن يبيد سكانها إلا من الأيدى العاملة الضرورية لخدمة المستعمرين الذين يعيشون هناك .

كم كنت أندهش عندما أسمع عن إرساليات التبشير فى جنوب السودان وكيف تأسست منذ أكثر من مائة عام ، لقد كنت أتصور كما يتصور الآن غيرى ممن لم يأتوا إلى هذه البقاع ، أن هؤلاء المبشرين يعيشون فى الجحيم ، وإذا بجنوب السودان لا يمكن أن يكون جحيماً بأى حال من الأحوال ، وأى

جحيم لا تطفئه أمطار تهطل تسعة شهور فى السنة ، ويبلغ سمك المياه التى تسقط على هذه الأرض كل عام ما يتراوح بين ١٠٠ و ١٣٠ سنتيمتراً .

إن مدينة جوبا مركز التبشير فى الجنوب ، ليست جحيما ، ولكنها حديقة مترامية الأطراف ، مليئة بالأشجار والزهور المبهجة التى تغطى بيوتها المتباعدة بعضها عن بعض مئات الأمتار ، ليستمتع كل إنجليزى ، أو كل قسيس ومبشر ، بالحرية التامة المطلقة ، وسط بيته الخاص .

وتقوم فى بعض أجزاء المدينة ، أكواخ السكان ، وكأنها معسكر كبير بنفس النظام والأسلوب ، فالأكواخ أو القطيات ، كأنها الخيم بسقوفها المخروطة ، وهى منشأة على خطوط منظمة وفى مربعات متساوية

ويشرف على المدينة جبل مرتفع مكسو بالأشجار ، وفى الطريق نحو الجبل تقع بنايات إرساليات التبشير ، شامخة بأسقفها من طوب القرميد الأحمر .

ومن حين لآخر ترتفع الكنائس بأبراجها وأجراسها ، فإذا دخل الإنسان إلى أى كنيسة منها ، وجدها نظيفة أنيقة كأى كنيسة فى قرية أوربية .

مبشر

وقصدت مع حضرة المفتش السيد محمد عبد الكريم ، لزيارة المركز الرئيسى للتبشير ، فلم نجد به أحداً لأن المدارس معطلة بعد حوادث التمرد ولم يعد فتحها بعد ، وقد شاهدنا أحدُ الآباء من بناء آخر ، فجاء مسرعاً فوق دراجته ليستعلم عن هويتنا وغايتنا ومقصدنا ، وللانتقال من مبنى إلى مبنى لا بد من استعمال الدراجة ، فالمسافات شاسعة والأرض بلا ثمن ، والطبيعة تساعد على غرس الحدائق . وكان المبشر الوافد علينا شاباً برغم هذه اللحية الكثيفة التى تحجب وجه الشمس ، وعمره لا يتجاوز السابعة والعشرين ، وهو خريج جامعة روما ، وقد جاء حديثاً ، ليعاون على المهمة المقدسة التى يقوم بها إخواننا المبشرون ، وهى إدخال هذه القبائل الوثنية ، فى دين الله أفواجاً دين

أوربا وأمريكا ، أما دين أفريقيا وآسيا الذى يدين به أربعمائة مليون من البشر ، والذى يمثل حضارة روحية كأرقى ما تكون الحضارات . . . أما دين الإسلام فحرام أن ينفذ إلى هذه البقاع وإلى هذه النفوس ، وخير من الإسلام أن تبقى هذه القبائل غارقة فى الوثنية إلى يوم القيامة . فالمهم هو أن يبقوا على خلاف مع الشماليين ، فإذا لم يكن من المستطاع إدخالهم إلى المسيحية ، فليبقوا فى الوثنية فإن ذلك يجعل حاجزاً بينهم وبين إخوانهم فى الشمال ، ويكون وسيلة دائمة لتخويفهم من عدوان الشماليين .

هذا هو منطق الاستعمار ، وهو واضح ومفهوم ، ولكن القبيح أن تعاون الكنيسة وأن يعاون رجل الدين على خدمة هذه الأغراض ، بنشر بذور البغضاء والتفرقة ، وإثارة الأحقاد ، باسم المسيحية التى يقوم جوهرها على الحب والسلام .

وإذا كانت هذه الحالة مفهومة فى القديم ، عندما كان هناك إنجليز ، وكانت هناك خطط ترسم لفصل الجنوب عن الشمال وضمه إلى أوغندا ، فإنه من غير المفهوم أو المستساغ أن يستمر هذا الوضع يوماً واحداً ، بعد حصول السودان على الاستقلال ، وأن يبقى المبشرون الأجانب هم أصحاب النفوذ والسلطان الروحى فى الجنوب ، وهم سدنة التعليم ورسله للجنوبيين .

إننى رجل لا أفرق بين الأديان ، ولا أعرف التعصب ، والأديان كدعوة روحية تدعو الإنسان للتسامى ولحب أخيه الإنسان ... هى عندى كلها محببة ، أما عندما تكون أداة للإضرار كما كان شأنها خلال نصف قرن فى جنوب السودان ، وعندما تكون سبيلا للتفريق بين أبناء الشعب الواحد ، ففى هذه الحالة يجب الوقوف فى وجهها لأنها تكون قد خرجت عن غايتها ، ولذلك فإن من أقدس واجبات السودان فى عهده الجديد ، أن يقول لا تبشير بواسطة مؤسسات أجنبية ، وأن من حق السودانى ، ومن حق السودانى وحده فى الجنوب أو الشمال ، أن يدعو للمسيحية أو يدعو للإسلام كما يشاء ، أما أن يأتى

إيطالى ، أو إنجليزى ، أو أمريكى ، تحت ستار الدين لخدمة أغراض دولته ، فهذا مالا يمكن أن يكون مقبولا أو مستساغاً فى دولة حرة مستقلة .

فى مسجد جوبا

وكان طبيعيًّا ، وقد زرت الكنائس وما أكثرها ، أن أزور المسجد الفريد فى جوبا ، الذى يعتبر عندما ظفر المسلمون بإنشائه ، فى عام ١٩٤٠ فتحاً مبيناً ، بل لقد بلغت لهفة المسلمين على الإسراع ببناء المسجد ، قبل أن يغير الإنجليز رأيهم ويحولوا دون إنشائه ، أنهم لم يتحروا الدقة فى معرفة مكان القبلة ، ولذلك فقد رسموا على الحصر التى فرش بها المسجد خطوطاً مائلة ليقف عليها المصلون فيستقبلوا القبلة استقبالا صحيحاً .

وكان المسجد مكتظًّا بالمصلين من أبناء الشمال ، ولكنى لم أجد فيهم جنوبيين ، وقد يكون من بينهم الجنوبيون دون أن أعرف ، ولكن من الواضح أن الكثرة الساحقة هى من الشماليين ، وخطب خطبة الجمعة صديقنا الشيخ الأمين داود ، وكان مدار خطابه ، وجوب أخذ الحق عن أى طريق جاءنا ولو على يد ضعيف أو بغيض ، ورفض الباطل ولو جاءنا على يد قوى أو حبيب . وكان آخر ما أتصوره أن تكون خطبة الجمعة فى هذا المكان السحيق تدور حول هذا المعنى المثالى الدقيق ، ولكن الشيخ الأمين يأبى إلا أن يحملنى على التعلق به واحترامه يوماً بعد يوم .

الكنيسة تدق النوبة

وعلى ذكر المبشرين ، والمسجد ، ومحاولات الإنجليز للحيلولة دون نشر الإسلام بأى ثمن من الأثمان ، فقد حدث أن عنّ لأحد الجنوبيين المسلمين ، أن يطوف البلد كل جمعة وهو يدق النوبة ، أو ما نسميه فى مصر «طبول الذكر» ، فكان للطبل تأثير سحرى فى الصبيان والفتيات ، جعلهم يتركون الكنائس ويتجمعون حوله فيقودهم إلى المسجد وإلى حلقات الذكر . فما كان من الإنجليز

إلا أن طلبوا من المبشرين ، أن يدقوا بدورهم نوبة ، وأن يطبلوا للأولاد حتى يأخذوهم إلى الكنيسة ، وقد كان وأصبح للكنيسة نوبة ، تستعمل فى بعض المناسبات .

جولة فى الأسواق

وتجولنا فى السوق ، فلم يكن هناك ما يستلفت النظر ، ولم يكن هناك من الفواكه أو الخضراوات ، هذا الذى طالما سمعنا عن وفرته أو رخصه ، ولقد قيل لى إن حديث هذا الرخص الشديد قد انتهى منذ حين ، فالأسعار هى الأسعار تقريباً مع تخفيض طفيف ، وذلك لكثرة المستهلكين فى المدينة وتزاحمهم على المنتجات المحدودة .

وسكان المدينة جميعاً يرتدون الملابس ، والشمالى يرتدى ملابس الشمال : الجلباب والعمامة ، أما الجنوبى فيرتدى القميص والشورت ، ولكن من حين لآخر يفاجأ الإنسان بواحد من الدنكا وقد ظهر أمامه عارياً ، فيبدو منظره مؤذياً وسط هذا الإطار الذى لم يعد يلائمه بحال من الأحوال . أما لماذا يعرف الإنسان أنه من الدنكا فذلك لأن الباريا كما قلت لايوجد بينهم من يبدو عارياً ، وكل القبائل المتفرعة من الباريا واللاتوكا التى تقيم فى هذه المناطق ، كلها تستعمل الملابس ، وليس سوى الدنكا الذين يفدون من هنا وهناك من يحتفظون بعريهم ، وأحسب أن الوقت قد حان لعدم السماح بالعرى فى عاصمة الجنوب فوراً .

ديمقراطية

ولقد أعجبنى أثناء تجوالى مع السيد محمد عبد الكريم المفتش ، أن منظر بزته العسكرية ، ووظيفته الكبيرة ، لم يكن لها أى أثر غير عادى على

أصحاب المحال التى دخلناها ، أو التجار الذين حادثناهم ، فقد كنا نعامل كزبائن عاديين ، وقد ننتظر حتى يفرغ لنا الموظف من عمله ، وعندما مررنا فى السوق وسط البائعين والبائعات ، لم يحفل أحد أو يفزع من رؤية الضابط الكبير ، ومضى كل إنسان فى عمله ، دون أن يظهر لنا أى اهتمام غير عادى .

والحق أن هذا المظهر يدخل السرور على نفسى مذ وطئت أقدامى أرض السودان وقد بلغ الذروة فى الجنوب ، فالناس هنا على الفطرة لايزال إحساسهم بتساويهم قوياً ، والحاكم أو الموظف الكبير ليس إلا إنساناً عادياً ، والاحترام والإجلال لا يسبغ على الناس بسبب مراكزهم أو سلطانهم ، وإنما بسبب شيخوختهم ، أو سبب علمهم ، أو دينهم [1] .

---

(١) حضرت حفلة سياسية فى الخرطوم فوجدت وزراء يقفون لأنهم جاءوا متأخرين فلم يجدوا مقاعد ، فظلوا وقوفاً ولم يتخل لهم أحد الحضور عن مقعده حتى أحضرت لهم مقاعد .

١٤

السبت ١٤ أبريل

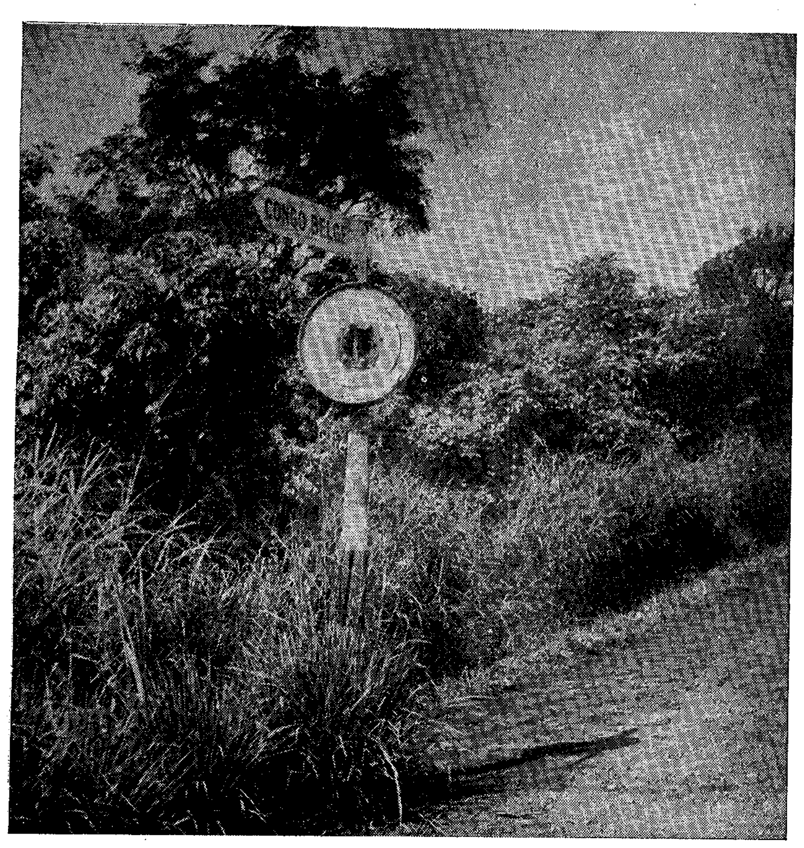
الساعة ٩ مساء

تلطف مدير الاستوائية ، السيد عبد العزيز عمر ، فسألنى بمجرد وصولى عما أريد أن أرى وأشاهد ، فقلت له إن هواى كله متعلق بالنيل ، فأنا أريد أن أتابع رحلتى حتى آخر حدود السودان على النيل ، وأريد أن أصل إلى بلدة نمولى على حدود السودان وأوغندا ، فقال المدير ، سنعد لك رحلة تصل فيها إلى نمولى ، ولكن لا بد لك من الذهاب أولا إلى الغرب فى اتجاه بلدة ياى ومريدى ، وإلا فلن تأخذ صورة حقة عن الجنوب ، فإن ثروة الجنوب التى تسمع عنها فى هذا القسم من السودان المتاخم للكونغو البلجيكى والغابات الجميلة والكثيفة هى فى هذا القسم . ولما استوثقت من أن الرحلة فى هذا الاتجاه لن تحول بينى وبين الذهاب إلى نمولى ، فقد رحبت بهذه الدعوة للاتجاه صوب الغرب ، صوب حدود الكونغو البلجيكى ، ورحت أجمع ما أستطيع من المعلومات عما سوف نراه . وكانت كلمة الزاندى هى أهم ما تردد فى هذا الموضوع . قيل لى سوف ترى قبائل الزاندى ، وباستطاعتك إذا شئت أن تذهب إلى أبعد من ذلك فترى مشروع الزاندى ، فى بلدة إنزارا .

قبيلة الزاندى — نيام نيام

قلت : وما هى أهمية قبيلة الزاندى ، قالوا : إنها شىء يخالف كل ما رأيت حتى الآن ، فهم ليسوا عماليق كالدنكا أو الشلوك ، وهم ليسوا متوسطى القامة

كالباريا أو اللاتوكا ، إنهم قصار ، ولولا اختلاطهم بباقى قبائل السودان وتأثرهم ببيئتهم الخاصة ، لكانوا أقزاماً من أقصر الأقزام . أما الآن فهم متوسطو القامة أو دون المتوسط بقليل (١٦٩ سنتى) ، وهم ليسوا سود الوجوه ، بل إن لونهم أسمر فاتح ، أقرب إلى حمرة النحاس ، وقد تجد بينهم من يمكن أن يعد من البيض . ولكن كل هذا الذى قيل لى عن الزاندى ولونهم وتصرفاتهم لم يثر اهتمامى ، ولكن كلمة واحدة جعلتنى أهتم بأمرهم اهتماماً شديداً . أما هذه الكلمة فهى« نيام ، نيام » قال لى المتحدثون : الزاندى هم النيام نيام ، ألم



علامة الطريق التى تشير إلى الكنغو

تسمع بهم ؟ وكان ذلك كافياً ليجعلني أبدى هذا التأثر الشديد ؟ قلت : تقصدون « نم ، نم » ؟ قالوا : نعم ، قلت : أكلة لحوم البشر[1] ؟ قالوا : نعم ، وتمنيت لو استطعت أن أنطلق نحوهم على الفور . مساكين الزاندى فقد أطلق عليهم بعض مؤرخى العرب القدماء هذه التسمية المشتقة من الصوت الذى تحدثه الشفتان الغليظتان ، ثم أصبحت علماً بعد ذلك على الوحشية والهمجية ، حتى لقد وصفت القبيلة بأنها تأكل لحم البشر ، مع أن الزاندى يؤلفون جزءاً هاماً من سكان الجنوب الأكثر تطوراً ، والذين أنشئ فى منطقتهم مشروع الزاندى الذى لا يوجد ما يضارعه الآن فى كل السودان ، وحسبك أن تعلم أن المشروع يقوم على إنتاج القطن وغزله ونسجه . وإنتاج البن وغير ذلك من الحاصلات والصناعات التى لم توجد بعد فى السودان .

مشروع الزاندى

أسس هذا المشروع المستر توتهل مؤلف كتاب « الزراعة فى السودان » ، الذى أشرت إليه فيما مضى ، وقد تحدث عن هذا المشروع وأغراضه الاجتماعية والاقتصادية فى الكتاب المذكور فى صفحاته الأخيرة ، وقد أتيح لى أن أقابل مدير المشروع الحالى السيد خليفة محجوب وهو سودانى كبير ، فقص علىّ بدوره الكثير من أنباء المشروع والحق أنه شىء فذ وفريد فى حياة الإنجليز فى السودان ، فالأمر ما يقومون بالعمل الوحيد الإنسانى لمصلحة الزاندى للتطور بهم اجتماعياً واقتصادياً ، وإدخال النقود فى مجتمعهم ، وقد تكلف المشروع خمسة ملايين جنيه . ويقوم المشروع على تشجيع رب كل أسرة من الزاندى ،

(١) حدثنى السيد عبد الله خليل رئيس الحكومة الحالى وهو من الثقة المحققين ، أن هذه التهمة على غير أساس ، وأنه لم يحدث فى تاريخ السودان الحديث أن ظهر لهذه الإشاعة أى نصيب من الصحة ، بل لقد وقع حادث يثبت العكس ، فقد كان أحد السلاطين يقتل الناس ثم يدفن جثثهم فى حديقة بيته ، مما يدحض هذه الفرية ، فلو كان يأكل اللحم البشرى ، هو أو أحد من أتباعه ، لما عثر على هذه الجثث مدفونة .

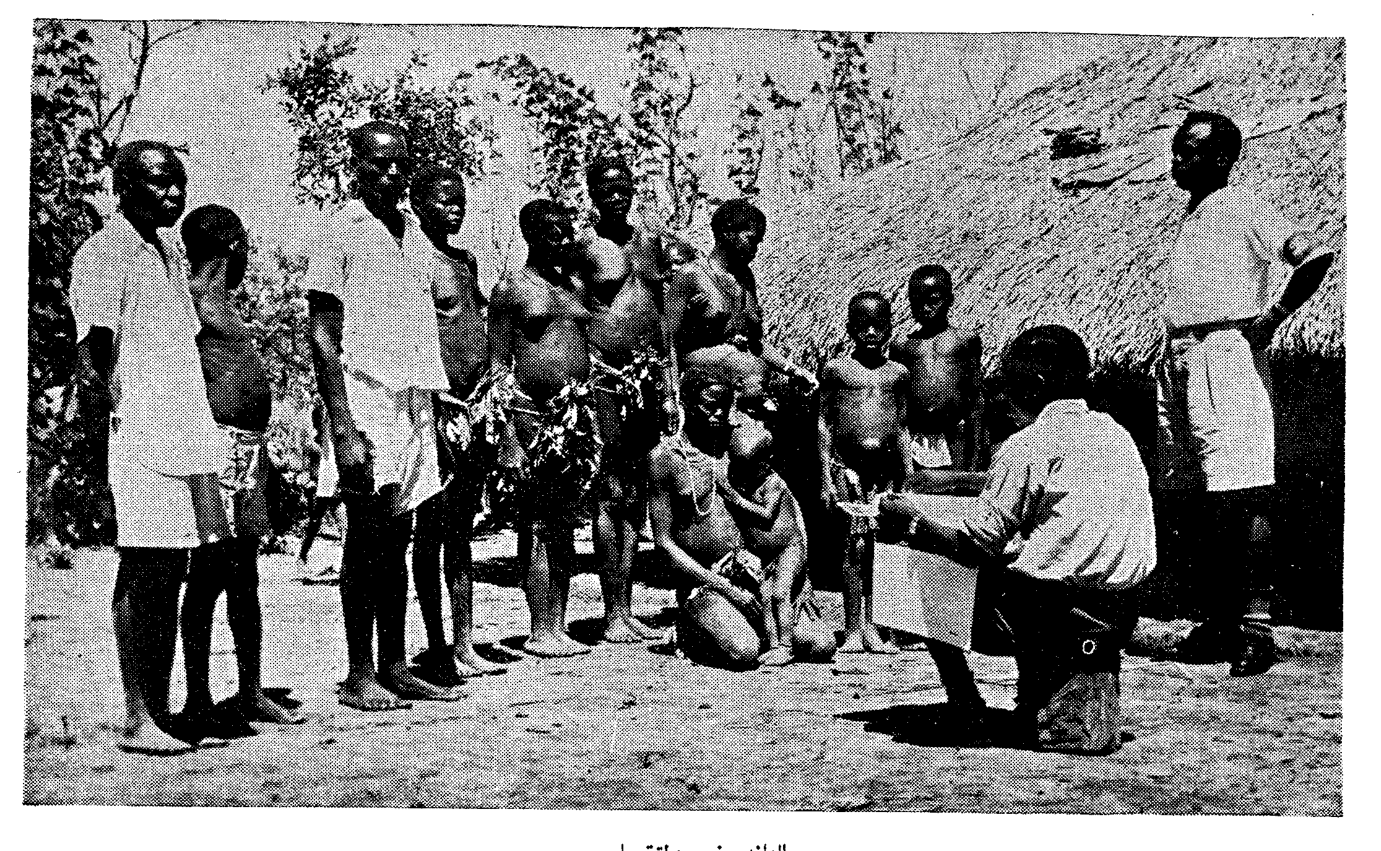
على أن يزرع إلى جوار الذرة والحاصلات الأخرى التى يزرعها لغذائه ، كمية أخرى من القطن الأمريكى ، الذى ينمو على المطر . وهذه الكمية من القطن تحلج ثم تغزل ، ثم تنسج . وأنشئت المحالج بالفعل ، وأنشئ مصنع للغزل والنسج ، أصبح ينتج الأقمشة الدمورية التى تعرض فى الأسواق وهى مفخرة الصناعة السودانية الحديثة .



حسناء وسط أشجار الموز

ويزرع البن ، وقصب السكر ، والمطاط . وكل ذلك فى منطقة الزاندى ، لرفع مستوى معيشتهم .

ولا يقف المشروع عند هذا الحد ، بل إنه فى نفس الوقت يحمل البضاعة للزاندى ويتولى بيعها لهم ، كما يحمل منتجاتهم ليبيعها لهم ، وكان يمكن أن



الزاندى فى منطقة ياى

موظفو الإحصاء يقومون بعملهم لأول مرة فى تاريخ السودان ، ويلاحظ ستر الأهالى لعورتهم بلباس من أوراق الشجر

يكون هذا المشروع المثالى نعمة كبرى لا على الزاندى فحسب بل على كل قبائل الجنوب ، بل كان يجب أن يكون مورد ثروة ضخمة للسودان كله ، لولا أن بعض الإنجليز (الشرفاء النزهاء) ، قد حولوه إلى عبء على الدولة ، فقد كان كل إنجليزى يريد الحصول على سلعة من السلع من إنجلترا يكلف مشروع الزاندى فيشترى منها كميات ضخمة ، وتتكدس الآن بضائع قد يبلغ ثمنها مليون جنيه بعد أن فسدت وتلفت لعدم الاستعمال أو الحاجة إليها ، والمأمول الآن بعد أن آل المشروع إلى أيدى السودانيين الأحرار ، أن يصححوا الأخطاء وأن يدعموا هذا المشروع الاقتصادى الإنسانى العظيم .

وتقدرون فتضحك الأقدار

وهكذا امتلأت شوقاً وعزماً لرؤية هذا القسم من الجنوب ، والذى بدا لى كما لو كان يحوى كل عجائب الجنوب وخصائصه ، فالمانجو التى نسمع عن كثرتها واضطرار الحكومة لإتلاف كميات كبيرة منها سنويًّا ، لحماية الصحة العامة ، تقع فى هذا القسم ، والموز الذى ينمو فطريًّا ، والأناناس الذى نجح نجاحاً منقطع النظير ، وقصب السكر والمطاط والبن وأخيراً عسل النحل الذى يوجد فى هذه المنطقة بكثرة وافرة[1] . والحديد والنحاس والذهب والاسبستس ، والفضة والفحم والرصاص واليورانيوم ، كلها فى الطريق إلى الكشف فى هذه المنطقة . ولكن صدق من قال : وتقدرون فتضحك الأقدار ! ! فلم يكن مقدراً لى أن أرى ذلك كله ، ولم يكن مقدراً لى أن أسافر إلى ياى أو مريدى ، ولم يكن مقدراً لى أن أقف على الحد الفاصل بين السودان والكونغو البلجيكى ، ولم يكن مقدراً لى أن أدخل مناطق الزاندى ، حيث ذبابة التسى تسى المشهورة ، التى تحمل مرض النوم ، ومرض الفيل ، والتى قضت على

(١) تبلغ قيمة عسل النحل المستفاد به حسب تقدير مصلحة الغابات خمسين ألف جنيه سنوياً .

المواشى فى هذا القسم من السودان فلم تعد هناك أبقار ولا أغنام ، لا لم يئن الأوان بعد ، ليس من قسمتى ونصيبى أن أصل إلى ياى ، وذلك كله على الرغم من أننا ركبنا السيارة ، وانطلقنا فى الطريق إليها ولكن . . . ولكن هذه تحتاج إلى تفصيل .

فى الطريق نحو ياى

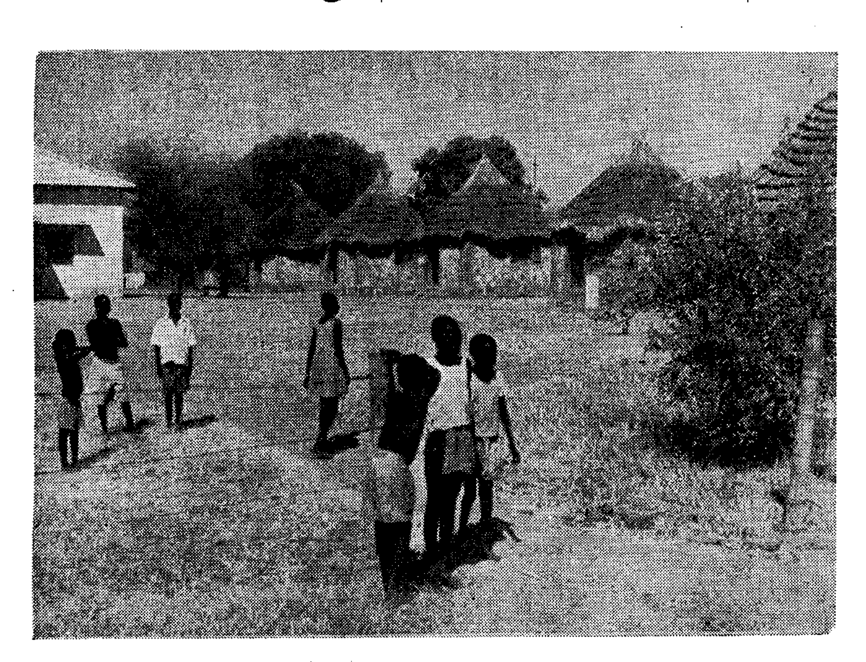
وكاى رفيقى ورائدى المعين لمزاملتى فى الرحلة هو مأمور جوبا[1] ، وفى الصباح المبكر كان يقابلنى فى الفندق ، وبعد قليل جاءت السيارة ، وقد أراد المدير أن يكرمنى فاستأجرت المديرية سيارة خاصة لأحد التجار لتكون مريحة ، وبدأنا رحلتنا عند مفترق الطرق ، حيث هذا النصب العجيب الذى يشير إلى مختلف الطرق التى تقود المسافر إلى الغرب نحو الكونغو ، أو إلى الجنوب نحو أوغندا ، أو إلى الشرق نحو توريت وباقى أجزاء المديرية . وقد نقشت على هذا الحجر أسماء الرواد الأوائل الذين اكتشفوا منابع النيل ، أسماء سباك وجرانت ، وصمويل بيكر وامرأته ، والذين اعتبروا مستكشفين لمنابع النيل ، مع أن منابع النيل كانت معروفة ومشهورة ، بل إن سباك لم يصل إلى بحيرة فيكتوريا نيانزا إلا بمساعدة العرب الذين وصفوها له ودلوه عليها .

واختارت السيارة طريق الكونغو ، وانطلقت فيه ، فإذا بنا نسير فى طريق معبد كأروع ما تكون الطرقات فى أوربا وأمريكا ، وللطبيعة نصيب كبير فى حسن تعبيد الطريق ، فالأرض كما ذكرت من قبل حجرية حديدية حمراء اللون . وكان المنظر يحيط بنا كأبدع ما كان يمكن أن أتصور أو أتخيل . كانت هناك جبال وتلال ، على الرغم من أن الجرانيت هو مادتها ، والصخور البركانية جوهرها ، ومع ذلك فقد نمت عليها الأشجار الخضراء ، بل كستها بصورة ساحرة رائعة كما لو كنا فى أحراش لبنان أو بعض جبال التيرول ،

(١) هو السيد « عبده أحمد جابر » .

وكانت آثار الخريف وسقوط الأمطار تتجلى على الأشجار ، فقد بدأت الأوراق الخضراء الصغيرة تنبثق من الفروع الجافة ، ولمحت بين الأغصان العصافير والطيور الملونة ، مما تغص به حدائق الحيوان فى العالم ، ولكن الطريق بلونه الأحمر العجيب ، كان هو الذى يأخذ بلبى أكثر من أى شيء آخر ، وسط هذه الألوان المختلفة . وقطعنا خمسة أميال ، وقطعنا عشرة أميال ، وقطعنا خمسة عشر ميلا أو عشرين ، وفجأة توقفت السيارة وأصيبت بعطب ، ونزل السائق لإصلاح العطب ، وقد كنا نتصور بطبيعة الحال ، أن السيارة لا تلبث أن تصلح ، ولا نلبث أن نتابع رحلتنا ، وتجمع حولنا صبيان ورجال لمشاهدة منظر السيارة المعطلة وكانوا جميعاً يرتدون الصلبان فى رقابهم إشارة إلى نصرانيتهم .

ولم يلبث السائق أن طلب منهم أن يدفعوا السيارة إلى الأمام ، فلم يترددوا فى تقديم هذه المعونة ، وساقوا السيارة أمامهم بضع مئات من الأمتار وجلست



أنا على حافة الطريق والغابة فى انتظار ما تسفر عنه هذه الجهود .

وخلال جلوسى ، لاحظت وجود هذه التلال الترابية التى تبنيها الأرضة فاقتربت منها ورحت أتأملها وأحدق النظر فيها ، فلم أعثر على الحشرة ويظهر أنها تختفى فى أعماق التل .

خيال !!

وطال بى الوقوف وسط أشجار الغابة ، وانشغل أصحابنا تحت إشراف رفيقى المأمور فراحوا يدفعون السيارة أمامهم محاولين إرجاع الحياة إلى محركها ، وإذا بخاطر يطرأ على ذهنى ، وراح يداعب خيالى ، ولم يكن هذا الخاطر إلا فكرة أن أرى نفسى وجهاً لوجه أمام أسد جائع أو غير جائع ، أو فلنقل جاموساً وحشيًّا ، فماذا يكون تصرفى وليس إلى جوارى أحد ، ولا سلاح فى يدى ، وحتى لو كان فى يدى سلاح ، فهل أحسن استخدامه فى هذه الحالة .

وكان أول جواب عن هذا السؤال ، هو الصراخ ، يجب أن أصرخ مستنجداً بالجماعة التى ابتعدت عنى . ولكن سرعان ما قلت فى نفسى : ولكن الصرخة سوف تفزعه وتثير غضبه وتدفعه للانقضاض على . وإذاً فلا سبيل إلا إطلاق ساقى للريح كأى جبان رعديد ، ففى الجبن السلامة ، ولكنى تذكرت أن من خصائص الحيوانات كلها ، أن تطمع فى الحيوان الهارب ، والأسد والحمد لله لا تنقصه سرعة العدو والقفز الذى يجعله يدرك أى طريدة يطاردها ، وإذن فلم يبق إلا أن أهاجمه (ياسلام !) لا بد أن أدافع عن نفسى ، لا بد من قذفه بحجر ، وتلفت حولى فلم أجد أحجاراً يمكن أن تقذف على أسد ، إذن فلأضربه بفرع شجرة ، ولا يكاد الخاطر يثب إلى رأسى حتى تسرع الحواس إلى التنفيذ ، فقد راحت عيناى تبحثان فى الأشجار عن فرع مناسب يمكن قطعه واستعماله كسلاح ، ولكن مجرد فكرة مهاجمتى للأسد جعلت قواى تخور ، فإن مجرد قذف الأسد بحجر أو ضربه بفرع

شجرة سيخلق منا أعداء ألداء وسيمس الشرف الرفيع الذى لا يمكن أن يسلم إلا بعد أن يراق على جوانبه الدم . . .

لا . . . لا ، إننى رجل مسالم ، لا داعى للاعتداء على الأسد ، فلنواجهه بالمحبة والرحمة ، ما علىّ إذا رأيت الأسد ، إلا أن أقف فى مكانى جامداً وأن أرسم على شفتى ابتسامة عريضة جدًّا ، فيها كل الود والمحبة والإخلاص لبنى الأسود الكرام . ولكن مسألة المحبة هذه لم تنتشر بعد فى عالم الغابات والأسود فلم تستطع أن تزيل القلق من نفسى .

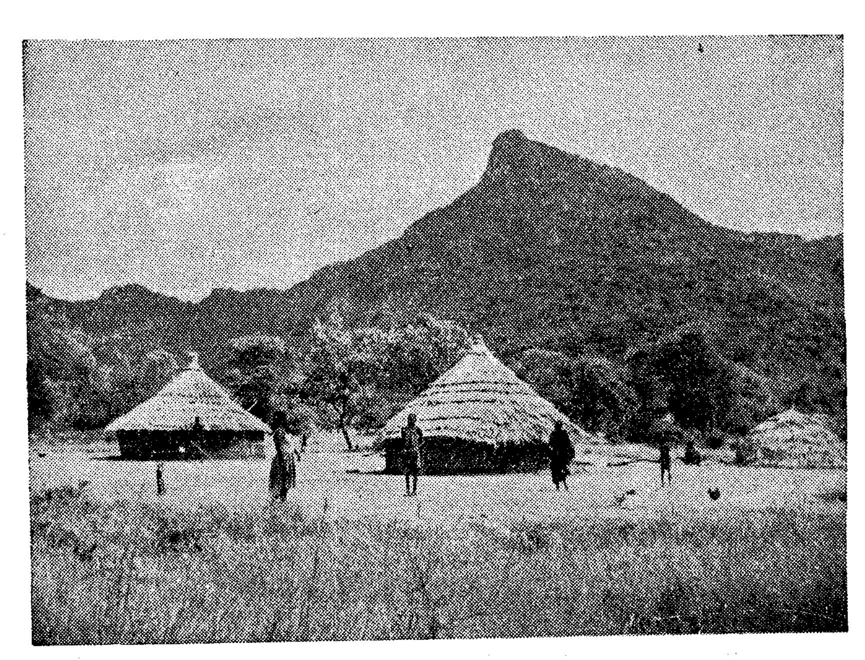
ثم رأيت أن أفض هذا النزاع كله ، وأضع حدًّا لهذه السلسلة من الأفكار والخيالات ، بأن أترك المكان وألحق بإخوانى الذين يدفعون السيارة وقد وجدت أن هذا هو أسعد الحلول ، ولكنى لم أشأ ، أن أوهم نفسى أن الخوف قد ملأنى ، ولذلك فقد رحت أتحرك بتثاقل وببطء نحو الجماعة التى كانت قد اختفت ، ولكنى لم ألبث أن رأيت أنه لا داعى لتصنع الحكمة والرزانة ، وخير لى أن أستحث الخطى لألحق بالجماعة ، بل يا حبذا لو أطلقت ساقى للريح ، ولكن بقية من الحياء جعلت موضوع إطلاق السيقان للريح لا يوضع موضع التطبيق ، مكتفياً بحث الخطى أكثر وأكثر ، حتى لاح لى منظر الجماعة وكانوا



قد كلوا وتعبوا من دفع السيارة ، وأخيراً اقتربت منهم لأتلقى النبأ الحاسم وهو أن السيارة قد تعطلت نهائياً ، واحترق بعض أجزائها ، وأنه من الخير الآن أن نفكر فى الرجوع وتأجيل الرحلة إلى اليوم التالى .

وهكذا عدنا بخفى حنين من رحلتنا نحو حدود الكونغو وجنوب غرب السودان ، وكان يخفف من وقع هذه الخيبة فى نفسى ، أن هذه الرحلة لم تكن فى حسابى أو تقديرى ، وأن كل هواى كان متعلقاً بالنيل ، والسير جنوباً فى اتجاه النيل ، حتى بلدة نمولى ، وحتى فيكتوريانيانزا لو استطعت إلى ذلك سبيلا .

إن هدف رحلتى الأول هو أن أعيش مع النيل أكبر قدر ممكن ، وأن أمتع ناظرى بمرأى أطول جزء من مجراه ، وكل انحراف أو ابتعاد عن النيل يميناً أو يساراً لم يكن يلقى الترحيب فى أعماق نفسى ، ولعل ذلك هو السر فى إخفاق هذه الرحلة نحو الغرب .



منطقة جوبا ، الجبال والتلال مغطاة بالأشجار فكأننا فى أحراش لبنان

١٥

الأحد ١٥ أبريل

. . . قال هذه هى حدودنا مع أوغندا ، وهذا هو النيل ، وكل ما وراء هذا الخط فهو أوغندا ، ولم يكن هذا الخط إلا خطاً وهمياً ، فالأرض كلها متصلة دون أن يكون فيها حاجز طبيعى . . .

الساعة ٩ مساء

كان لعدم نجاح رحلة الأمس ، تأثير مضاعف فى شحذ همم الإخوان لإنجاح رحلة اليوم الأساسية ، وهى الرحلة نحو نمولى . فلم تكن هناك عربة واحدة هذه المرة ، بل كانت هناك عربتان لتكون إحداهما احتياطياً للثانية ، وكان رفيقاى فى الرحلة هما الأخ السيد عبد الكريم ومفتش الصيد فى كل الاستوائية وصياد السودان الأول الضابط أبو سنينة .

ولعلعلت البنادق والمسدسات ، أو بالأحرى راحت تجرب وتمتحن ، وتحشى بالرصاص ، ودار الحديث بين الضابطين الكبيرين عن صيد الفيل ، والطريقة المثالية للقضاء عليه ، وأن ذلك لا يكون إلا بضربة فى المخ مباشرة وإلا فلا سبيل لقتله مهما أطلق عليه من الرصاص . واستعذت بالله فى نفسى من أحاديث القتل والضرب المباشر فى المخ . ولا شك أن صاحبىّ كانا يتصوران أن أعظم إكرام يمكن أن يحيطانى به هذا اليوم ، هو أن يصرعوا أمامى فيلا أو أسداً أو جاموساً هائجاً ، وكان من العبث أن أدخل فى نقاش مع رب الصيد فى جنوب السودان ، حول مشروعية الصيد وجدواه . ومن ناحية أخرى فلم أكن أعرف ماذا ينتظرنا من الحوادث ، فربما كانت هذه الأسلحة ضرورية للدفاع عن النفس ، ولقد رأيت بنفسى كيف استولى علىّ الخوف عندما وجدتنى

وحيداً فى الغابة بدون سلاح ، ولذلك فلم أحر جواباً ، وتركت السيدين الفاضلين يتحدثان عن ثمن أنياب الفيل ، وعن أحسن أنواعه ، ثم سألت السيد أبو سنينة : هل تعثرون على أفيال نافقة، أى ميتة حتف أنفها ، فأجابنى : بالعشرات ونحن نجمع ثروة لا يستهان بها عن هذا الطريق[١] .

نحو نيمولى

وانطلقت السيارة فى طريق جميل معبد ، كطريق الأمس ، بل يفوقه نظاماً واستعداداً فقد كانت هناك إشارات حجرية جيدة النحت تدل على المسافات كل ميل . كما كانت هناك اللوحات الدولية التى تحذر من منحنيات الطريق ، وتنصح بالإبطاء وتخفيف السرعة .

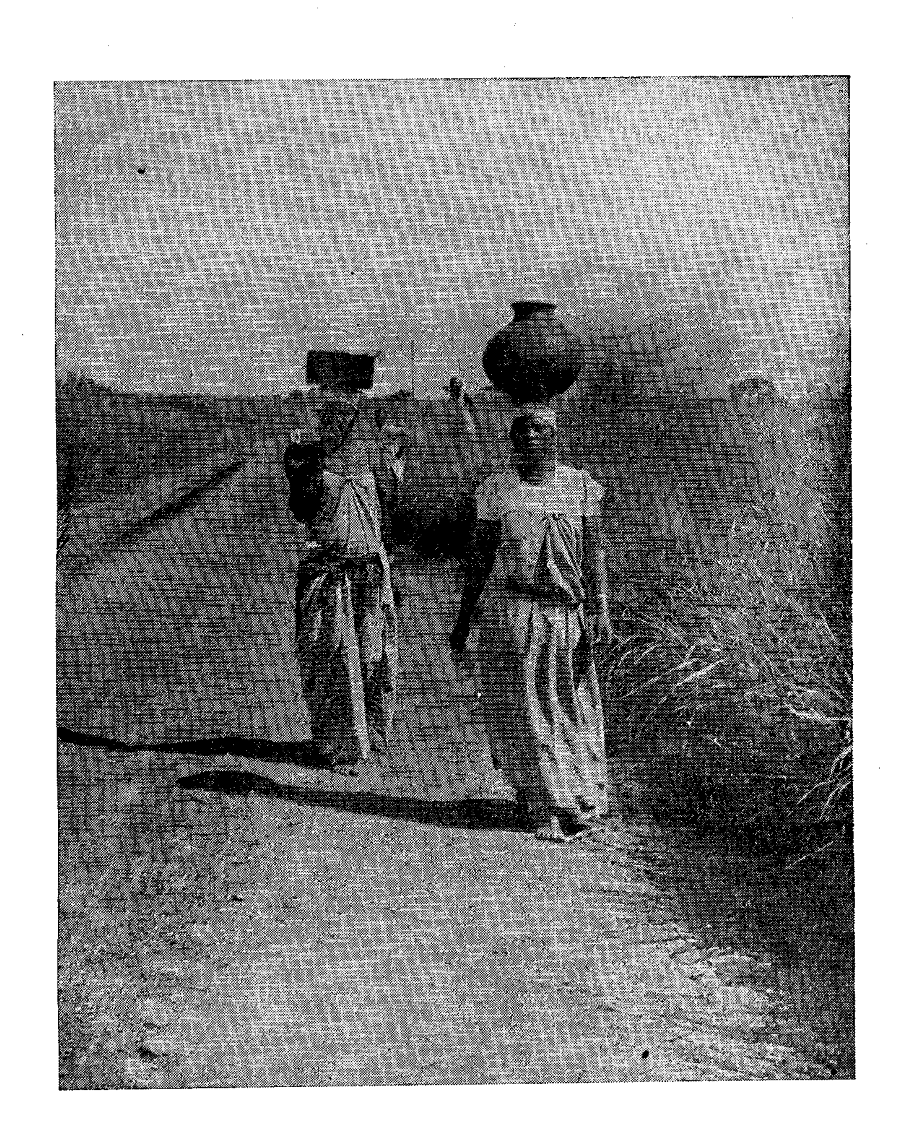
ولما كنت قد اعتدت الآن منظر الغابة ، وأنها ليست على الصورة التى كنت أتخيلها أو أحلم بها[٢] فقد بدأت أستمتع برؤية المنظر الذى يحيط بطريقنا والذى يتألف من عدد لا يحصى من الأشجار . وكانت أوراق الشجر لا تزال صغيرة ولكنها خضراء يانعة لقرب عهدها بالنمو ، وهكذا بدأت الحقيقة تتضح لناظرى ، وهى أننى أزور هذه البقاع فى نهاية فصل الجفاف ، حيث لم يبدأ موسم الأمطار إلا منذ أسبوع أو أسبوعين ، ولا بد أن منظر هذه الغابة سيتغير بعد انقضاء شهر واحد من الآن ، وسألت أبو سنينة عن ذلك فراح يحدثنى بحماسة ، عن الزهور التى لن تلبث أن تملأ هذه الغابة ، وعن المنظر الفاتن الذى ستتجلى فيه بعد فترة قصيرة ، وكيف أنها تظل بعد ذلك تنمو وتزدهر طوال تسعة أشهر كاملة .

وعلى الرغم ، من أن الخريف كان وشيك عهد بالابتداء ، وعلى الرغم

(١) تحصل الدولة سبعة آلاف جنيه سنوياً ثمن العاج المستخرج من الأفيال التى توجد ميتة فى الغابة (من تقرير مصلحة الغابات) .

(٢) هذا الطراز من الغابات الاستوائية المتكاثفة يوجد فى الكونغو البلجيكى ، وفى أوغندا وفى تنجانيقا .

من أنه لم يمض علىّ فى جوبا سوى يومين اثنين ، فقد كان منظر الأشجار والغابة بصفة عامة يختلف كل الاختلاف من حيث الازدهار والاخضرار ، عن هذه الأشجار التى اجتزتها فى اليوم الأول .



سكان المنطقة

وكان عمران الطريق بالقرى والحلل ، ومظاهر التمدن والحضارة النسبية أكثر ما يثير اهتمامى ، فالرجال يلبسون الشورت والأقمصة البيضاء النظيفة ، والدراجات تحملهم من مكان لآخر ، وبعض النساء يرتدين (الفساتين) الجميلة ، دون أن يفوتهن وضع الأحزمة الجلدية البراقة فى خصورهن على أحدث طراز ، وكثيراً ما كنت أرى كنيسة عقب وقوع نظرى على هذا الطراز من النساء . ولما تكررت هذه الظاهرة ، سألت صاحبى عن سبب هذا المستوى الراقى من المعيشة ، فكان جوابهما أن قالا لى « القطن » وأشارا إلى بعض شجيرات القطن المزروعة بجوار الأكواخ ، كما لفتا نظرى إلى زهر القطن نفسه وقد جمع فى بعض السلال . وبدأت أراقب هذه المسألة ، فإذا بى أرى حول كل كوخ من الأكواخ قطعة أرض مزروعة بهذا القطن ، وهو من النوع الأمريكى الذى ينمو على الأمطار والذى نجحت زراعته فى كافة أرجاء المديرية الاستوائية ، وهكذا تأكدت القاعدة المضطردة ، وهى أن الفقر سبب كل بلاء ورزية فحتى الحياة البدائية لا يوجدها ويبقى عليها سوى الفقر ، وحسب الإنسان أن يرفع مستواه الاقتصادى ، لكى يرتفع مستواه الاجتماعى والأدبى والعقلى .

فمشكلة الجنوب إذن فى فقر سكانه ، الذين يكتفون من الإنتاج بما يسد الرمق ويبقى على الحياة . أما لو استقروا ، أما لو علموا كيف يستغلون الأرض على نطاق أوسع ، وكيف ينتجون القطن ، وكيف يزرعون الذرة لا لمجرد سد أفواههم الجائعة ، ولكن بما يفيض عن حاجتهم ويمكن بيعه فى الأسواق لغيرهم ، فسوف يتبدل وجه الجنوب رأساً على عقب ، سوف يختفى العرى فى لمح البصر ، كما اختفى هنا وسط قبائل الباريا ، بل سوف يظهر هذا المجتمع المتحضر كما يبدو على طول هذا الطريق الذى نقطعه نحو نمولى والذى ينطلق حتى أوغندا .

بحر من الأشجار

ظلت السيارة تنطلق أميالا وعشرات الأميال ، والطريق يرتفع وينخفض ، وفى ارتفاعه وانخفاضه ، يتجلى المنظر بكل بهائه وروعته ، فعندما نصل إلى القمة المرتفعة نشرف على كل ما تحتنا وقد غطى بالأشجار ، وإذا كنا فى القاع رأينا القمم تظللنا وهى كلها أشجار ، وأشجار ، وأشجار .

وسيظل البحر هو المقياس الذى نقيس به كثيراً من الأشياء ، فالصحراء عندنا بحر من الرمال ، وفى منطقة السدود لا نستطيع أن نصفها إلا بأنها بحر من البردى ، وهذا الجزء من السودان يمكن أن يوصف بحق أنه بحر من الأشجار ، وإلا فما ظنك بمئات من الأميال شرقاً وغرباً وجنوباً وهى كلها مكسوة بالأشجار ، أشجار . . . أشجار حيثما وقعت العين أو سرح الفؤاد .

ومن بين هذه الأشجار ، شجر التمر هندى ، وشجر الماهوجانا ، وكل أنواع فصيلة الأكاشيا من سنط وطلح وأهليلج ونم وغيرها[1].

وكانت الغابة تبعث لنا بغير انقطاع أصوات صفير معين ، فسألت صاحبىّ عنها فقالا لى إنها أصوات الصراصير ، وسرعان ما تذكرت أن ريفنا المصرى ، ملىء بهذه الأصوات ، فلا يكاد الليل يجن ، حتى ترتفع أصوات الصراصير ونقيق الضفادع مرسلة هذا اللحن الخالد ، لحن الريف المصرى .

وعلى خلاف المتوقع وما قيل لى ، لم نشهد طوال الطريق ، حيواناً مفترساً واحداً ، وظلت البنادق فى أغمادها ، حتى الآن ، وكل الذى رأيناه هو الطيور من كل طراز ، ابتداء من مالك الحزين والأستاذ نسر النيل والزرازير وطيور الوادى ، حتى عشرات الأنواع المختلفة التى ألف عنها الإنجليز مجلداً ضخماً .

---

(١) تبلغ قيمة الأخشاب التى تقتطع من الغابات فى السودان لتستعمل فى الحريق ، ١٤ مليون جنيه — وقيمة الأخشاب التى تستعمل كفلنكات للسكك الحديدية ١٣٠ ألف جنيه والأخشاب التى تستعمل كأعمدة للمبانى والتليفونات والتلغرافات ٢٠٠ ألف جنيه ، وذلك كله بخلاف كميات أخرى لا تقدر من الأخشاب التى تستعمل فى شتى أغراض الحياة السودانية (من تقرير مصلحة الغابات) .

روافد

ومررنا فوق «كوبرى» قد ركب على مجرى صخرى ولم يكن فيه كثير ماء ، وقال أبو سنينة : هذا هو نهر الكت أحد روافد النيل ، ولا يكاد موسم الأمطار يبدأ ويستمر شهراً واحداً حتى ترى هذا النهر غاصًّا بالأمطار التى تمد بحر الجبل بقدر ثمين من مياهه . وبعد أن سارت السيارة بضع عشرات من الكيلو مترات ، مررنا على جسر آخر فوق رافد آخر ، إنه نهر « أصوا » وهكذا بدأنا ندخل فى منطقة منابع النيل ، حيث تصب المياه من كل مكان ، من الشرق ومن الغرب ، وكلما اتجهنا جنوباً ، تكاثرت هذه الروافد وتعددت ، ما بين بحيرات وأنهار ، وسيول تهبط من المرتفعات مباشرة إلى مجرى النيل .

أوغندا

وكلما اقتربنا من نمولى ، أصبحت المنطقة جبلية أكثر وأكثر ، وكأننا قد



جنوبيون فى قواربهم — طراز ما قبل التاريخ

أصبحنا فى لبنان أو سويسرا ، حيث يرتفع الطريق فإذا بنا فى قمة الجبل ، ثم ينخفض فإذا بنا فى سفحه ويمتلئ الإنسان بالخوف ، عندما يتصور أنه كان يسير فوق هذه القمة الممعنة فى الارتفاع . وفوق آخر قمة من هذه القمم قبل الوصول إلى نمولى ، بنت مصلحة الرى المصرية استراحة ، تطل على هذا المنظر الفريد ، وترقب كأنها مرصد أرض أوغندا مسقط رأس النيل الحبيب.

وعند هذه القمة وقفنا لنرى المنظر من تحتنا ، وكان كما قلت من قبل بحراً من الأشجار والاخضرار . وكان خيط رفيع أبيض يتجلى بين اخضرار الشجر ، وكان هذا الخيط هو النيل ، أشبه الأشياء بقناة ضئيلة كتلك التى يشقها أى مزارع وسط حقوله وغيطانه .

وأشار صاحبى على خط من الأشجار التى تبدو أكثر ارتفاعاً وتكاثفاً من غيرها ، وقال : هل ترى هذه الأشجار الداكنة ، قلت : نعم ، قال : هذه هى حدودنا مع أوغندا ، وهذا هو النيل ، وكل ما وراء هذا الخط فهو أوغندا ... ولم يكن هذا الخط إلا خطاً وهمياً ، فالأرض كلها متصلة دون أن يكون فيها حاجز طبيعى ، ولست أعرف على أى أساس تحكمى حددت حدود السودان عند هذه النقطة فقد كانت حدود السودان فى القرن التاسع عشر تمتد حتى بلدة مرولى[1] وراء بحيرة ألبرت ، ولكن الإنجليز الذين كانوا يرسمون خرائط الدنيا وخاصة فى أفريقيا على هواهم ، أرجعوا الحدود السودانية بضع مئات من الكيلومترات ، وفرضوا أن تكون نمولى هى النقطة الفاصلة ، مرجعين بذلك حدود السودان إلى الوراء وزاحفين بحدود أوغندا إلى الشمال ، وأحسب أن الساعة قد حانت ، لتعود حدود السودان إلى ما كانت عليه ، بل إلى ما وراء ذلك ، لا حباً فى الفتح أو الغزو أو رغبة فى التوسع ، وإنما لتحرير هذه الشعوب التى ما تزال ترسف فى قيود الاستعمار ، والتى سيبقى حظها كحظ

---

(١) أصبحت هذه البلدة مهجورة ، فلا يرى إلا خرائبها وأطلالها جرياً على قاعدة الإنجليز فى التعفية على كل ما يذكر بالماضى .

هذه القبائل النيلية التى أبقيت حتى اليوم عارية لكى يكون من السهل إفناؤها والاستيلاء على بلادها ، ولكن هذا الزحف السلمى لن يبدأ ، إلا فى اليوم الذى ترتقى فيه قبائل الجنوب ، وترى قبائل أفريقيا الأخرى ، نعمة الحرية والاستقلال فى السودان .

وسرحت بخاطرى إلى ما وراء هذه الحدود المصطنعة ، إلى الجزء الطبيعى ، الذى لا قيمة لهذا النيل كله بدونه ، إلى بحيرة ألبرت ، وإلى بحيرة الأم... بحيرة فيكتوريا ، وتطلعت إلى السماء وناجيت ربى . . . إلهى يا من قدرت لى أن أقف هنا فى نمولى رافع الرأس مزهوًّا بجو الحرية الذى أعيش فيه بعد جلاء الإنجليز عن هذه البقاع ، متى . . متى توقفنى يا رب ، كما أقف الآن مشرفاً على بحيرة فيكتوريا [1] ، بعد أن تكون بدورها قد تطهرت من الاستعمار الأجنبى ، ويصبح باستطاعتنا أن ننشق فى ربوعها عبير الحرية الذى ننشقه الآن ؟ ! وصفرت الريح من حولى وخفق الهواء ، وخيل إلىّ أننى أسمع أصداء على البعد تقول : « قريباً ... قريباً » .

نيل ألبرت

وكان من غير الممكن أن أظل غارقاً وسط هذه التأملات ، فقد كان علينا أن نتابع رحلتنا ، فتابعت السيارة انطلاقها ، وإن هى إلا بضع عشرات من الأمتار بعد هذه القمة التى وقفنا عندها ، حتى كان الطريق ينشعب إلى شعبتين ، وعلى إحدى هاتين الشعبتين وضع عمود خشبى وعليه لوحة خط عليها « الطريق إلى أوغندا » ، وهذا هو كل ما يفصل بين السودان وأوغندا ، لوحة صغيرة ، تشير إلى أنك بعد خطوات تترك السودان وتكون فى أوغندا .

ولم نسر فى هذا الطريق فالساعة لم تحن بعد ، وإنما سرنا فى الطريق

---

(١) بحيرة فكتوريا هى كبرى البحيرات الخمس التى تؤلف منابع النيل عند خط الاستواء وهى أعظم بحيرة فى أفريقيا وتبلغ مساحتها ٦٠٠٠٠ كيلو متر مربع من المياه العذبة .

الآخر ، لنصل إلى « احتياطى الصيد » .

واحتياطى الصيد هو إجراء لجأت إليه مصلحة الغابات لكى تحول دون انقراض الحيوانات المفترسة ، ولكى تخلق مناطق تستطيع الوحوش أن تنمو فيها وتتكاثر وهى آمنة مطمئنة ، فيكون بقدرة السياح والعلماء ، رؤية الحيوانات وتصويرها ودراستها فى مواطنها الأولى ، وهى تسرح وتمرح وتتناسل .

وتمتد هذه المنطقة ثلاثين ميلا على النيل وعرضها يتجاوز أربعة أو خمسة أميال.

وكان علينا لكى نصل إليها أن نعبر النيل ، أو بالأحرى بحر الجبل ، والذى يطلق عليه البعض اسم نيل ألبرت وقبل ذلك نيل فيكتوريا ، ولكنه بالنسبة لنا هو النيل ، والنيل دائماً ، والنيل فحسب .

وليس هناك جسر لعبور النيل ، وإنما هناك طوف توضع فوقه السيارة ويحتاج بعد ذلك إلى معونة خمسة عشر رجلا لشد الطوف من الشاطئ إلى الشاطئ المقابل ، وبينما كانت التعليمات تعطى لجمع الرجال « طلبة » أسرعت لأكحل عينى بمرأى النيل من جديد ، وإذا كنت أنت تمل من رؤية من تحب أو تسأم فأنا لست كذلك . لقد كنت ترانى أعدو لأقترب من مجرى النيل ، كأن بصرى لم يقع عليه من قبل ، وكأننى مشوق إليه مستهام لطول غيابى عنه ، ولذلك فقد نظر صاحباى إلى بشىء من الدهشة وهما يريانى أتركهما وأسرع للاقتراب من الشاطئ الذى تحجبه الأشجار والمرتفعات .

سحر وغموض وراقصات الباليه

وكان المنظر جد مختلف ، عن منظر النيل فى أى جزء مضى ، ولم يكن وجه الخلاف فى ضيق مجراه الذى لا يتجاوز ثلاثين أو أربعين متراً فقد اجتزنا فى منطقة السدود ما هو أضيق من ذلك ، وإنما الخلاف فى هذا الجو الغامض السحرى الذى كان يحيط بالمكان ، وككل سحر وغموض لا يستطيع الإنسان أن يدرك مصدرهما ، أو يعلل سببهما .

لقد وجدتنى أقف مسمراً فى الأرض ، محدقاً فى الماء ، الذى كان ينساب أمامى فى هدوء ولكن فى سرعة ورشاقة . كان سطح الماء متماسكاً أملس ، فلا تجعدات ولا أثر لتيارات الهواء أو المياه ، ومع ذلك فقد كان أبعد ما يكون عن الركود ، وإنما كان ينساب انسياباً ، لم يكن يتحرك ، لم يكن يجرى ، لم يكن يلهث ، لم يكن يمشى ، وإنما كان ينساب كنغمة هادئة ، أو نفس حالمة ، أو روح هائمة .

وكان يطفو على سطح الماء زهور خضراء من فصائل هذه النباتات المائية ويطلقون عليها اسم « زهرة النيل » وهى أشبة الأشياء بالوردة الكبيرة ، ولكن ورقها أخضر وسميك لما يكتنز من ماء . وكان منظرها بالغ الروعة والفتنة وهى تطفو فى مجاميع على سطح الماء ، وهى وحدها التى تدلنا بانسيابها اللطيف على أن الماء ينساب ، ولو لم تكن هذه الزهور الطافية ، لما أدركنا أن الماء ينساب فقد كانت هى وحدها آية الحركة والحياة .

ولست أعرف لماذا ذكرتنى رؤية « زهور النيل » بمنظر راقصات الباليه ، وهن يطأن الأرض فى خفة ورشاقة على أطراف أصابع أقدامهن ، وكأنهن يحلقن فى الهواء يملأن النفس متعة ، والروح نشوة وشفافية ، وهن يتمايلن ، أو يثبن أو يدرن حول أنفسهن ، خالقات هذه الموسيقى السحرية الغامضة التى تستولى على النفس وتأسر الفؤاد .

لقد كانت زهرات النيل تحدث فى نفسى هذا الأثر ، وهى تنساب فوق الماء أفراداً وجماعات ، عائمات مع التيار المنساب .

وكان لا بد أن أمسك فى يدى بواحدة منهن ، فإذا بهذه الأوراق الخضراء الناعمة الملساء المبسوطة على الماء كأنها صحيفة أو طبق ، تخفى أسفلها شعوراً طويلة سوداء ، ليست سوى الجذور الممتدة فى الماء[1] ، لتحمل الغذاء إلى هذا الجسد الحى الفتان ، إلى عذارى النيل وراقصات النباتات والأعشاب .

(١) يأكل سكان المنطقة البذور التى توجد فى هذه الجذور .

شلال الفولة

وقطع عليّ صاحبي أبو سنينة ، هذه الخلوة مع النيل الحبيب ، وأسراب الزهور ، وقال : هلم إلى رؤية الشلال ، ريثما يفرغون من جمع الرجال ونقل السيارة ، فقلت : أي شلال؟ فقال : شلال الفولة ، أوَلم تكن تعرف ؟ قلت : أنا لا أعرف شيئاً حتى تعرفني ، ولقد جئت إلى هنا كي أعرف . قال : إذن انتظر حتى تراه . . . ترى شلال الفولة .

وامتطينا إحدى السيارتين ورحنا نسير في دروب حجرية بين الأشجار ، ونجتاز لججاً من الأشواك ، ولكن السيارة لم تلبث أن عجزت عن السير ، فترجلنا وواصلنا السير على الأقدام ، فوق أحجار قاسية سوداء ملساء حيناً ، ومليئة بالنتوءات المخيفة حيناً آخر ، وتبعث إلى الذهن كل أسماء الأحجار القاسية كالجرانيت ، أو الديوريت وكل أسماء الأحجار النارية ، وأنا (أجهل من دابة بطبيعة الحال في موضوع الصخور وطبقات الأرض) ولكن كلمة البازلت طرأت على ذهني كاسم لهذه الأحجار السوداء ، ولكنه بازلت غير محبب ، بل في صورة ألواح متلاصقة ومسطحات وطبقات متوازية ، ووسط هذه الصخور أدركت ما أنا فيه من الشيخوخة ، فقد سبقني زميلاي الضابطان في حين كنت أتعثر خلفهما ، وأمشي في حذر خوف السقوط أو الانزلاق ، وتكسير قدم أو ذراع أو (افتتاح جبهة) ، وفجأة سمعت خرير الماء وأدركت أننا نقترب مما أسماه صاحبي الشلال ، ولكني لم أكن أعرف أي شلال .

وازداد صوت الماء هديراً ، ثم تحول بعد قليل إلى زئير ، وقادنا الكشاف الذي كان يدلنا على الطريق إلى حافة ربوة من الربوات الصخرية السوداء لنرى منظر الشلالات ، ولم أكد أصل إلى هذا المكان ، حتى صرخت : « الله أكبر . . . الله أكبر » فقد كنت أشهد عجباً ، وكنت أشهد أحد مناظر الطبيعة العالمية .

لقد كان النيل الذى وصفته لك منذ لحظات وهو يسير الهوينا منساباً ترقص على ظهره هذه الزهرات الخضراء ، قد تحول فى هذه اللحظات ، إلى غول ومارد جبار ، لقد تحول إلى رعد وبرق وصواعق وبراكين ، لقد كان فى ثورة من الغضب ، كان مغيظاً محنقاً ، يملأ الدنيا صخباً وعويلا . ما الذى حدث ؟ ما الذى جرى ؟ ما سر هذا التحول العجيب ؟ لقد كان النيل ينتقل من بيئة إلى بيئة جديدة ، لقد كان يخرج من حياة ، ليبدأ حياة جديدة ، فلم أكن أعرف ، أن نمولى توشك أن تكون نهاية الهضبة الاستوائية ، وأن النيل عندها يسقط من عليائه ، استعداداً للسير فى سهل السودان ، هذا السهل الفسيح المنبسط الذى سيظل يمعن فى السهولة والانبساط ، حتى يصل إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وهذا هو السر فى انفعال النيل ، هذا هو السر فى انقلاب هذا الحمل الوديع إلى ثور جامح . وهنا فقط أدركت سبب هذا الغموض والسحر الذى كان يكتنف مجرى النيل على بعد بضعة كيلومترات عندما وقفت أراقبه ، وأراقب فوقه هذه الزهور الراقصة ، لقد وصفت الماء بأنه ينساب ، وهذا تفسير هذا الانسياب ، فهو لم يكن يجرى بقوة دافعة فيه ، وإنما كان ينجذب نحو هذا المنحدر انجذاباً ، وكان يشد إلى هذا المصير شداً .

ولكن من أين جاءت هذه القوة التى تشبه أن تكون قوى العواصف والبراكين ، والتى تجعلنا نقشعر فى مكاننا ونهتز ، مما جعلنى أخشى على نفسى من السقوط ، فتراجعت بحركة لاشعورية بضع خطوات إلى الوراء ؟! لقد تولدت هذه القوة من انحباس الماء فى مجرى صخرى ضيق ، لا يتجاوز عرضه ١٦ متراً ومن سقوط الماء بهذه الغزارة عمودياً فوق هذه الصخور ، ومن هذا الضغط ومن هذا السقوط ، خلقت هذه القوة العاصفة .

وإذا كان الماء هو مصدر كل شىء حى ، فهو مصدر لا ينتهى من القوة والطاقة الكهربائية ، التى تستطيع أن تدك الجبال وأن تسير القطارات وتدير المصانع . وساءلت نفسى : أعلى هذه الوتيرة يجرى النيل دوماً وسرمداً ؟ أسيظل

النيل ، يسير فى هذا المجرى العميق الصخرى[1] ثم يتساقط ، فوق هذه الجنادل محدثاً هذا الشلال العنيف ؟ وجاءنى الجواب فوراً : أجل سيظل هكذا دوماً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وأحسست بالأسف ، أن تتبدد هذه الثروة من الطاقة الكهربائية هباء ، ومرة أخرى عتبت على الإنجليز ، إننى لا أريد أن أغذى الكراهية ضد الإنجليز ، وما دام الإنجليز قد جلوا عن مصر والسودان ، فلست ممن يتشبثون بالحديث عن الماضى ، لتأجيج الحقد فى النفوس ، فأنا اليوم من دعاة التحاب والتسامح والمغفرة ، ومع ذلك فإن الإنجليز — سامحهم الله — يأبون إلا أن يذكرونى دائماً بمسئوليتهم ، فى إبقاء هذه الذخائر والكنوز معطلة . أما كان من الممكن منذ ثلاثين أو أربعين سنة ، توليد الكهرباء من هذا المسقط المائى فيحولون هذا الجزء من السودان إلى منطقة صناعية من الطراز الأول . أجل لقد كان باستطاعتهم أن يفعلوا ، ولكنهم لم يفعلوا وتركوا هذه القوة تتبعثر فى الهواء ، كما تركوا توليد الكهرباء من خزان أسوان منذ إنشائه ، عندما كانوا مسئولين عن إدراة مصر ، فقد كان على مصر أن تشترى الفحم من إنجلترا ، لا أن تولد الكهرباء من خزان أسوان .

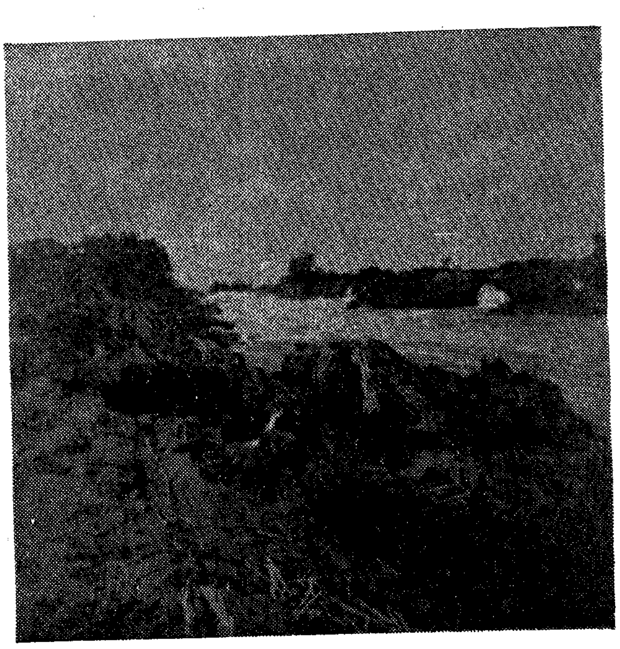
وإذا كانت مصر قد شرعت تعمل على توليد الكهرباء من خزان أسوان ، فالله وحده يعلم ، متى سيتاح للسودان توليد الكهرباء من شلالات الفولة .

ولم أعرف بالضبط مقدار طول مسقط المياه ، وإن كان من الواضح أنه ليس كبيراً ، ولكن الشلال ، لا يتألف من مسقط واحد ، بل من عدة مساقط متباعدة ، وكلها تأخذ باللب ، ويحار الإنسان كلما انتقل إلى واحد منها ، أيها أروع وأقوى وأكثر فتنة فى منظره .

(١) يبلغ عمق النيل فى وسط مجراه قبل هذه الشلالات ١٦ متراً ومجرى النهر الصخرى على شكل ٧ .

شلالات نياجرا

لقد أتيح لى فى يوم من الأيام ، أن أشهد شلالات نياجرا بين أمريكا وكندا . وشلالات نياجرا هى أعظم الشلالات فى العالم على الإطلاق ، وليست شلالات الفولة بالنسبة لها إلا كالقطة الصغيرة إلى جوار الفيل ، بل لعل النسبة بينهما دون ذلك ، فلا يتجاوز حجم الفولة بالنسبة لنياجرا حجم العصفور بالنسبة إلى حجم الفيل الكبير ، ومع ذلك فلست أذكر أننى تأثرت وانفعلت نفسى كانفعالها وأنا أشهد شلالات الفولة . لقد وقفت أنظر إلى شلالات نياجرا كما أنظر إلى منظر ساحر من مناظر الطبيعة ، كالسماء أو الشروق أو الغروب ، لقد كان المنظر ضخماً وعملاقاً ، بحيث لا يستطيع الإنسان إلا أن يقف أمامه متأملا ظواهر الكون الكبرى . . . أما هنا . . . هنا أمام



شلالات الفولة

شلال الفولة ، فقد كنت منفعلا ، كنت مهتاجاً ، لا أعرف ماذا أفعل وكيف أتصرف بهذا المنظر الذى أراه ؟ هل أشرب هذا الماء وأعبه عبًّا ، هل أقذف بنفسى وسط هذا التيار لأتحطم فوق هذه الصخور ، هل أستطيع أن أحمله معى ، وأعود به إلى مصر ، هل أستطيع أن أنقل كل المصريين والسودانيين ، إلى هنا ليروا هذا المنظر ، لم أكن أعرف ماذا أفعل ، كنت مهتاجاً منفعلا ، سعيداً كأقصى ما تكون السعادة . كنت حائراً ، فى الحقيقة لست أعرف . . . ماذا كنت وماذا كان شعورى ؟

كانت الصور ، تتابع فى رأسى بسرعة غريبة ، كانت صور النيل المختلفة ، تمر فى خيالى وخاطرى كأنها شريط سينمائى متحرك . . . أهذا هو النيل العريض فى مخاضة أبى زيد ، أهذا هو النيل المتحول إلى مستنقعات فى منطقة السدود ، أهذا هو نيل الملكال ونيل الخرطوم ، ونيل عطبرة ، وحلفا ، أهذا هو النيل الزاخر خلف خزان أسوان بارتفاع مائة متر فى عرض كيلومتر ، أهذا هو نيل قنا والأقصر وسوهاج وأسيوط والمنيا وبنى سويف ، والقاهرة ، أهذا هو النيل الذى يمر هناك ، هناك أمام بيتنا فى الروضة ، ويلعب أولادى على شاطئه ؟ أجل ، أجل ، إنه هو بعينه ، إنه هو النيل الحبيب !! ولكنى أراه الآن فى طفولته ، وهو لا يزال بعد عفريتاً صغيراً كثير الشقاوة ، وستزيده الأيام نضجاً ونمواً ورشداً . . . إنه هو بعينه نيلك ومحبوبك ومن قطعت من أجله كل هذه الألوف من الكيلومترات .

وعندما طلبوا منا أن نتحرك لنواصل برنامجنا المرسوم ، كنت أنتزع نفسى انتزاعاً وأجر قدمى جرًّا ، وإن كانت نفسى قد انطوت نهائيًّا على هذا المنظر فلن ينزع منها إلا بالموت . . . ومن يدرى فحتى بعد الموت ، لاشك أننا نحمل معنا كل المناظر الجميلة والمؤثرة فى حياتنا ، والتى نحرص على تذكرها .

شلالات

وبقى أن نتساءل : ولماذا هذا الاسم ، اسم الفولة؟ ومصدر علمى ـ كما هى العادة ـ قادتنا ومرشدونا ، فسألت أبو سنينة هذا السؤال ، فقال لى إن القوم يطلقون على موارد المياه بصفه عامة اسم الفولة ، فلا يقول الواحد منهم ، إننى ذاهب إلى البحر أو إلى النيل ، وإنما يقول أنا ذاهب إلى الفولة ، فشلالات الفولة بلغة القوم إذن معناها شلالات النهر .

وليس شلال الفولة سوى آخر شلال من نوعه فى النيل ، ففى المسافة ما بين نمولى وبحيرة فيكتوريا ، تقع سلسلة من الشلالات ، إذ يهبط مجرى النهر من بحيرة فيكتوريا التى ترتفع عن سطح البحر ١١٣٣ متراً إلى بحيرة ألبرت التى لا يتجاوز ارتفاعها عن سطح البحر ٧١٦ متراً ، وتقع نمولى على ارتفاع ٦١٢ متراً ، وهكذا ينحدر النهر ستمائة متر تقريباً ما بين فيكتوريا ونمولى ، يجتازها فى سلسلة من المساقط والشلالات ، ومن بينها شلالات أوين التى بدأ الإنجليز يولدون منها الكهرباء ، وشلالات مارشيزون أكبر شلالات النيل ، والتى يبلغ طول مسقطها ٤٠ مترا ، ولكن أليس من الأفضل أن أدع هذه الأرقام ، وهذا التحدث عن أشياء لم أرها ، إلى أن يحين الوقت الذى أراها فيه ، وإذا كان شعورى أمام الفولة هو هذا الذى وصفت ، ترى فماذا يكون شعورى أمام مارشيزون ؟ لندع ذلك للطبعة الثانية من هذا الكتاب إذا قدر أن يطبع ثانية ، وقدر لى أن أعيش وأن أرى مارشيزون .

فى مستودع الصيد

لم يدع مشهد الفولة فى نفسى أى فراغ ، أو مجال لرؤية شىء آخر أو الاستمتاع بشىء آخر ، لقد أشبعنى ، لقد أسكرنى . لقد كنت أريد أن أجلس وأن أخلو إلى نفسى ، وأن أروح (أجتر) هذا المنظر الذى رأيته وعشت فيه

ولذلك فقد أحسست بكثير من التكلف والمشقة وأنا أقاد لرؤية مستودع الصيد .

كانت السيارة الكبرى التى تصاحبنا قد نقلت إلى الشاطئ الآخر ، فركبنا زورقاً عبر بنا النيل فى منطقته التى وصفتها من قبل والتى يسير فيها حالماً وادعاً ، وركبنا السيارة وجلسنا ثلاثتنا فى منطقة القيادة التى تولاها أبوسنينة ، وجلس فى القسم الخلفى من العربة بعض كشافة الصيد وحراسه ، وهم مستعدون ببنادقهم التى حشيت وعمرت ، وسارت السيارة فى أرض احتياطى الصيد أو مستودعه .

ومرة أخرى أحسست بخيبة أمل ، وما أكثر ما يعانى الإنسان خيبة الأمل ، عندما يكون له خيال حاد يصور له الأمور والمسائل على صورة تخالف صورتها فى الطبيعة . لقد كنت أمنى نفسى ، وقد أصبحنا على خط عرض ٣ ، ونحن فى منطقة خصصت لتكاثر الحيوانات المتوحشة ، أننى سأعيش أخيراً فى غابة متكاثفة الغصون مليئة بالأحراش ، كتلك التى نراها فى السينما فى روايات « طرزان » أو الروايات الاخرى التى تقوم على المغامرات فى الغابات . ولكن عينى لم تقع على شىء من ذلك ، ولا على مجرد الأشجار التى لم تعجبنى باعتبارها غابة والتى كنا نسير خلالها طول الطريق . لقد كانت المنطقة التى نسير فيها ، منطقة جبلية غير مستوية ، مغطاة بالحشائش القصيرة والنباتات الخضراء ، وليس بها أشجار إلا النادر القليل هنا وهناك . وقطعت بنا السيارة شوطاً كبيراً دون أن نرى شيئاً ، أو تقع العين على أى حيوان ، ولكنا لم نلبث أن رأينا صفًّا من القردة جالساً القرفصاء على طول النهر ، ولما سمع صوت السيارة بدأ يتقهقر فى انتظام خلف رائده الذى كان يسير فى المقدمة ، ولقد أبهجنى هذا المنظر ، وكنت أحب أن نقف طويلا لأتأمل هذه الفرقة من القردة ، وأتتبع سيرها بالمنظار ، وأشهد كيف ستتصرف وإلى أين ستنتهى ، ولكن مرشدنا أبو سنينة لم تكن تعنيه القردة فى قليل أو كثير ، ولا شك أنه

تصور أنه من الإهانة لجلال مستودع الصيد ووقاره ، أن نشغل أنفسنا برؤية القردة ، فليس أقل من أن نرى الجاموس الوحشى فى قطعانه ، لا أقل من رؤية الأفيال ، بل أولا وأخيراً يجب أن نرى وحيد القرن رمز الجمهورية السودانية ، والحيوان الوشيك الانقراض ، ولذلك فقد انطلق بالسيارة دون أن يدع لى فرصة التمتع بالقردة الأعزاء ممن يأبى دارون إلا أن يعتبرهم أبناء عمومتنا .

وسألت أبو سنينة : هل فى هذا المستودع أسود ، فأجابنى كان فيه أسد واحد ، ولكنه لم يلبث أن هاجر نحو الشمال لقلة الغزلان فى هذا المكان . ولم يكد يقول لى هذا القول ، حتى كانت حماستى تتلاشى نهائياً ، فإن هواى متعلق برؤية أسد أو نمر أو فهد وغير ذلك من الحيوانات المفترسة آكلة اللحوم ، أما الأفيال فقد رأيتها ، وأما الجواميس ووحيد القرن ، فكلها من آكلة الحشائش ، وليس فيها غريب أو جديد .

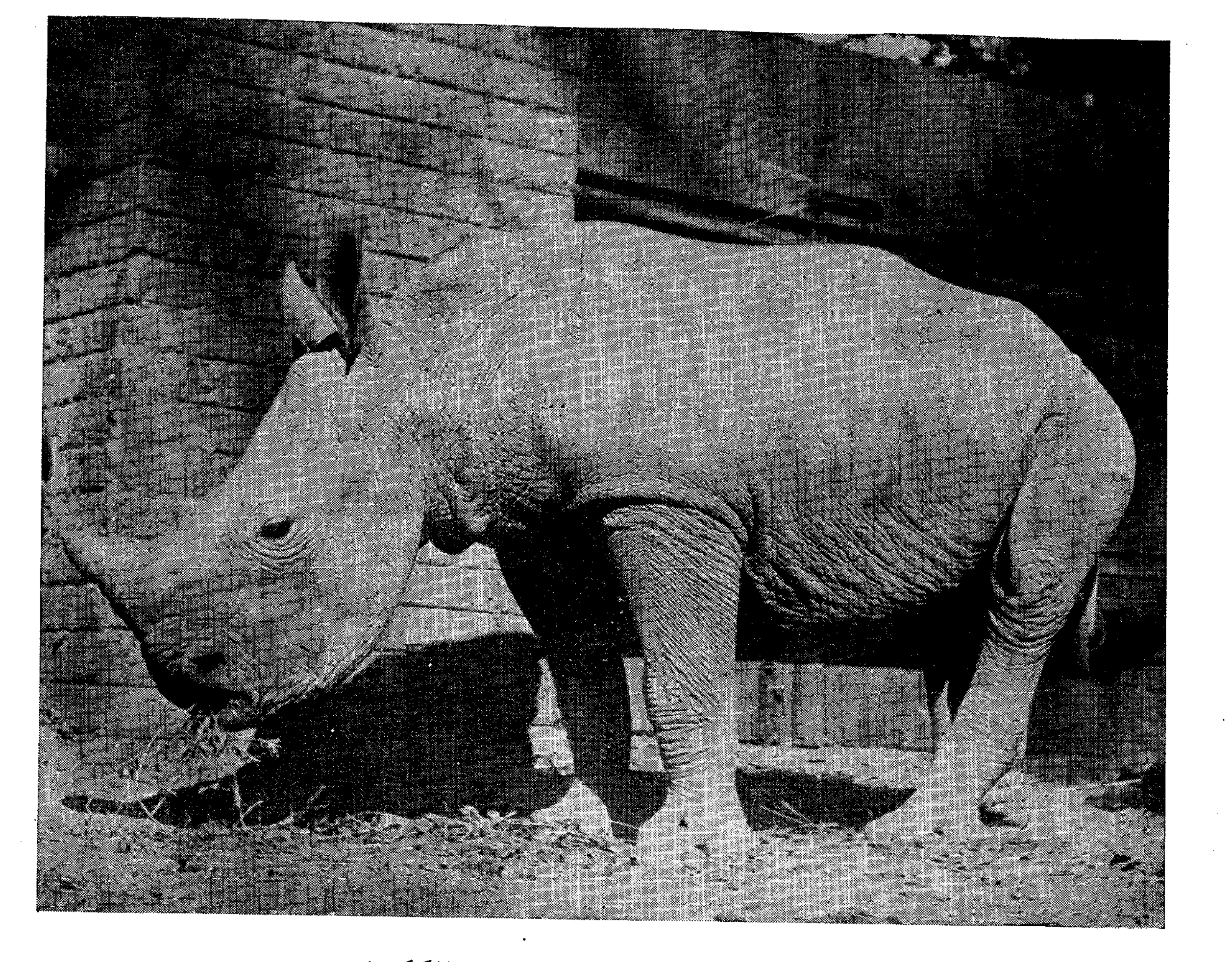
ولكن كان لا بد من أن نتابع أبو سنينة فى برنامجه . وقد أنزلنا من السيارة ، وبدأ يسير بنا صاعداً فوق تلال حجرية جرانيتية ، كان أقل اختلال فى توازن الإنسان قد يؤدى به إلى الانزلاق فالسقوط ، وأخيراً وبعد جهد شاق عنيف ، وصلنا إلى قمة مرتفعة نستطيع أن نرى منها على البعد قطيعاً من الجاموس الوحشى ، الذى طالما سمعت عن وحشيته وخوف الصيادين منه ، لأنه إذا هاج أو هاجم فلا يمكن أن يتراجع إلى الوراء أبداً ، مهما كانت جراحه خطيرة ، وإصابته بالغة ، فهو لا يمكن إلا أن يهاجم فى عنف ، حتى يسقط صريعاً . وعلى الرغم من أن المسافة كانت بيننا وبين القطيع من الجاموس كبيرة فقد شم رائحتنا ، كما شم رائحتنا كذلك وحيد القرن ، فانطلق القطيع يعدو ، وانطلق وحيد القرن يعدو إلى جواره ، ثم لم يلبث أن سبق القطيع ، وهكذا رأينا أحد مناظر الغابات الطبيعية .

ضد الريح

وقد حدثني أبو سنينة أن من أهم قواعد الصيد ، أن يقترب الصياد من الحيوانات فى الاتجاه المضاد للريح ، وإلا فإن الحيوانات تستطيع أن تشم رائحة الإنسان ، أو أى رائحة غريبة على بعد بضعة كيلو مترات ، ولذلك فإن الصيادين يحملون معهم ، مسحوقاً من الرمل يذرونه فى الهواء ليدلهم على اتجاه الريح أو الهواء ، فيسيرون دائماً فى الاتجاه المضاد ، وبهذا يستطيعون أن يقتربوا من فريستهم دون أن تشم رائحتهم . والحيوانات المفترسة تسير على هذه القاعدة بغريزتها ، عندما تبحث عن فرائسها .

واقترح علينا أبو سنينة أن نقترب من وحيد القرن ، مؤكداً أننا لن نصاب بسوء ، وباستطاعتنا أن نأخذ له صورة عن قرب ، ولكن الذى لم يتصوره مرشدنا الضابط الشاب المتحمس ، أنه يخاطب رجلا شيخاً لم يعد له قدرة على احتمال المشاق ، فضلا عن كونى كنت صائماً فى ذلك اليوم ، وقد يحتمل رفقائى الصوم باعتبارهم ضباطاً ، أما أنا فحتى ذلك الوقت كنت قد أمضيت خمس ساعات بين الطريق ومشاهدة الشلالات ، مجهداً وسط الانفعالات والعواطف ، ولذلك فقد أحسست بقواى وقد بدأت تخور ، واعتذرت عن مصافحة الزميل المحترم رمز جمهورية السودان السيد وحيد القرن ، وأكدت له أننى قد رأيت فى حديقة حيوانات مصر وحيد قرن من أكمل طراز ، فليس له إلا قرن واحد فى جبهته ، ولست أشعر فى نفسى فى الوقت الحاضر بالقدرة على القيام بالمجاملات والاحترامات الرسمية ، التى يجب أن أقوم بها فى حضرة سيدنا وحيد القرن ، ورجوته أن ينوب عنى فى فرصة قادمة ، فى تقديم فروض الطاعة والولاء .

وعند هذا القدر انتهت رحلتنا فى نمولى ، وعادت بنا السيارة نحو جوبا . ولكن أبو سنينة قال لى شيئاً بعد أن انطلقت بنا السيارة ، لو أنه قاله لى من



رمز الجمهورية السودانية – وحيد قرن صغير (الكركدن)

قبل ، لما تركت هذه الفرصة تفلت من يدى ، فقد حدثنى عن شجرة فى نمولى يطلق عليها شجرة أمين باشا[1] ، وأمين باشا هو ذلك الطبيب النمساوى إدوارد شوينفرت الذى كان موظفاً فى الحكومة المصرية ، وعين موظفاً من قبل إسماعيل باشا ، فى المديرية الاستوائية، وظل يتدرج فى مناصبها حتى أصبح مديراً لها ، وكان دائب السير والتجوال فى أنحاء هذه المنطقة والكتابة عنها ورسم خرائطها ، وتصحيح ما ورد من الأخطاء فى الخرائط والمعلومات التى ذكرت من قبل عن هذه المناطق .

وقلت لأبو سنينة ، أجل كنت أحب أن أرى هذه الشجرة ، فقال لى إنها شجرة ضخمة عملاقة ، ولا تزال مورقة مزهرة ، ولم يكن أمين باشا هو وحده الذى جلس تحت هذه الشجرة ، وإنما جلس تحتها كذلك صمويل بيكر ، ولقد نفر قلبى من ذكرى صمويل بيكر ، فإن اسمه يقترن بالتخريب والتدمير ، والقتل الذى ارتكبه بحجة أنه يوطد سلطان الخديو إسماعيل فى هذه البقاع مع أن الإجماع منعقد على أنه لم يكن هناك أى ضرورة لهذا العنف ، وسط هؤلاء القوم المسالمين ، الذى كان يمكن دائماً اجتلاب سرورهم وصداقتهم بالهدايا والمعاملة الطيبة ، ولكن صمويل بيكر كان إنجليزياً مستعمراً ، وكان فى خدمة أغراض إنجلترا ، قبل أن يكون فى خدمة مصر التى وظفته فى عام ١٨٦٨ براتب لا يحلم به إنسان فى ذلك الوقت . وهو عشرة آلاف من الجنيهات الذهبية ، وأرسلته إلى هذه المناطق مصحوباً بقوة عسكرية مصرية ، للقضاء على الرق والاتجار بالعبيد ، أى أن مصر قد أرسلته ليكون رحمة لهذه القبائل فى أوغندا ، وليهيئ لها سبل الحياة الحرة الكريمة ، لا ليكون نقمة عليها .

---

(١) لم يغير الإنجليز اسم هذه الشجرة وأبقوها تحت اسم شجرة أمين باشا لأن أمين باشا كان نمساوياً . أما شجرة محمد بك المصرى والتى تقع فى جنوب الخرطوم فقد كان يجب أن تغير إلى شجرة غوردون .

الرجاف

ولم يكن فى طريق عودتنا ما يلفت النظر ، إلا بعد أن افترقنا من جوبا ، فوجدنا على شاطئ بحر الجبل ، جبلا قائماً بنفسه كأنه بركان ، فسألت عن اسم هذا الجبل ، فقيل لى : الرجاف . وإذن فهذا هو الرجاف الذى سمى مركبنا العزيز باسمه ، أما لماذا سمى الجبل بالرجاف ، فليس ذلك إلا أنه يرجف من حين لآخر فيحدث زلزالا تحس به هذه المنطقة كلها . وإلى جوار هذا الجبل توجد نوافير من المياه الحارة الساخنة المنبثقة من باطن الأرض . وقد كانت الرجاف هى الميناء النهرى الكبير الذى أعدته مصر فى هذا الجزء من النهر قبل أن يخلق الإنجليز بلدة جوبا .

غوندكرو

وأخيراً وصلنا إلى جوبا من الجنوب ، دون أن نمر ببلدة غوندكرو ، وكنا قد وصلنا إليها من الشمال ، دون أن نمر بغندكرو كذلك ، بل دون أن نسمع شيئاً عن بلدة غوندكرو ، مع أنك لو طالعت كتب التاريخ ، تاريخ السودان ، لوجدت كلمة غندكرو تدوى كالطبل ، فقد كانت هى المركز الذى تقوم منه البعثات لاكتشاف ما بقى من النيل ، بل كانت هى العاصمة التى جعلت مقرًّا لصمويل بيكر ليتخذها قاعدة لنشاطه وإدارته للمديرية الاستوائية ، بل كان فيها شيخ إسلام مهمته نشر الإسلام فى تلك البقاع .

ولكن اسم غندكرو لا يتردد الآن ولا يوجد من يعرف عنه شيئاً . وفى الخريطة الضخمة التى أحملها معى ، لا وجود لهذا الاسم على الخريطة . . . وسرعان ما زالت دهشتى وعجبى لهذه الحالة ، فلقد عنى الإنجليز على آثارها ، وأزالوها من الخرائط[1].

(١) لم أعثر إلا فى خريطة كبيرة جداً على اسم غندكرو وهى تقع فى مواجهة جوبا إلى الشمال منها قليلا ، ولكن لم أجد من يقول لى شيئاً عما إذا كان لهذه المدينة آثار باقية حتى الآن .

١٦

الاثنين ١٦ أبريل

... بين هذه الأمطار وبين وجودى صلة ، هذه الأمطار هى مصدر حياتى ، وحياة أبنائى وإخوانى ومواطنى على ضفاف النيل ، هذه الأمطار هى التى منها نشرب ، ومنها نزرع ، ومنها نأكل ، هذه الأمطار الهابطة من السماء هى النيل ... فاهطلى ... اهطلى أيتها الأمطار ...

الساعة ١ مساء

أمطار ورعد وبرق

لم أكد بالأمس أتناول طعام الإفطار ثم أصلى العشاء ، حتى آويت إلى الفراش ، فإذا بى أستغرق فى النوم ، فلا أستيقظ إلا فى الساعة الحادية عشرة مساء ، لأرى المطر الذى كان قد بدأ عند وصولنا إلى جوبا ، وقد تحول إلى طوفان ، فى حين كان صوت الرعد ولمعان البرق ، يخيل إلى أن الدنيا مشرفة على نهايتها . وبالرغم من الجدران السميكة ، التى تتألف منها الحجرة التى أسكن فيها ، وبالرغم من القبة الفولاذية ، التى تعلو الحجرة ، فقد خشيت أن تتداعى تحت وطأة المياه الهاطلة كالشلالات ، أو أن تحل بها صاعقة فتحرقها وتنسفها نسفاً ، ولذلك فقد انكمشت أكثر وأكثر تحت الغطاء وتلببت به ، ولكن ذلك لم يهدئ من خاطرى ، فوضعت الوسادة على رأسى حاجباً عينى عن بريق البرق وساداً أذنى من قصف الرعود ، ولذت بالنوم كأى طفل صغير يخاف من العفاريت .

واستيقظت من جديد فى الساعة الثالثة صباحاً ، لأرى هذا الذى أرعبنى من قبل وقد زاد عنفاً وشدة ، وإن كانت الجدران لم تخر على بعد ولا تزال

صامدة أمام هذه العواصف والأنواء . وكانت الحجرة تضاء فى لحظات متعاقبة بنور البرق ، حتى لقد فكرت أنه من الممكن مطالعة بعض الكتب على هذا الضوء .

وإذا كان شلال الفولة قد أدهشنى مرة بغزارة مياهه التى لا تنقطع ، فقد أدهشنى هذا المطر مرات . لقد كان سريعاً متواصلا عنيفاً ، وكان لا بد من أن أبحث عن وصف جديد غير حكاية « أفواه القرب » ، وقد جاش فى ذهنى ، أن طوفان نوح الذى أغرق الدنيا كان شيئاً مما أرى . ولست أعرف لماذا — إذا هطلت المياه على هذه الصورة بضعة أيام متواصلة — لا تغرق الدنيا بالفعل ، دنيا جوبا وما يحيط بها ؟ والجواب عن ذلك ، أن جوبا تقع كما وصفت لك من قبل على ظهر هضبة فالمطر ينزلق عنها إلى ما دونها ، والأرض صخرية حديدية لا يختلط بها الماء . ولقد كان من مواضع إعجابى أن أرى جوبا جافة فى الصباح ، عند ما رحت أتجول فى طرقاتها مودعاً إياها ومسلماً على بعض إخوانى ومعارفى ، فكأن السماء لم توشك على الانطباق على الأرض بالليل ، وكأنه لم يهطل من المياه ما يكفى لإغراق قطر بأكمله لا مدينة واحدة .

وكان مقرراً أن تتحرك الطائرة من مطار جوبا ، إلى الخرطوم فى الساعة واحدة والنصف ، ولكن الساعة لم تكد تبلغ الثانية عشرة ، حتى عادت الأمطار تهطل بأشد مما فعلت فى الليلة السابقة ، وقد انقضى عليها الآن ساعة كاملة دون أن تخف حدتها ، أو يضعف عزمها ، أو يقل ماؤها . وقد بدأت أتشكك فى إمكان قيام الطائرة وسط هذا البحر من المياه . لقد أعدت الطيارة لتطير فى الهواء ، ولكنى لا أتصور أنها مجهزة بحيث يمكن أن تطير فى جوف بحر .

أمطرى . . . أمطرى أيتها السماء

ولست أعرف لماذا يبهجنى هذا المطر ويغمر نفسى بالسعادة ، حتى لو عرقل الطائرة عن السفر والمسير ، وحتى لو ملأنى خوفاً ورعباً من أن أذوب

وأتلاشى وسط هذا الماء الكثير ، وليس سر هذه البهجة بالشيء الخفى ، أو الذى لا يستطاع تفسيره ، فأنا الآن بالقرب من منابع النيل ، ومن هذه الأمطار وأمثالها إلى الجنوب والشرق ، يتألف الينبوع الذى يتدفق منه النيل[١] ، فبين هذه الأمطار وبين وجودى صلة . هذه الأمطار هى مصدر حياتى ، وحياة أبنائى وإخوانى ومواطنى على ضفاف النيل ، هذه الأمطار هى التى منها نشرب ، ومنها نزرع ، ومنها نأكل ، هذه الأمطار الهابطة من السماء هى النيل ، فاهطلى . . . اهطلى أيتها الأمطار وفيضى ، فما أنت إلا رحمة الله وبركته ، ما أنت إلا إرادته فى أن يولد هذا الشعب ، شعب وادى النيل .

---

(١) الرأى السائد أن أمطار خط الاستواء التى تكون منابع النيل ، قد نشأت من تبخر مياه المحيط الهندى فى شرق أفريقيا ، والمحيط الأطلسى فى غربها ، وتحمل الرياح التجارية هذه السحب المحملة بالأمطار ، إلى منطقة خط الاستواء لانخفاض ضغطها الجوى ، فترتطم بجبال المنطقة وهضابها فتسقط الأمطار ، مؤلفة البحيرات والروافد ومجارى المياه .

١٧

الثلاثاء ١٧ أبريل

الساعة ١٠ مساء

الخرطوم

أكتب هذه السطور، كما ترى أيها القارئ العزيز ، من فندق الجراند أوتيل فى الخرطوم فى الساعة العاشرة مساء . فالأمطار لم تعطل الطائرة عن القيام من جوبا بالأمس . وكم كان مضحكاً عندما علمت بعد أن تحركت الطائرة أننا سننزل فى الملكال كمحطة فى الطريق ، وأننا سنصل إليها بعد ساعتين. وشعرت لأول مرة منذ أمد بعيد كما لو كنت أبعث من بين القبور ، كما لو كنت واحداً من أهل الكهف الذين ناموا طويلا ، واستيقظوا ليروا الدنيا غير الدنيا والحياة غير الحياة .

لقد كنت طوال هذه الأسابيع الماضية ، غارقاً كما رأيت بين السماء والماء وأوراق البردى ، أعيش بين شروق الشمس وغروبها ، مع أصدقائى من الجرنتى والفيل والتمساح ، لا حساب عندنا للزمن فضلا عن الأيام والساعات ، وفجأة كانت هذه الحياة تطوى صفحتها ، كما لو كانت حلماً ، وفجأة أرى نفسى مستيقظاً وفاركاً عينى من الدهشة ، ساعتان للوصول إلى الملكال ، وهى التى احتجنا لقطعها بالسفينة إلى ثمانية أيام بالكمال والتمام. ثمانية أيام بلياليها والباخرة تسير ، ودواليبها تلهث من الحركة مبهورة الأنفاس . ثمانية أيام ننام فيها ونستيقظ ونفطر ونتغدى ونشرب الشاى ونتعشى ، ونلعب ونثرثر ونكتب ونطالع . والآن يقال لى : ساعتان لنصل إلى الملكال .

وليست طائرتنا فى نهاية الأمر إلا طائرة متواضعة من ذات المحركين ، أما

لو كانت طائرة ذات أربعة محركات حديثة ؛ لقطعتها فى ساعة واحدة ، والطائرات النفاثة ، تقطعها فى أقل من ساعة ، والصواريخ التى تتطور صناعتها الآن سيكون باستطاعتها أن تقطعها فى بضع دقائق أو أقل .

ولكن ماذا كان يمكن أن أعرف عن النيل وشاطئيه ، لو أنى سافرت بهذا الأسلوب . هل كان يمكن أن يجد هذا الكتاب طريقه إلى الحياة ، لو أنى كنت مسافراً بالطائرة ؟ هل كان يمكن أن أتحدث عن الجوهرة والأرضة والزرازير؟ وأتأمل فى بديع صنع الخالق ، وأفكر بعقلى فى إثبات وجوده . الحق أن حياتنا الآلية والميكانيكية لا يمكن إلاأن تكون على حساب الروحية والشاعرية ، ومع ذلك فإن للطائرة زاويتها التى نرى منها المناظر ، فهى تحيل الدنيا كلها إلى خريطة مجسمة ، وكان يجب أن أركب الطائرة فى عودتى ، لأرى خريطة النيل كأروع ما يكون رسم الخرائط .

عندما كانت الباخرة تسير بنا فى منطقة السدود وفى تعاريج جونجلى ، لم أكن أدرك إلا أننا نسير ونسير ، والشمس تارة إلى يميننا وأخرى إلى يسارنا ، أما من الطائرة فأنا أرى هذه التعرجات رأى العين ، ولقد هالنى أننا كنا نسير فى هذه الدوائر ، وكيف أن الباخرة تعود بعد مشوار طويل إلى نقطة تحاذى النقطة التى كانت فيها منذ بضع ساعات .

ولم تكن منطقة السدود هذا المجرى الضيق المفتوح وسط جزر نبات البردى العائمة ، لقد كانت تبدو من الطائرة على حقيقتها ، مستنقعات تغرق مساحات شاسعة ، وفى وسطها جزر سوداء ، لا بد أنها جزر البردى ، وكانت المستنقعات تبدو كصفحة لامعة ، وغير الماء صفحات سوداء . وظل هذا المنظر طويلا جداً ، حتى اختفى عن أبصارنا ، لأن الطائرة انحرفت عن منطقة السدود لتصل فى خط مستقيم إلى الملكال . وقلت للمضيف فى الطائرة : أرجو أن تنبهنى لالتقاء السوباط بالنيل الأبيض . فقال لى : هذا عند الملكال ، فقلت له : لا بل قبل الملكال بكثير جداً ، ونسيت أننى أتحدث بعقلية الرجاف التى احتاجت

إلى ست ساعات أو يزيد لكى تنقلنا من الملكال إلى ملتقى السوباط . وإن هذه الساعات بالطائرة لا تعنى سوى لحظات . ولذلك فلم يكد يقال لنا إننا وصلنا إلى الملكال ، حتى نظرت من النافذة لأرى خريطة النيل المجسدة ، لأرى نهر السوباط يلتقى ببحر الجبل ، وينشأ منهما النيل الأبيض ، وترى هذه الأنهار من السماء وكأنها شرائط من الفضة أو الزجاج .

النيل الأبيض

واستأنفت الطائرة سيرها من الملكال ، محلقة الآن فوق النيل الأبيض ، وقد استقام عوده واشتد ساعده وغزر ماؤه . . . وإن هو إلا قليل حتى أصبحنا فوق كوستى محطة الابتداء والتى احتجنا منها إلى ثلاثة عشر يوماً للوصول إلى جوبا وها نحن أولاء نصل إليها بعد أربع ساعات . . . وها هى ذى مدينة الدويم . وها هوذا جبل الأولياء .

وجبل الأولياء يبدو من الطائرة بالليل ، شيئاً مبهجاً وكأنه مجموعة من عقود الدرر واليواقيت والزمرد ، فالأنوار الكهربائية بألوان مختلفة ، ممتدة على شكل خطوط ودوائر أو متناثرة بغير نظام داخل البيوت المنشأة فى هذا المكان .

لقد كان المنظر فاتناً ، ولكن الطائرة لا وقت عندها لهذه الخزعبلات . الطائرة لا تعرف شعراً ولا تعرف غروباً أو شروقاً ، الطائرة لا تعرف إلا أنها تطير لتطوى الأرض والجو طيًّا ، فلا تكاد ترى الشىء حتى تبتعد عنه .

لقد وصلنا إلى الخرطوم .

والخرطوم هى عاصمة السودان ، وهى لهذه هامة وكبيرة الخطر ، ولكن الخرطوم لم تنشأ فى هذا المكان بالذات ، إلا لأنه المكان الذى يتم عنده حدث من أكبر أحداث الطبيعة وأعظم آثارها فى تاريخ البشر ، عند الخرطوم يلتقى النيلان الأبيض والأزرق[1] ، ومن هذا الالتقاء ، كان ما كان .

(١) يسمى هذا الالتقاء بالمقرن .

كان خلق دلتا النيل على بعد ثلاثة آلاف كيلو ، فليست دلتا النيل سوى رواسب الطمى الذى يحمله فيضان النيل الأزرق والأبيض إلى البحر فى كل عام[1] ، وهل مصر إلا دلتا النيل ، وهل كانت توجد مصر ، لو لم يكوّن النيل دلتاه ، ويمد هذه الصحراء بالحياة .

وعند الخرطوم ، يتم هذا الحادث الكبير ، بحيث يمكن القول ، إن الخرطوم هى أم القاهرة ، وإن ما يجرى من أحداث الطبيعة عند الخرطوم ، وما يجرى بعد ذلك عند القاهرة ، مرتبط كل منهما بالآخر ارتباط النتيجة بالسبب.

وإنى لأدع القلم الآن ، لأحدق فى ماء النيل الأزرق ، ولأحنى رأسى أمامه بخشوع ، فمن هذه الزرقة التى تعكس زرقة السماء ، تنبثق العناصر الحمراء ، كرات الدم التى تملأ أرض الجزيرة ، وشمال السودان ، ثم شمال الشمال فى مصر ، بالحيوية والحياة [2] .

* * *

وهكذا انتهت رحلتى فى أعالى النيل ، وقد تدهش إذا قلت لك إنها لم تعلمنى شيئاً جديداً ، حقًّا لقد أرتنى بعض صور وتفاصيل ، ولكنها من ناحية المعرفة بمعناها الحقيقى ، وأعنى بها جوهر المعرفة ، لم تقدم لى جديداً . قد تكون زادت فى إيمانى بأن جميع سكان وادى النيل يؤلفون أسرة واحدة ، لأنهم أبناء أب واحد ، وأنه لا يوجد كبير فارق بين الدنكاوى والشلكاوى وهو يتعلق ببقرته ، وبين الفلاح المصرى وهو يتعلق بجاموسته ، فإذا كان الدنكاوى

---

(١) تبلغ كمية الطمى التى يحملها النيل إلى مصر سنوياً ٨٥ مليون طن .

(٢) يبلغ متوسط تصريف نهر النيل سنوياً ٨٤ ملياراً من الأمتار المكعبة . ونصف هذه الكمية من الماء يصرفها النهر خلال مدة الفيضان التى لا تستغرق أكثر من شهرين ونصف وهى المدة من منتصف يوليو حتى آخر سبتمبر . من هذه الكمية الضخمة يقدم النيل الأزرق ٨٦٪ حيث يبلغ تصريف النهر ٥٦٩٣ متراً مكعباً فى الثانية . ولكن النيل الأبيض لا يلبث أن يسترد اعتباره بعد انتهاء الفيضان فيظل محتفظاً بتصريفه ، فى حين ينخفض النيل الأزرق .

وهكذا إذا كان النيل الأزرق يمد النيل بـ ٨٦٪ من ماء فيضانه ، فإن النيل الأبيض يمد النيل بـ ٨٣ ٪ من مائه الجارى خلال سبعة شهور فى السنة .

ينام مع بقرته فالفلاح المصرى ينام مع جاموسته، وإذا كان الدنكاوى يبكى تأثراً لوفاة بقرته فكذلك يفعل الفلاح المصرى .

لا ، إن هذه الرحلة لم تأتنى بشىء جديد ، فقد كنت أعلم من قبل ، أننا أبناء أب واحد ، وكنت أعلم من قبل أن مزاجنا وعواطفنا واحدة ، وكنت أعلم من قبل ، أننا نحب بعضنا بعضاً كما يحب أفراد الأسرة الواحدة بعضهم . . . أوَلسنا نشرب نفس الماء ، ونأكل نفس الأطعمة ، وننشق نفس الهواء ، وما مزاجنا ، وما أجسادنا ، وما عاداتنا وتقاليدنا إلا هذا الماء الذى نشرب ، وهذا الطعام الذى نأكل ، وهذا الهواء الذى ننشق .

وليس شعب النيل وحده هوالذى ينتمى لأب واحد وأم واحدة، بل ليس العرب الذين يؤلفون أمة واحدة ، ينادى الكل الآن بوجوب اتحادها لتؤلف فيما بينها الولايات العربية المتحدة [١]، وإنما بنو الإنسان قاطبة ، ليسوا إلا أبناء أب واحد وأم واحدة، فهم جميعاً أبناء آدم وحواء، وقد خلقوا جميعاً، يجرى فى عروقهم دم واحد، فليس هناك دم أبيض ، أو دم أزرق ، ودم سميك وآخر خفيف ، وإنما هو دم أحمر قان يجرى فى عروق الدنكاوى والشلكاوى كما يجرى فى عروق الإنجليزى أو الأمريكى فضلا عن المصرى؛ والجميع يولدون بأسلوب واحد وبطريق واحد ، ويتغذون بمادة واحدة وهى لبن الأم ، والجميع يحملون نفس العواطف ، فيبكون ويتألمون ويضحكون ويبتهجون ، والجميع يتزوجون ويؤلفون أسراً ويحبون أولادهم ، والجميع يموتون ويتحولون إلى تراب وعظام ، لا فرق فيهم بين أمير وحقير أو بين بطل فاتح ومقهور مغلوب ، وبنو البشر جميعاً ، ينجحون ويسعدون ويهنأون ، إذا هم تعاونوا وتحابوا ولم يحاول بعضهم أن يظلم بعضهم الآخر أو أن يستغله ويرهقه لحسابه، بعد أن لم تعد هناك حاجة للرقيق ، كما لم تعد هناك حاجة لاستغلال الإنسان واستعباده ، فقد

---

(١) تمت الخطوة الأولى فى بناء هذه الدولة العظمى بإعلان الجمهورية العربية المتحده التى تألفت من مصر وسوريا فى أول فبراير سنة ١٩٥٨ — الناشر .

أغنت الآلة عن ذلك كله ، وأصبح بقدرة الآلات أن تسعد البشر أجمعين ، وأن تمدهم بكل ما يحتاجون إليه من مستلزمات الحياة .

لقد وصلت البشرية إلى اكتناه سر من أسرار الطبيعة الكبرى ، وهو الطاقة الذرية ، وبموجب هذه الطاقة ، أصبح من المتصور إمكان تخريب أوربا وأمريكا وغيرها من القارات وتحويلها إلى قاع صفصف كأن لم تغن بالأمس . كما أصبح بقدرة الإنسان لو استخدم هذه الطاقة فى الأغراض السلمية ، أن يزرع الصحارى ، وأن يجفف البحار وأن يدك الجبال إذا شاء ليجعل منها حدائق غناء ، بل سوف يكون فى مكنته ، أن يصل إلى الكواكب وأن يستغلها بما يعود على الجنس البشرى بالخير والبركات (١) .

وعلى بنى الإنسان أن يختاروا بعد أن أصبحوا فى مفترق الطرق : أيريدون أن يسيروا فى طريق الفناء ، أم طريق البقاء ؟ أيريدون أن يزرعوا الشقاء والحقد ليحصدوا الآلام ، أم يزرعوا الهناء والحب ليحصدوا السعادة ؟

وأحسب أن بين الفناء والبقاء ، وبين الشقاء والهناء ، لا يمكن إلا أن تختار الشعوب بقاءها وهناءها .

وليس يقف الآن عقبة فى وجه هذا التعاون البشرى الذى يعود على الجميع بالخير والرخاء إلا بقايا الاستعمار والاستغلال ، ومحاولة البعض الاستعلاء على البعض الآخر ، فلتقف البشرية صفًّا واحداً ضد هذه المخلفات لعهد يجب أن ينقرض . . . فليقف بنو البشر ضد الاستعمار ، وليتعاونوا على تحرير الشعوب كلها . . . فليقفوا فى وجه الظلم والطغيان والاستغلال فى أى ركن من أركان الأرض ، حتى يصفو وجه الدنيا ، ولست أدعو لثورة أو حرب أو عنف لتحقيق هذه الأغراض ، فإن العنف يولد العنف ، والحرب تخلق الحرب وإنما أدعو لمحاربة هذه الآفات ، بالسلاح الوحيد الذى لا يفل ، والذى لا يترك

---

(١) تحقق هذا الأمل عند إعادة طبع هذا الكتاب ، ففى ٤ أكتوبر سنة ١٩٥٧ نجح الإنسان فى إطلاق أول كوكب صناعى يدور حول الأرض — الناشر .

جروحاً وندوباً ولا يريق دماً ، سلاح حداه : العلم من جانب ، والحب من جانب آخر ، لأن الجاهل لا يستطيع أن يحب ، ولأن الحب الإيجابى الذى يفعل الخوارق لا يمكن إلا أن يكون مبنيّاً على العلم ، فلنتعلم وليعلّم بعضنا بعضاً ، ولنتحاب وليحب بعضنا بعضاً . . . . ولنجعل العلم هو رسالتنا وغايتنا وهو وسيلتنا وسلاحنا .

هذا هو طريق الخلاص ، هذا هو السبيل نحو السلام والرفاهية ، هذا هو طريق وحدة وادى النيل ، فالوحدة العربية ، فالوحدة الإنسانية ، فالوصول إلى الكمال ، فالاتحاد بالكل .

* * *

وإنى لأرجو أن أكون بهذا الكتاب المتواضع قد وضعت لبنة فى بناء التعارف والمحبة البشرية ، أرجو أن يكون ما ينطوى عليه قلبى من إخلاص وحب للبشر أجمعين ، هو الشفيع لما احتوى عليه من أخطاء ، أو إيذاء غير مقصود لشعور أحد ممن تحدث عنهم الكتاب . وأن يكون مقدمة لكتب أخرى أكثر علماً وتحقيقاً ونفعاً .

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٨



ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة